رواية

أشرف الخمايسي

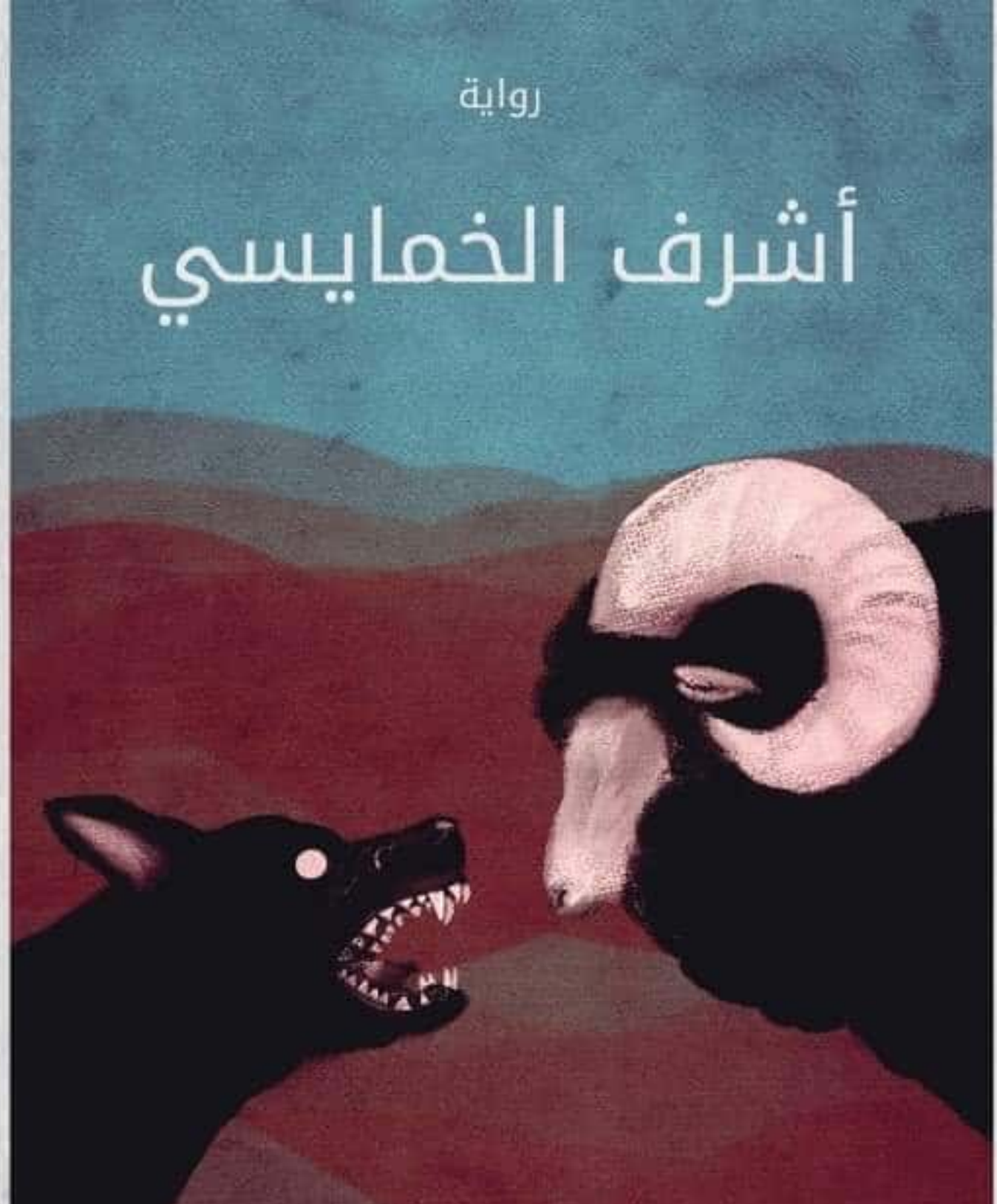

خَـروفٌ وكَـلْـبٌ

منشورات إبـيـدي

عنوان الكتاب: **خروف و كلبِ**

تأليف: **أشرف الخمايسي**

الترقيم الدولي للكتاب **ISBN 9789778551204** **طبعة مصرية**

التصنيف الموضوعي (ثيما): **رواية - خيال شعبي وملحمي** **Thema Codes: F - JBGB**

الطبعة : **الأولى - 2019** رقم الإيداع : 2019/13453

التحرير والتدقيق اللغوي: **إبييدي بوك داتا** **ibiidi BookData**

لوحة الغلاف:

تصميمات إبييدي

سوليمان

خدمات إبييدي بوك داتا للنشر

ibiidi BookData Publishing Services

www.ibiidibookdata.com

Windsor, UK & Alexandria, Egypt

منشورات إبييدي

www.ibiidipublishing.com

الناشر : **منشورات إبييدي - إبييدي مصر**

سموحة - الإسكندرية info@ibiidipublishing.com

\ibiidiPublishing

\ibiidiPubAR

اطلب جميع الإصدارات من www.ibiidi.com

طبعة مصرية غير مسموح ببيعها خارج مصر

© جميع الحقوق محفوظة للناشر و أي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو الكترونية او اي وسيلة سمعية او بصرية دون موافقة كتابية، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

أُنهِيَت في القاهرة؛ 30 ديسمبر، 2018 الميلاديّ. ومهداة إلى المُعلِّم «سيباستيان كاستيليو» الَّذي واجه الطُّغيان والاستبداد كبعوضة ضئيلة تواجه فيلًا ضخمًا. وإلى السِّياسيّ الشَّريف «إيتيان دي لا بويسي» مُناهِض الشُّعوب إذا اختارت العُبوديَّة طَواعيَّة. وإلى الكاتب الحُرّ «أحمد خالد توفيق» الَّذي تَمنَّى لو أنَّ الشَّباب يقرأ.

الليلة الأولى

هنا القحط.

لم يعد النَّهر يجري، ولا التُّرع بالماء مُترَعة، فتشَقَّقت أرض الزِّراعة، وأمحلت.

إذن؛ هنا الفقر.

خربت المدن والقرى؛ والسَّبب بصريح العبارة، ودون لَفّ أو دوران: جور السُّلطان.

وفي الحين الَّذي أعجف الظُّلمُ البلادَ، وأهزل الحيفُ العبادَ، اتَّسعت كروش رجال الحكم والأجناد؛ ضاقت ألبابهم، وعضُلت أجسادهم، فضربوا النَّاس بالسِّلاح الميري، وأجبروهم على الرِّضا القَسريّ، والخنوع لهم، والسُّكوت على بلاويهم.

لكن، مهما أُجبِر المظلومون على الخنوع والسُّكوت يبقى التَّذمُّر في قلوبهم حارقًا فَوَّارًا، لا بُدَّ له من أن ينقذف بَرَّاها، مثل الحمم تنقذف بَرَّا الأرض. صنعة الله، ومن أحسن مِن الله صنعة؟ لا أحد، إلَّا الأحد.

وإلى حين انفجار البراكين، بحممها الحارقة، يستمرئ المطحونون شتم السُّلطة وسَبَّها. وحتَّى يشتمون ويَسبُّون من غير الوقوع في قبضة بطشها، فتحبسهم في المعتقلات، وتحاكمهم بالقضاء الجائر، ما يُعرّضهم لأحكام بالتَّأبيدات والإعدامات، فإنَّهم يُحوّلون السَّبَ والشَّتيمة إلى غناء، والتَّظاهرات إلى حفلات طرب.

وقد جاء الشَّيخ «أبيض الهِلّي» إلى النَّجع؛ رجل مجدع يملأ

هدومه، يَلفّ العمامة المُزهَّرة على رأسه، ويعقد بها جبينه، يلبس الجَلّابية واسعة الكُمّين، تحتها الصِّديريّ الأبيض ذو الخطوط الطوليَّة المُفضَّضة؛ يُجيد الغناء، والعزف على الرَّبابة. وعزف الرَّبابة أصله حزين، وأصل الغنوة قِصَّة حزينة، عن خروف عَضَّه كلب، وخرفان قهرتها الكِلبان.

الموضوع وعر، وراكب على الوجع، تَهلَّل له الغلابة المستمعون، وصاحوا يقولون، إنَّهم على أَحرِّ من الجمر منتظرون.

ضَيَّفوا المُغنِّي؛ عَشّوه لحمًا، وطبيخًا، وأَرُزًّا. ودَخَّن الحشيش على الشِّيش. وشرب مع الدُّخان شايًا ثقيلًا، أسود حَارًّا، معمولًا على البَصّ المُولّع نارًا. ثُمَّ مسك الرَّبابة، وتنَحَّم وشَدّ الأوتارَ، سَلَّك حنجرته، وأجرى القوس على الشَّعر المشدود، فصدحت الرَّهيفة بمَزِّيكا بلاد قِبلي، وشرع يغَنِّي.:

وأوّل الـقــول نِـبــدِيــه
بـحمــد رَبِّ الــبَرِيَّــة.
والحُبّ والشَّوق نِــبدِيه
لـ«مُحمَّد» قائد الــسَّريَّة.
أُصلّي وأُســلّم عــلــيــه
سِيـدِ العُجْم والعَرابيَّة.

ضَجَّت حناجر المستمعين بالصَّلوات والتَّسليمات على رسول الله مُحمَّد، الَّذي بقطرة من نوره خلق الله الأكوان، وما فيها من جماد وحيوان؛ وكانت المشاعل منكوتة في شقوق الجدران،

ألهابها فَيّاضة بالنُّور والنِّيران، تنعكس أضواؤها شررًا وَمَاضًا في عيون أناس جلسوا ملهوفين لسماع قِصَّة مُشكِلة، جرت وقائعها بين صنفين من الحيوان.

والقول نقوله لناس تفهم
زينــه وعــايقــه تِـبــاهَى.
ولو جــرعوا كــوس الــهَــمّ
رجــال رامـــيــه بــلاهــا.
تُـنـضُــر ســحـايب الــغَمّ
وتطــلب من الله جِلاهـــا.

البَصّ على حجارة المِعَسّل؛ الجوزة تقرقع بأفواه، والدُّخان يطير بأفواه، أفواه بشفاه مُشقَّقة مثل الجدران المحيطة؛ أسنان صفراء مُهتَّمة، وأخرى سوداء مُعتِمة؛ الوجوه سمراء طلاها الشُّحوب، الأجساد مُلبَّسة بهلاهيل وسخة، لكن الرَّبابة المُخادِعة، وصوت أبيض الهِلّي، ألبساهم الصُّوف الإنجليزيّ وشيلان الكشمير الهِنديّ؛ هكذا بالوهم تَزيَّنوا، وتعايقوا، وتباهوا!

وإذا كان عسف السُّلطان ألزمهم الخوف والجبن، فإنَّ الرَّبابة رَبَّة، تنفخ الأرواح في الأموات، فتبعثهم أحياءً، لا خوفٌ عليهم، ولا يحزنون. هكذا الجبناء صاروا رجالاً صناديدَ، لا يَهمّهم البلى؛ فتصايح المستمعون بحماسة، يزعقون للشَّيخ أبيض:

- الله يفتح عليك يا بحر المَغنى، انطلق وكَسّر السُّدود. نحن الرِّجال الرَّامية بلاها.

خُد مِنِّي واسمع يا إنسان
قِــصّـِة خــروفٍ مليحٍ.
لم يِرضَ بالــظُّــلم يِنعانٍ
وإن كـــان يصـبح دبــيحٍ.
خُد مِنِّي واسمع يا وَد عَمِّي
كلامي مــافِيــهْشي قبـيحٍ.

صاح «خفاجة» بأعمق منطقة من حنجرته، بأعلى صوته، وقد احمَرّ وجهه من فرط الانفعال، وكان إنسانًا جاوز سِنَّ الشَّباب، وأقبل على سِنِّ الرُّجولة، من النُّوع الَّذي لا يتَحمَّل عزف الرَّباب، أو نفخ المزمار، أو قرع الطَّبل، الموسيقا تلعب بأعصابه، فتَهزّه هَزّ الرِّيــح للشَّجر والنَّخيل، وتخرجه عن طوره فيرقص ويميل، ويحصل له جوى ملتهب، فيتفاعل مع المُغنِّي بالصُّراخ والزَّعيق.

صرخ خفاجة في الشَّيخ أبيض الهِلّي، بصوت حاد، رفيع، كصياح إوَزَّة خائفة:

- يلعن دين أبوك يا شيخ أبيض. عَليَّ الطَّلاق بالثَّلاثة كلامك كُلّه مليح، ليس فيه قبيحٍ. قل وخَلّصنا.

ضحك المُغنِّي؛ يُحبّ أبيض انفعالات سامعيه المنفلتة إذا كانت تُعبِّر عن انسجامهم، فواصل العزف مع إبطاء الوتيرة، وتعميق النُّبيرة، ما يُوحي بأنَّه سيدخل حالًا في الموضوع.

قِصّة خروفٍ واعي ومعقول
في المراعى اسمه «تعسير».

هانعيد ونزيد فيه القول
مِقدامٌ ما يخشى التّعاسير.
خروف راسي ولــه عــزم
كاسر من جمـلة الاكاسير.

وكانت الشَّاة «سميرة» جميلة، تفَرَّدت عن جميع شياه القطيع بصوفها الأبيض كالحليب، لتبدو قطعة مضيئة قُبِست من نور ساطع؛ وكانت رشيقة، تخَطَّت مرحلة النُّعوجة بالكاد. وقد أشرفت حالًا على أوَّل ولاداتها. الشَّمس بين العصاري والمغارب؛ هذا أثقل أوقات اليوم على روحها، إذ تستشعر فيه أنفاسَ قُوَّة جَبَّارة تقترب من الأرض، تقبض على النَّهار وتَجزّه، تكشط عنه الضِّياء ببطء، لتكشف عن ليل ذي ظلمة كريهة.

دارت حول نفسها، تحمحم حمحمة مبحوحة، آلام وجع الطَّلق لا تُطاق؛ تثغو تطلب المساعدة ولا مُساعِد.

حَظّ سميرة أغبر.

لو عاشت أيَّام الرَّاعي البَشريّ لنعمت بمساعداته الخبيرة، وخدماته الحانية؛ فكثيرًا ما حكت الشِّياه العجائز، بمزيــج من الحنين والأسف، عن الخدمات الَّتي قُدِّمت لها في أثناء ولاداتها؛ حكايات لفرط لا مَعقوليَّتها أشبه بالأساطير.

الجِدَّة «بهيرة» واحدة من تلك الشِّياه المحظوظة، الَّتي عاشت ردحًا في زمن الرُّعاة البشر؛ فكان يحلو لها الوقوف أمام النَّعجة الحامل حديثًا، تنظر لها بشفقة وهي تلوي مِشْفَرَيها

بأسف، تنفض صوفها البُنّي الفاتح الّذي فقد لمعته بطول عمرها، تُفرِج ما بين قائمتيها الخَلفيّتين، تبول، ثُمَّ تقول:

- أوَ تلدين الآن يا ناقصة العقل؟ حلا لكِ الحَبَل في زمن الرُّعاة الكلاب! النَّعجة الّتي لم تحبل، ولم تلد، أيّام الرُّعاة البشر، لم تحبل ولم تلد على الحقيقة. وأنا مهما عشت لن أنسى وقت كان يَحلّ موعد ولادتي؛ أوّل شيء: يفرح بي الحَاجّ يونس فرحة أراها تتَنطَّط في عينيه، كأنّي زوجته سألد ولده! ثاني شيء: يقرفص بجواري، ويظَلّ يُمسِّد ظهري وبطني بيد حنونة، ويمسح على ضرعي، كأنّه حبيب يُهدِّئ من روع محبوبته. ثالث شيء: إذا حمحمتُ من قسوة الأوجاع يُغنّي لي. وإذا جحظت عيناي، وقد أوشكتُ على الإغماء، يكسر فحل بصل ويُقرِّبه من أنفي، ويدعك به مِشْفَريّ وأسناني فأفيق، وتعود لي قُوَّتي، وهذا ما لا يفعله حتَّى الخروف الّذي أحبلني. رابع شيء: يبقى بجواري، يخدمني إلى أن أضع حَمَلي بالسَّلامة، وألعق صغيري فأنَظّفه، وحتَّى ينهض على قوائمه الهَشَّة، ويلتقم الحلمة من ضرعي.

أمّا الآن! وآهٍ من الآن؛ لا رعاة بشر رقيقون، بل رعاة كلاب أجلاف، لا يساعدون بقدر ما يعيقون. ثُمَّ، لا شاة أو نعجة يمكنها تقديم شيء لمن تلد غير المؤازرة بالنَّظر والشَّم، عدا ذلك لا عون حَقيقيّ.

أتلدين الآن يا ناقصة العقل!

وفيما الشَّمس تسقط بغروبها، حزقت سميرة حزقة قَويَّة،

فأسقطت تعسير إلى الأرض؛ فانهبد يتَلوَّى في مخاط مشيمته، مثل دودة بيضاء عملاقة، غُرًّا مُحجَّلًا، فسارعت تلعقه بشَهيَّة؛ كأنَّه شرية من ماء النَّهر تشربها على عطش.

مَرَّت دقائق قبل أن ينهض تعسير على قوائمه الليِّنة يتَرنَّح، بينما ينظر لما حوله بمزيج من اندهاش وخوف. رأى نورًا باهرًا حَمَّره الغسق. ورأى خرافًا كثيرة. ورأى أُمَّه تميل برأسها إليه وتلعقه بحنان. كما رأى خروفًا يقترب منه، له قرنان معقوفان مخيفان، أخذ في تَشمُّمه كأنَّه يكتشفه.

وكان الخروف دِه مين غير ابوه
جَا فرحان بقالُه خليفة.
وعلى ما عاش والديه ورَبُّوه
جَا يَوفِّي عهد السّليفة.
ياخد الواد يِورِّي الرَّبوَه
وعَل الكلب يِتِفّ التّفيفة.

تَكلَّم الشَّيخ أبيض الهِلّي، بصوته الأجش الحامي، وقد أوقف الغناء والعزف، يُفسِّر الأشعار لمستمعين يعرف أنَّهم جهلة، بلا علم، فقال:

- الخروف ذا يا إخواننا هو والد تعسير، جاء فرحانًا بما عطاه المولى من خِلفة الذُّكور. جاء ليعمل مثل الآباء والأجداد. جاء إلى ولده الَّذي بالعافية تَمكَّن من الوقوف على أرجله. جاء ليأخذه إلى ربوة الرَّعويَّة والصَّخرة التي يجلس عليها الكلب حاكم الخرفان، فيَبصَ عليه بَصَّة يعرف بها من الصّغر أنَّ هذا الكلب عَدوّه،

فيقوم يبصق عليه، ولا مؤاخذة، وبِذا يَخلُص الخروف الوالد من الدَّين الملفوف حول رقبته، دَيْن أداء عهد الأقدمين، وكأنَّ هذا العهد صار حاجة من الدِّين، زَيّ الشَّهادة عند المسلمين، أو العمادة عند المَسيحيِّين؛ ودِمها علينا يا رَبّ، نعمة أنَّنا من الموَحِّدين. قولوا: آمين؛ يا مؤمنين.

سميرة لا تُحبّ هذا الطَّقس، وبقلبها البسيط النَّقيّ تشعر أنَّه طقس غلط، ليس صحيحًا إذا كانت العقيدة، كما تقول الخراف، مسلكًا للحُبّ. وكان خروف من المُفكِّرين المشهورين، اسمه «تنوير» ، عاش حياته منبوذًا، طريدًا، لا لشيء غير أنَّ آراءه غالبًا صادمة، تخالف ما استَقرّ في وُجْدان، وعقول، الخراف لآمَاد طويلة.

فذات ظهيرة من صيف قائظ، وبينما أفراد القطيع تهجع راكدة من شِدَّة الحرارة، المُطبِقة عليهم سماءً وأرضًا، انتصب المُفكِّر تنوير واقفًا، وحزق، وصاح يمأمئ مُتذمِّرًا:

- الله يخرب مرعى جَدِّنا الأوَّل، الَّذي تحَوَّل من سمكة لخروف.

سمعت الخراف العبارة، ولم تُعقِّب. ظَلَّت تَجترّ بلا مبالاة، لا تَشكّ في أنَّ ما قاله تنوير هرفٌ ناتج عن سَيَحان مخ، سَبَّبه جموح القيظ؛ وقد استُفِزّ تنوير بلا مبالاتهم، وشعر بما يدور بخلدهم، فانطلق يتَكلَّم عن براهينه المُثبتة لصِحَّة وجهة نظره، منها: هذه الرَّائحة النفَّاذة، الزِّفرة، المشتركة بين السَّمك والخراف. ومنها: إنَّ الخراف تَجترّ طويلًا، وهي تبحلق في الفراغ بعينَين ثابتتَين، وهو الشَّيء نفسه الَّذي تفعله الأسماك.

وأقسَم على أنَّ أطراف الخراف، بما فيها الليَّة، كانت في الأصل زعانف وتَحوَّرت.

ثُمَّ تساءل بأسف:

- ما كان عليه جَدّنا الأوَّل لو ظَلَّ سمكة، وأنجبنا أسماكًا، تنعم بالماء البارد مهما كان الصَّيف قائظًا!

ونظرًا للجِديَّة الَّتي كان المُفكِّر تنوير يتَكلَّم بها، وواقعيَّة براهينه، أوشكت الخراف، فعلًا، على الاقتناع بأنَّ جَدَّها الأوَّل كان سمكة، لولا أنَّ أحدها، وهو ساذج مُهمَل، لا يُعرَف له اسم، وقف، ونفض جسمه، فأثار صوفه عاصفة غبار، وقال مُتحدِّيًا:

- لو أنَّ الأسماك يمكنها التَحوُّل إلى خراف، فكيف بقيت أسماكٌ في النَّهر؟

على الفور، تعاطفت الخراف مع هذا المُحتجّ السَّاذج، وقَرَّرت الرُّجوع عن اقتناعها بما توَصَّل إليه المُفكِّر «تنوير»، لأنَّها لن تستطيع الفخر بجَدٍّ كان سمكة؛ ولأنَّها تُحبّ الشَّماتة في المُفكِّرين.

لكن تنوير لم يحظَ بصفة المُفكِّر مَجَّانًا، وإنَّما لتَمتُّعه بذكاء بديهيٍّ دائمًا ما ساعده على إيجاد الإجابة الوافية لأيّ أسئلة مُعقَّدة مفاجئة. لقد نظر لهذا الخروف الهَمَل وقال:

- ليست جميع الأسماك ساذجة كالسَّمكة الَّتي صارت جَدّك.

وذات عاصفة، كادت لقُوَّتها أن تنزع الخراف من الأرض، وتُطيِّرها

في الهواء، وبينما كُلّ خروف، ونعجة، وشاة، يصنع المستحيل من أجل الثَّبات في المكان، إذا بتنوير يزعق بمأمأة مُطمئنَة:

- لا داعي للقلق يا جماعة؛ فعَلامَ القلق والكون أصلًا وهمٌ لا وجود له؛ وأنتم وهمٌ لا وجود لكم؛ والمرعى وهمٌ لا وجود له؛ والرُّعاة وهمٌ لا وجود لهم؛ والعواصف وهمٌ لا وجود لها.

وقتها شعرت الخراف بأنَّ الاقتناع بهذه التُّرَّهة، في هذا الظَّرف المخيف، سيكون مفيدًا، لأنَّه إذا كانت العواصف وهمًا بالفعل، فلا داعي للقلق، أو الخوف.

وقد سَعِد تنوير لاقتناع الخراف بفكرته، سعادة اجتاحته بأشَدّ من اجتياح العاصفة؛ لكن فور سكون الأجواء مأمأ ليُرسِّخ فكرته:

- أنتم لا شيء على الحقيقة. أنتم وهمٌ. أنتم فراغ. وجميع ما حولكم خيال في خيال، أنتم...

وقبل أن يُتمّ جملته انطلق كبشٌ، كان يستهجن جميع ما يقوله تنوير، معتبرًا أقواله محض ضلالات، اندفع بكُلّ ما للكبش من قُوَّة ليغرس طرفًا، من طرَفي قرنيه، في لِيَّة المُفكّر، الَّذي صرخ، لفرط ما داهمه من ألم فظيع، قبل أن يزعق في وجه المعتدي:

- هل جننت أيُّها التَّعس؟

لوى الكبش مِشْفَرَيه، ومأمأ بثقة وهدوء فيما ينظر إلى السَّماء:

- لم يُجنّ سواك أيُّها المُفكّر تنوير؛ إذا كنت أنا وهمٌ، إذا كنت أنا فراغ، فكيف تَحتدّ على ما لا وجود له إن لم تكن أنت الَّذي جُنّ؟

وهكذا، كانت فكرة تنوير عن طقس: العمادة؛ فكرة ملتبسة بدورها، وتُرَّهة غير مهضومة بالنِّسبة للخراف؛ فهو من قال إنَّه لا يمكن اعتبار طقس: السَّبّ والشَّتم؛ طقس عِمادة؛ إذا كانت العمادة فعلًا تَطهيريًّا؛ أي أنَّ دور هذا الطَّقس هو تهيئة قلب الخروف، مذ يكون حَمَلًا، لتسكينه بالحُبِّ، في حين أنَّ سَبّ الكلب، والبصق عليه، فِعلَا حقدٍ ومقتٍ، أي فِعلَا تلويث، لأنَّ الأب حين يدفع حَمَله الوليد للسَّبّ، والشَّتم، فإنَّه يغرس الكره في قلبه البكر، وهذا ما يجب ألّا يكون، مهما كانت الكلاب شياطين، ومُستحقَّة للكره.

وقد حاول ذلك المُفكِّر لفت الانتباه إلى أنَّ مستقبلًا سَيِّئًا ينتظر القطيع إذا لم يُقرِّر أفراده الصِّدق مع أنفسهم، وتسمية الأشياء بمُسمَّياتها؛ فليكن طقس: التَّلويث؛ لا: التَّطهير.

ونصح بالآتي: إذا كان الخروف يرغب في تعميد حَمَله، فليذهب به إلى أقرب مساحة خضراء، أو إلى شاطئ النَّهر، أو إلى أيّ مكان جميل، ويُكلِّمه كلمتين عن الحُبّ والتَّسامح.

وكأيّ أُمّ، تخشى التَّقلُّبات على صغارها، رأت سميرة أنَّ كلمتَين عن الحُبِّ والتَّسامح أسلم لحَمَلها الصَّغير من السَّبّ والشَّتم، فعارضت رغبة أبي تعسير؛ رأتها رغبة غير مسؤولة، محاولة تحقيقها محفوفة بالمخاطر، قد تُؤدِّي إلى تعريض وليدها الضَّعيف لطقس مُتقلِّب يفتك به....

... ثُمَّ ماذا لو لمحهما كلب ما؛ أو ماذا لو لمحهما خروف حراسة؟

رفعت عقيرتها بمأمأة زاجرة، رفست الأب الأحمق بقوائمها، ونطحته برأسها الأجلح، مع ذلك فإنَّ معارضتها، على شِدَّتها، لم تُجدِ نفعًا.

صَمَّم الأب على القيام بدوره الخَاصّ بالتَّنشئة العَقائديَّة لصغيره، وإن نطحته جميع أُمّهات القطيع. يجب ألَّا ترى عينا حَمَله شيئًا قبل رؤية كلب؛ وألَّا تسمع أذناه مأمأة قبل مأمأة هجاء تُقَال في كلب.

ومهما كان الحَمَل الوليد لا يفهم، أو يعقل، شيئًا بعد، فمن المُؤكَّد أنَّ بعضًا من الكره للكلاب سيَقرّ في قلبه وروحه البكرَين. قد يكون كرهًا قليلًا، قطرة كره، قدرًا ضئيلًا مثل خردلة، مع ذلك يكفي لأن يكون أساسًا صالحًا للبناء عليه مستقبلًا.

أنفذ أبو تعسير إرادته، ومشى معه الوليد المسكين مشيًا مرتبكًا، لا يكاد خطوه يتَّزن.

تجاوزا عشرات الخراف والنِّعاج والحملان الوافرة، كان بعضها يَغطّ في النَّوم، وبعضها يَجترّ غَاطًّا في اللامبالاة. وأخيرًا وصلا إلى حَافَّة من حَوافّ المرعى فتَوقَّفا.

أومأ الأب بقرنَيه المعقوفَين إلى جهة، نظر إليها الحَمَل الصَّغير، فرأى الكلب.

لم يشعر تعسير، وقتها، بأنَّ ثَمَّة مشكلة في رؤية كلب، فمظهره الخَارجيّ يقارب المظهر الخَارجيّ لخروف، غير أنَّ الكلب يجلس رابضًا مُتفرّدًا على صخرة عالية، شعره الأصفر يعكس شذرات آخر أضواء الغروب.

مأمأ تعسير بصوت الرَّضيع، يرغب فورًا في اللحاق بثدي أُمّه، فهمس أبوه في أذنَيه بصوت خافت حذر، وبنبرة غِلٍّ عميق قال له:

- بُص لهذا الحيوان.

وَتِّـق واتْطَلَّـع فِ عنيـه
دِهِ الـواطي ابن الخسيسِ.
كلـب ابـن كلـب سعـران
في الـخنـا قـلـبه حبيسِ.
كلـب عِـفِش بلا سعـر
ركـب الخـروف النَّفيسِ.

صاح الشَّيخ أبيض الهِلّي في المستمعين بنبرة أسى:

- شوفوا الدُّنيا يا جماعة لمَّا تقلب! تطَلَّعوا حولكم وشوفوا القوالب؛ ما لها؟ القوالب نامت، والأنصاف قامت! شوفوا الأُسُود؛ الأُسُود ما لها؟ الأسود تموء، والقطط تزأر! وشوفوا الكلب؛ الكلب ما له؟ الكلب الَّذي بلا سعر في سوق المخاليق يحكم الخروف النَّفيس؛ الصَّفيح تطاول على الذَّهب والفِضَّة. وعجبي يا دنيا يا غرورة!

صاح خفاجة بحرقة كأنَّه ينتحب:

- يا أخي دنيا قحبة والله.

«تعذير» خروف هرم، طال العمر به حتَّى سقط صوفه عن أجزاء كبيرة من جسده، فصار أجربَ بشع الهيئة؛ ومع أنَّ قرنيه

تآكلا، فإنَّ ذاكرته لم تتآكل، لأنَّ تعذير ليس خروفًا عَاديًّا من الدَّهماء والعَامَّة، أولئك الَّذين تضعف ذاكرتهم مع الوقت، لفرط ما يجهدونها بالإصرار على ملئها بأشياء لا قيمة لها، كالمأكل، والمشرب، والمبيت.

تعذير خروف مُميَّز، عاش معظم عمره يتَطلَّع إلى قضايا كبرى ومبادئ عليا، كالحُريَّات العَامَّة، والحقوق الخَاصَّة بالخراف، الَّتي بالحصول عليها كاملة تضيف للمأكل، والمشرب، والمبيت، معاني أسمى من مُجرَّد طعام، وشراب، ونوم.

وطول التَّطلُّع إلى الحُرِّيَّات، والحقوق، يُصيِّر الخروف حكيمًا.

وقد تَطلَّع تعذير إلى الحُريَّات والحقوق طويلًا، وعميقًا، إلى أن صار حكيمًا، أحكم من أيّ حكيم يعاصره، لا يُنكِّس رأسه ليأكل إلَّا إذا آلمه الجوع، خلاف ذلك فإنَّه يضطجع، يَحكّ جربه بالرِّمال، يطرد الذُّباب بهَزّ جسده، وإرعاش جلده، ثُمّ يرفع رأسه ناظرًا إلى السَّماء مُتأمِّلًا فيها، يسترجع على صفحتها، سواء كانت صافية، أو مُلبَّدة بالغيوم، تاريـخ قطيعه المُسمَّى بين الخراف بقطيع: أوسط ما وراء النَّهر.

ويُفكِّر:

إنَّنا أُمَّة عظيمة، لنا أَدبيَّات. كانت لدينا خراف نابهة مبدعة، صاغت لقطعانها على مَرّ العصور مئات المَحكيَّات في مختلف شؤونها الحَياتيَّة. منها، على سبيل المثال لا الحصر، الخروف «تبذير»، أبو المُفكِّرين، وجوهر أفكاره المُتمثِّل في نظَريَّته الشَّهيرة:

جميع المخلوقات، ما عدا الخراف، تنتفع بما تنتجه الخراف. والمحفوظ عنه تلك المقولة المعتبرة كأَهمّ ما نطق به مُفكِّر على الإطلاق: ليس القرنان ما يُمثِّلان رمز إباء الخروف وعِزَّته، بل لِيَّته.

وقد بُذِلت آلاف المحاولات لفهم ما بدا لبعض الخراف، المتحذلقة خصوصًا، تضَادًّا معيبًا بين رؤى تبذير الفِكريَّة ومقولاته الكَلاميَّة، وكانت النَّتيجة أن تَمَّ التَّأكيد على براعة الرَّبط بين «جِدِّية» رؤاه، بخصوص عجز الخراف عن الانتفاع بما تنتجه، و«هَزليَّة» مقولاته عن الليَّة، والنَّظر إليها بوصفها رمزًا للإباء والعِزَّة بدلًا عن القرنَين.

هذا عن المُفكِّر تبذير، فماذا عن المبدع الجهبذ «تشعير»؟ ماذا عن روعة، وفخامة، وعظمة، ما قاله من شعر، وما حكاه من قصص؟ مع ذلك لو لم يُوحَ إليه بغير قصيدته: انطح. لبَوَّأته وحدها ذرى الشِّعر، دون منازع.

لم لا؟ وهي القصيدة الَّتي نُظِمت في زمن الرَّخاء والاستقرار، مع ذلك حُمِّلت برؤية استشرَافيَّة لمستقبل صار حاضرًا معاشًا الآن. ولا غرو؛ القصيدة لا تكون عظيمة لو لم تَتمتَّع بشطحات تَنبُّؤيَّة.

ولن ينسى الحكيم تعذير، ما عاش، أبياتًا من قصيدة: انطح. يراها لُبّ تلك الرَّائعة التَّليدة، عندما تنطق برونق لُغويّ، وصفاء فِكريّ، فتقول:

انطـــح. لا تعـش حـمارًا.
ارفـــس. لا تعـش خـــروفًا.

عَـــــضّ. اخـــمـــش.
لو لم تعش راعيًا. عش كلبًا.

وحتَّى إذا أمكن لذهن تعذير الانصراف عن أفكار تبذير، وعن إبداع تشعير، فهل يمكنه الانصراف عن مَحكيَّات الخروف الجَوَّابة «فرافير»؟

قطعًا لا يمكنه.

فمَحكيَّات فرافير تدوين وتوثيق، أعظمها ما عنونها بـ: «معجم القطعان». والَّتي تُعرِّف بأصل نشأة الخراف، وبتَطوّرها من مخلوقات غَاباتيَّة فَوضويَّة إلى كائنات حَضاريَّة مُنظَّمة؛ وبتَمكُّنها من إنشاء علاقات راسخة بينها والإنسان؛ يمكن اعتبارها روابط نَفعيَّة، لكنَّها عملت على استقرار القطعان وازدهارها، ما نقلها من مرحلة شُحّ الإنتاج إلى مرحلة الغزارة.

كما تَتبَّع، في مَحكيَّته البديعة: تاريخ المراعي. أماكن القطعان في أثناء حِلّها وترحالها، وأسماء رعاتها البشر، وأحوالهم، وأشهر الحوادث الكارثيَّة الَّتي تَعرَّضت لها بعض القطعان، كالسُّيول الجارفة، وهجمات الذِّئاب، وزحف الأفاعي؛ وذَكَر أنواعًا من الخراف اندثرت وبادت، وأخرى تَكيَّفت مع المُتغيِّرات البِيئيَّة، فبقيت وجازت.

ضرب تعذير بطرف قرنه المتآكل مساحة جرباء من جلده أعلى كتفه، وثغا بأسى يُحدِّث نفسه، كأنَّه يَئنّ:

- الخراف أُمَّة عظيمة جِدًّا، لها أَدبيَّات، حاولت الانتفاع

بأَدبيَّاتها، وتطبيقها على أرض الواقع، وأوشكت على النَّجاح، لولا أنَّ نجاحها ما كان ليُرضي آخرين، فحصل ما هو حاصل.

بمرور الوقت، وبفعل التَّجهيل المُتعمَّد، حدث أن زويت قدرة الخراف على سماع المُفيد، واتَّجهت لسماع المُبيد، إلى أن انعدمت قدرتها على السَّماع تمامًا.

هكذا نخر فيها الجهل، وزال عنها الوعي، فبخست قيمة الأشعار، وعظات القصص، وعِبَر المَحكيَّات، ما نتج عنه ضياع ذاكرتها؛ وقد تَمَّ هذا بطرق عِدَّة، جميعها تَآمريّ، أحكم الرُّعاة الجُدد تنفيذه.

وأي شيء حسنٌ يمكن للخراف أن تأمله إذا رعتها الكلاب؟

الكلاب؛ هذه المخلوقات المصابة بعيوب لا يمكن للخراف التَّغاضي عنها.

لكن؛ حتَّى مع فقد الذَّاكرة المَحشوَّة بتاريخ وأَدبيَّات الخراف، ومع إصرار الرُّعاة الكلاب على حرمانها من حَقِّها في مواصلة سرد المَحكيَّات وسماعها، وتجريم من يفعل ذلك، وتعريضه لأقسى العقوبات، فإنَّها لا تزال تعمل على استعادة قدراتها، ولو سِرًّا.

وفي سبيل ذلك فإنَّها تعَلَّقت بمَحكيَّة واحدة، من بين جميع أَدبيَّاتها، فلم تندثر كمثيلاتها؛ وهي مَحكيَّة صغيرة، قصيرة، مع ذلك فإنَّها، بحَقِّ الله، أيقونة جميع ما وضعه ذاك العَلَّامة التَّأريخيّ فرافير من محكيَّات. عنوانها: مثالب الكلاب.

هذه المَحكيَّة تحديدًا، من بين جميع ما حكاه فرافير في الاجتماع والتَّأريخ، لا تتداولها الخراف فيما بينها تداولها المُتعارَف عليه، كحكايات تُلقَى في مجالس السَّمر وفقط، بل تتَعلَّمها تعليمًا مَنهجيًّا، فتحفظها حفظًا لا يَقلّ جودة عن جودة حفظ الرَّاعي البَشريّ لكتابه المُقدَّس؛ إذ ما إن يفهم الحَمَل مأمأة الخراف حتَّى يشرع أبوه في تعليمه: مثالب الكلاب. يبدأه بأصغر مثالبها.

يستلقي الأب بمواجهة حَمَله الواقف على قوائمه القصيرة، هكذا يتقارب رأساهما، فيهمس الكبير في أذن الصَّغير حذرًا:

- يا حَمَلي الصَّغير، رَدِّد خلفي بمأمأة خافتة، كي لا تسمعنا الكلاب.

ويُنغِّم الأب صوته كالأغاني مُنشدًا:

- ألفٌ، ألفٌ، تعني أُفٍّ.

ويُردِّد الحَمَل بصوته الحلو البريء:

- ألفٌ، ألفٌ، تعني أُفٍّ.

ويشرح الأب: أُفٌّ: كلمة نقولها ما أن نرى الكلب؛ لماذا؟ لأنَّ الكلاب مخلوقات مقرفة، لا تستنكف أكل جثث الكائنات المُترمِّمة؛ ولا تَكفّ عن التَّبوُّل في كُلّ مكان، إنَّها تتَبوَّل على جميع ما يصادفها من أشياء، يرفع أحدها إحدى قائمتيه الخَلفيَّتين، دون حياء، ويقذف بوله. فأوَّل مثالب الكلاب أنَّها مقرفة جِدًّا. فهمت يا حَمَلي؟

يهزّ الحَمَل رأسه، فيما يستَعدّ لتكرار ما بدأ أبوه يُكرِّره بإنشاد مُنغَّم:

- ألفٌ، ألفٌ، تعني أُفٍّ.

ويستطرد الأب مُنشدًا:

- باءٌ، باءٌ، تعني بلاءً.

فالكلاب، بما تملكه من قدرات شِرِّيرة فائقة، تصيب خراف القطيع بالبلى.

- جيمٌ، جيمٌ، تعني جهيمًا.

الكلاب جهمة، فَظَّة، تعتمد القُوَّة في التَّعامل مع الخراف.

- راءٌ، راءٌ، تعني رشاءً.

ما أن يقوم الرُّعاة البشر برشوة الكلاب بقطع العظام حتَّى تسارع بإظهار أقوى قدراتها على مطاردة الآفات، وتنظيم الخراف.

وهلم جرًّا، حتَّى إذا بلغ الحَمَل سِنّ اليفوع يكون قد تَعلَّم أكبر مثالبها:

- ياءٌ، ياءٌ تعني يرائي.

هكذا، مع آخر حرف من المثالب، يتمّ التَّأكيد على أنَّ الكلب مخلوق مرائي، والرِّياء أصل الشُّرور.

والسُّؤال: كيف تَوصَّلت الخراف إلى معرفة جميع مثالب الكلاب، بأدقّ تفصيلاتها المشينة؟

الإجابة: بالمعاملة طويلة المدى؛ أي: بالعِشرة.

وقد تعاملت الخراف مع الكلاب عصورًا كانت فيها الأخيرة

هملًا، لا دور لها سوى الحراسة وخدمة الرُّعاة البشر، ليس عليها أكثر من تأمين القطيع، واصطياد بعض الفرائس تافهة الحجم والقيمة، كالأرانب، والجرذان، وبعض الغزلان الصَّغيرة، وأخيرًا تسلية الرُّعاة، في أوقات مللهم، ببعض الألعاب البَهلوانيَّة الَّتي لا يؤدِّيها سوى كلّ صاحب نفس مُنحطَّة، لا تعرف للوقار سبيلًا.

لكن دارت الأيَّام دورتها؛ بادت دولة البشر، وسادت دولة الكلاب، لتجد خراف قطيع: أوسط ما وراء النَّهر. نفسها تتعامل مع الهَمَل البهلوان على أنَّه راع بصولجان.

مع ذلك، ومهما حاولت الكلاب الظُّهور بمظهر المخلوقات عظيمة القدر، المُمجَّدة كرعاة وقادة، فإنَّ خروفًا واحدًا لم ينس أفعالها الدَّنيئة، أيَّام كانت خدمًا للرُّعاة البشر.

بالمقابل، فإنَّ كُلّ خروف يُثمِّن قيمة مبادئه وأخلَاقيَّاته غاليًا، إذا كانت على الطَّرف النَّقيض من مبادئ وأَخلاقيَّات الكلاب.

صاح الشَّيخ أبيض الهِلّي في المستمعين:

- يا جماعة الخير؛ الحيوانات حولكم ليست حيوانات والسَّلام، ذي مخلوقات قال عنها رَبُّنا في القرآن إنَّها أمم زَيّنا، فيها ما يفهم، وفيها ما لا يفهم. شوفوا القرد وذكاءه، شوفوا الحمار وغباءه. وشوفوا الخرفان. نحن فَلَّاحون ورعاة غنم. أعني نعرف نُفرّق بين الخروف النَّبيه والخروف الغشيم. ما مقصود كلامي؟ أقول لكم مقصود الكلام.

وخدش صوته الأجش نسيم الليل الرّاكد، ففزع النّسيم ينشط، وامتطى الصّوت أنغام الرّبابة بعنفوان، يُغنّي ويقول:

زَي ما فيه ذكي مِ الإنسان
برضه في ذكي مِ الحيوان.
وكان تعذير خروف نبهان
ووَضْعُه حكيم بين الخرفان.
من كُتر فِكره وقع صوفه
تشوفه العين تقول جربان.

مضى أسبوع منذ وُلِد تعسير، تَعلَّم خلاله ألّا يعتمد بالكُلّية على الرّضاعة، واستخدام مِشْفَريه وأسنانه في التقاط وقضم القليل من العشب، ومضغه على مهل، إلى أن يستسيغه.

وبمرور أسبوعين كان قد تَعلَّم الكثير جِدًّا من مفردات التّخاطب بين الخراف، واكتسب بعضًا وافرًا من مهارة استجلاء معاني المأمأة ومقاصدها، فصار واعيًا، يمكنه مجالسة عجائز القطيع، هؤلاء الحكماء الشّفاهيّين ورثة علم الجنس الخِرفانيّ.

وكان كُلّما جلس معهم لقّنوه، بأناة ورَويّة، أبعادًا أعمق لمثالب الكلاب، أعمق بكثير من تفسيرات أبيه السّطحيّة. فـ«أفٌ» مثلًا، في: «ألفٌ، ألفٌ، تعني أُفٌ»، لا تُقال فقط لأنّ الكلاب تأكل الرّمم، وتقذف بولها في كُلّ مكان. عَلّمه الحكيم تعذير أنّ «أُفٌ» تُقَال لأنّ الكلاب تُفضّل الطّعام الطّازج، لكن مع ندرة وضآلة ما يمكنها صيده تَضطرّ إلى الالتصاق بالقطعان التصاقًا لا انفصام لعراه، فكانت، زمن الرُّعاة البشر، تنتظر ما يلقون به إليها من

بقايا طعامهم الطَّازج، والآن... صارت الكلاب هي الرُّعاة.

وقد قال الحكيم تعذير بمأمأة فيها حسرة:

- ليت الكلاب تعتمد في غذائها على الرِّمم؛ لا كانت جاورتنا، ولا كُنَّا جاورناها.

ثُمَّ نفخ بقرف:

- أُفّ، لأجل ذلك.

وقد أرعش تعذير جلده، في محاولة فاشلة للتَّخلُّص من نار الجرب السَّارية فيه، ثُمَّ بعر، واستلقى على جنبه؛ ورُغم وهنه نفخ صدره كأنَّه مُقبِل على مناطحة كبش شَابّ، ومأمأ بنبرة طُهِّمت بالعِزَّة والفخار، مخاطبًا تعسير:

- أنت طالع إلى الدُّنيا، فلا تدع كلبًا يحبطك حين يعاملك بعُنصريَّة؛ ما عليها الخراف؟ هه؟ إنَّنا مخلوقات راقية تستحق كُلّ احترام وتقدير؛ دعني أُحدِّثك عن خصلة واحدة، من خصالنا الحميدة، يستحيل وجودها في كلب على وجه الأرض، مذ ظهرت الكلاب بيننا، وإلى أن تزول عَنَّا:

خصلة: قُوَّة الشَّخصيَّة.

نفض تعذير رأسه نفضة خاطفة، مقاومًا الحشرات، فطرقع أذنيه بصدغَيه، واستطرد:

- كُنَّا، ولا نزال، نُحبّ حياة القطعان، إنَّها فطرة الله الَّتي فَطَرَ عليها الخراف، مخلوقات اجتمَاعيَّة بطبعها، تُحبّ الحياة في تَجمُّعات، فكان الرَّاعي البَشريّ إذا قادنا إلى المراعي الخضراء

ننقاد؛ إذا قادنا إلى النَّهر ننقاد؛ إذا عاد بنا أدراجنا إلى حظيرتنا ننقاد، فأخذت الكلاب علينا سلوك الانقياد هذا، وسَوَّقته على أنَّه سُبَّة الدَّهر اللصيقة بالجنس الخِرفانيّ، ومنقصة تجعله جنسًا غير مُستحقّ لأَهليَّة الرَّعويَّة.

هكذا أطلقت الكلاب الشَّائعات المغرضة، ولو أنصفت لقالت الحقيقة: إنَّ الخراف لا تنقاد إلَّا إذا رأت في الانقياد منفعة لها، خلاف ذلك ترفع راية العصيان بكُلّ شجاعة. وإذا أجحفها الرَّاعي البَشريّ حَقَّها في الشَّبع والرَّواء، لأَيّ سبب كان، فإنَّها لم تكن تفعل ما تفعله الكلاب في نفس الظَّرف من لهاث وترقيص ذيول.

شَمَّ تعذير رمل الأرض، تَنهَّد بحنين، تَأوَّه بإشفاق، ابتسم بأسى، وقال:

- كم أنا مُشفِق على أجيالكم الصَّاعدة يا تعسير. أنتم خراف يافعة، لم تعش الحياة أَيَّام كانت الحياة حياة، أَيَّام عاش قطيعنا في ظِلّ الرُّعاة البشر؛ أَيَّامها كانت ضفاف هذا النَّهر تَعجّ بالقطعان الكثيفة، يقودنا الرَّاعي إليها، لنرعى الخضرة الغزيرة، النَّابتة هنا وهناك، قبل أن يعود بنا إلى الحظيرة. هذا غير المأكولات الَّتي كان يزرعها خِصِّيصًا لنا مثل: الذُّرة، والبرسيم.

رنا تعسير بأذنيه، فلم يكن سمع من قبل كلمتَي: ذرة، وبرسيم. فأصاخ السَّمع، بمزيد من الاهتمام، عَلَّه يفهم ما ذرة؟ وما برسيم؟

أردف تعذير بنبرة مشتاقة حالمة:

- كم أشتهي التهام ولو حفنة صغيرة من حبوب الذُّرة،

أو قضمة واحدة من أعواد البرسيم! في أيّام الخير والبركة كان البرسيم والذُّرة يتنافسان في لَذَّة الطَّعم، وفي الإشباع والتَّغذية. الخروف الَّذي ينشأ على أكلهما ينمو سريعًا، عَفيًّا، حتَّى يصير كبشًا عظيمًا، بإمكانه مناطحة ثور وهزيمته.

فجأة ضرب تعذير جنبه برأسه، في محاولة خرقاء لنطح حشرة تحاول التَّشبُّث ببقعة من جلده الأجرب، لتَمصّ من دمه، وعاد يقول:

- آه يا تعسير؛ لو رأيت تلك الكباش. لعَلَّك تَظنّ أنَّك ترى كباشًا الآن! لم تعد في قطيعنا كباش، لدينا أشباه كباش، أمَّا الكباش الحَقيقيَّة فشيء آخر. لعلك تَظنّ أنَّك ترى قرونًا؟ هيهات! كُلّ ما تراه ليس إلَّا بواقي؛ بواقي كباش، بواقي قرون؛ إنَّ ما يبرز من رؤوس كباش هذا العصر ليس غير زوائد رديئة المظهر، هَشَّة التَّكوين، تتَفتَّت لأتفه نطحة من أضعف جدي ماعز! لكن تعال أحكي لك حكاية تُطلِعك على ما كانت عليه كباش زمان، وقرون زمان.

تعذير واعي ورزين
يِدرَى قيمةِ الحكاية.
حكاله قِصِّة راعي زين
الحاج يونس أصل الرِّعاية.
ورا الغيث ما هايَمطُر وين
الكَلَا وافر والرِّواية.

صواني الشَّاي تدور على المستمعين المنصتين، التماعات النَّار من مشاعل الإضاءة تبرق على حَوافِّها الصَّدئة. أحدهم قال

لحامل الصِّينيَّة، فيما يَمدّ يده ليأخذ كوبه السَّاخن، بأسى وحزن لا تتَحمَّل ثقلهما الجبال والهضاب:

- ما عاد لنا غير شرب الشَّاي، وتدخين المُعسَّل والسَّجائر، كُلّ حاجة في الدُّنيا بقت تَمصّ دمنا، وولا حاجة نقدر نمصّ دمها!

طغى صوت الشِّيخ أبيض الهِلّي على صوت المُحتجّ، يقول:

- تعذير خروف واع، فاهم أنَّ الحكي له دور، القَّصّ يا إخواننا سلاح، الكلمة الزِّينة كأنَّها رصاصة تطلع من الجبخانة تقتل الشِّين، والكلمة الشِّينة كأنَّها رصاصة تقتل الزِّين. القرآن الكريم يا عرب فيه سورة اسمها: القَصص؛ ورَبُّنا سبحانه وتعالى بذات نفسه قال: نحنُ نَقصّ عليكَ أحسنَ القصصِ. تعذير كان ممكن يقول الكلام قولًا عاديًّا، لكن حتَّى يُفهِّم تعسير الفهم الأكيد قال له الكلام حكايات وقصص. وإليكم ما حكاه الحكيم تعذير للمراهق الغِرّ تعسير.

وأجرى أبيض الشَّعر على الشَّعر، فغَنَّت الرَّبابة.

حدث في زمان راعينا البَشريّ الأخير الحَاجّ يونس، وكان طعن في السِّنّ إلى أن بلغ فوق الثَّمانين، ولم يُخلِف ذُريَّة، إذ لم يُولَد له إلَّا ومات ولده، بالمرض مَرَّة، وبالحوادث مَرَّات؛ ثُمّ أخيرًا قضت زوجته «سعدى» نحبها فانقطع إنجابه.

وكان الحَاجّ يونس إنسانًا غريب الأطوار، لا يَألَف جنسه البَشريّ، لم يألف منه غير سعدى، وعندما رحلت اعتزل البشر لأقصى مدى، إلَّا إذا طرأت له حاجة قَويَّة، أعوزته إليهم، فإنَّه يقضيها على مضض، وبأسرع ما يكون يغادرهم.

وهكذا صار الحَاجّ يونس يضرب بقطيعنا بعيدًا جِدًّا عن أيّ مرعى يمكن لراع بَشريّ الوصول إليه، وكان هذا يسعدنا، فإن كان يجد راحته في العزلة، فكنَّا نجد راحتنا في التَّغيير والتَّجديد. جُبِلت الخراف على مَحبَّة التَّغيير؛ كُلّ يوم هي في مرعى.

لكنَّك تكبر يا تعسير، وتتَعلَّم؛ عمَّا قريب ستعرف أنَّ الدُّنيا تجارة، وأنَّ الحياة تاجر جشع، لا يعطي الخروف ما يحتاجه مَجَّانًا، بل يعطيه شيئًا ويأخذ أشياء. أعطتنا الحياة الفرحة بالمرعى الجديد، وأخذت الأثمن: الشُّعور بالأمان. لأنَّ بُعد المرعى لا يُمكّن القطيع من العودة، في نفس اليوم، إلى حظيرته المُؤمَّنة جَيِّدًا، ما يعني أنَّ الخراف ستقضي ليلتها في الطَّلّ، بغير حماية ممتازة من هجمات الذِّئاب، وأبناء آوى، والآفات الزَّواحف.

فقط الكلب «زمجور» هو كُلّ ما لدينا للتَّأمين.

تَوقَّف تعذير عن الحكي، حَكَّ قرنَيه بشجيرة مجاورة، وحملق في عينَي تعسير، ثُمَّ استطرد:

- يجب ألَّا نتَكلَّم كثيرًا، كلانا في خطر، فأنت، بتركك لإقطاع الرَّعي الَّذي يَخصّك، ووجودك في إقطاع الرَّعي الَّذي يَخصّني، قد اعتديت على القانون. وربما نحن مراقَبان. لكن كيف يمكنني ألَّا أكلّمك كثيرًا إذا لم يكن بمستطاع الخراف سوى التَّكلُّم كثيرًا لتوضيح مقصد القول؟

تَلفَّت تعسير حوله، نظر في الجنبات، وبلهفة من يرغب في سماع المزيد قال:

- لا أرى كلابًا هنا أو هناك، ولا خراف حراسة، ربما ذهبت إلى الجبل البعيد في إحدى مَهامّها الغامضة. أكمل حديثك أيُّها العم الحكيم تعذير.

لمس تعذير رغبة تعسير في سماعه، فسعد أيَّما سعادة؛ لم يسعد لأنَّ كلامه يُمثِّل قيمة تدفع خروفًا يافعًا للاستقطاع من وقته، والجلوس بين يديه ليصغي إليه؛ كان هذا يُمثِّل أهمية كبيرة له في سابق الأيَّام، مذ بدأ يتَمتَّع بفورة الشَّباب وحتَّى مشارف الكهولة، تلك الفترة الخادعة من عمر الخروف، حين يَظنّ أنَّ الحياة بدون نجاح يلفت الانتباه إليه حياة لا قيمة لها؛ وقد فعلها تعذير، لفت الأنظار إليه بما تمتَّع به من حكمة، ولطالما ظَلّ يُلفِت الأنظار إليه، لكن إلام انتهى؟

لا شيء سوى أنَّه أوغل في الشَّيخوخة، حتَّى علق بالحَدّ الفاصل بين الحياة والموت. يتَشبَّث بالحياة، فيما الحياة تدفع به عنها.

ويسأل نفسه: إلى ماذا انتهى أعلام الخراف ونوابغها؟

لا إلى شيء! اندثرت أشعارهم، وقصصهم، ومَحكيَّاتهم، وصاروا مُجرَّد ذكريات في قلوب العجائز فقط، لأنَّ اليافعة لا يعرفونهم، ولا يسعون إلى معرفتهم.

لقد سَعِد تعذير، أيَّما سعادة، برغبة تعسير في سماعه لا لشيء غير الائتناس؛ أن يَتخلَّص من وحدته، ولو لبعض الوقت، ولو بأنيس غِرّ.

وفَكَّرَ الحكيم تعذير في أنَّ الدُّنيا جَدّ تعيسة، إذا كانت تنتهي

بخروف عاش حياته ملء السّمع والبصر إلى شيخوخة معزولة، عمياء، خرساء، تتَسوَّل جلسة ونس.

يا دنيا يا غرورة يا سَافلة
كنتِ اكشفي عن وجهك في شبابي.
كنت فقت وفَوقّت النَّاس الغَافِلة
ولا خسرتُ أحدًا من حِبابي.
يا لُعبَة الأَيَّام يا قاتلة
فنًى، ثُمَّ عجوزٌ، ثُمَّ دفين التُّرابي.

دَلَّى الشَّيخ أبيض الهِلّي ذراعيه إلى جنبيه، ونظر للنَّاس حزينًا، وطلا صوته بالأشجان، يتَصنَّع البكاء، وقال فيما السَّماء سوداء، من النَّسمات الطَّيبة جرداء، ولظى الصَّيف يطارد الليلة بحرارة شَوَّاء:

- قال نَبيُّنا المُكمَّل، سَيِّدنا مُحمَّد المُؤمَّل: النَّاس نيام إذا ماتوا انتبهوا؛ صدقت يا حبيبي يا مُحمَّد، صَلَّى الله عليك وسَلَّم؛ لو فينا واحد صاحي كان صَحَّانا وفَوَّقنا، لكن جميع النَّاس نيام، ولن يفوقوا ويشوفوا الحَقّ إلَّا وهم يموتون! ويا حسرة علينا، بأَيّ شيء ينفع الحَقُّ إذا شفناه ونحن نموت؟

صاح خفاجة وهو يُطوِّح بذراعيه في وجه الشَّيخ أبيض الهِلّي:

- ما بك يا عَمْ؟ قلبتها غَمْ! والله ما هي ناقصة، قَرَّبنا نطلعوا من خلقاتنا، ارجع رَقِّص الرَّبابة لأسِبّ الدَّين لك ولمن خَلَّفوك.

هل لاحظ تعسير دموعًا ثقيلة انتشرت في مقلتي تعذير؟

سواء لاحظ، أو لم يلحظ، فإنَّ تعذير تَمكَّن من السَّيطرة على أشجانه، وقال بنبرة فقدت كثيرًا من حماستها، يكمل حديثه:

- أنت تعتقد أنَّ لدينا حظيرة، تلك الَّتي نؤوب إليها بعد انتهاء مرعانا، لكن ما تعتقده ليس إلَّا خدعة واحدة كبيرة، من خدع عديدة كبيرة يقتات عليها جيلكم المعاصر طوال الوقت.

أتُصدِّق أنَّ لدينا حظيرة بالفعل؟

إذن اسمعني أصف لك ما كانت عليه حظائر زمان، لتعرف إن كان لدينا اليوم حظيرة أم لدينا خدعة كبيرة.

زمان، كان لا بُدَّ من أن تكون الحظيرة لصيقة ببيت الرَّاعي، ومُشيَّدة بنفس مواد البناء المُشيَّد بها بيته. إذا كان الرَّاعي ثَريًّا فإنَّه يبني بيته، وحظيرة الخراف، بالطُّوب المحروق، والرَّمل، والإسمنت، للجدران؛ والحديد الصُّلب، والخرسانة المُسلَّحة، للسَّقف. أمَّا إذا كان فقيرًا فإنَّه يبني المبنيَين بالطَّوب اللبن، والطِّين المخلوط بقَشِّ التِّبن، ويسقفهما بجذوع النَّخيل، وجريدها اليابس.

وإذا كان بيت الرَّاعي مُتَّصلًا بخَطّ الكهرباء، فالحظيرة تكون كذلك.

وإذا كانت في بيت الرَّاعي مزيَرة نظيفة يشرب منها هو وأسرته، ففي الحظيرة حوض كبير نظيف تشرب منه الخراف.

وإذا كان في بيت الرَّاعي طعام يأكله في سهرته، ففي الحظيرة مخاول مُكدَّسة بالعلف اللذيذ، تَظلّ الخراف تأكل منه في سمرها إلى أن تنام.

أما عن وسائل تأمين الحظيرة فأُحدِّثك ولا حرج؛ كانت وسائل قوية مُتنوِّعة، درجة أن لو حاولت أعتى الذِّئاب، بأكبر أعداد منها، اختراقها لما استطاعت، فجدران الحظيرة، وسقفها، على أَشدّ ما تكون متانة، وليس لها منافذ غير باب وحيد، وبضعة شبابيك للتَهوية. الباب لا يُفتَح إلَّا عند خروجنا إلى المرعى، أو عند عودتنا منه. شبابيك التَّهوية سُدَّت بشبكة من القضبان الحَديديَّة الطُّوليَّة والعَرضيَّة، بالكاد تسمح للذُّباب والصَّراصير والجرذان بالمرور منها، ولا تسمح أبدًا بمرور ما حجمه أكبر من تلك الأحجام.

ومع كُلّ ذلك التَّأمين القَويّ اكترى الحاج يونس كلبًا ليقوم بالمزيد من الحراسة، وكان الكلب منتبهًا جِدًّا، حتَّى أنَّه ينبح عند أَقلّ حركة لورقة مهيضة على أصغر غصن من أغصان أبعد شجرة. وقد أشاع وجوده الأمن في صدورنا، بحيث كُنَّا نستغرق في نوم عميق رغم نباحه المتواصل.

لمعت عينا تعذير، كأنَّهما انتعشتا للذِّكريات الطَّيِّبة، وسأل تعسير سؤال العارف بالإجابة:

- على هذا الوصف كانت معظم حظائر الخراف زمان، فبالقياس إلى تلك المواصفات هل ترى حظائر الآن؟

فتح تعسير عينيه على اتِّساعهما، وقلب مِشْفَري فمه، فيما دار برأسه ينظر حوله باحثًا عن هذه الحظيرة الَّتي يحكي عنها الحكيم تعذير، مُؤكِّدًا بملامح الاستنكار، الَّتي داهمت وجهه، على أنَّه لا يرى حظائر بالمواصفات الَّتي ذكرها.

نهض تعذير فبدا هرمًا أكثر مِمَّا يبدو وهو مضطجع، نحيلًا كأنَّه هيكل عَظميّ، أجربَ إلى حَدّ القرف؛ شَمَّ الأرض، واستطرد يتَحدَّث بمأمأة حزينة، كشاة ثكلى فجُعِت بوليدها، قال:

- لا مكان مُحدَّد لحظائر اليوم. أينما يكون الرَّعي يكون المبيت. وربما يدوم الرَّعي في المكان الواحد لأشهر عديدة، وكما ترى، انتشر القحط في مرعانا، ما يجبر الخروف مِنَّا إلى نحت الأرض الجدباء، يُقلِّبها بأسنانه، عَلَّه يجد جذر شجيرة هنا أو هناك، إلى أن ينقضي النَّهار، فينبح الكلب «زعبور» آمرًا القطيع بالعودة إلى الحظيرة، ما إن يتعالى نباحه حتَّى تنطلق عاصفة هوجاء من مأمآت خراف الحراسة، تزجر رفاقها، وتنطحها لتتَوقَّف عن الرَّعي، وتتَّجه إلى الحظيرة.

ويتساءل تعذير بنبرة ساخرة:

- لكن أين الحظيرة؟ إنَّها في نفس مكان الرَّعي، على الخراف، عند غروب الشَّمس، وامتثالًا للأوامر، التَّوقُّف عن تَشمُّم الأرض، والانتهاء عن قرض ما قد يصلح للأكل، والاستلقاء الفَوريّ في نفس المكان تهيئة للنَّوم! لا مبنى بجدران، وسقف، ندخله فيحمينا من المُفترِسات، أو يحمينا من هبوب الرِّيح، أو يحمينا من سقوط الأمطار. لا أحواض مياه قريبة يشرب منها أحدنا إذا أيقظه العطش. لا مخاول مُكدَّسة بالعلف نأكل منها إذا جعنا. لا شيء سوى الطَّلّ والعراء، والعطش والجوع الليليَّين. مع ذلك يحلو للكلب زعبور المَنّ علينا بحظيرته، والإكثار من المباهاة بها حتَّى صَدَّق نفسه!

وقد صَدَّقها درجة أنَّه تَهوَّر يومًا وقارن بين ما يُسمِّيه «حظيرة» وحظيرة الحَاجّ يونس.

يومها أقعى زعبور على صخرة الرَّعويَّة، لاح مرتفعًا عن الجميع، ناصبًا ذراعيه الأَماميَّتين، بأذنَين طويلتَين مشرعتَين، ينظر بشموخ إلى الجالسين أمامه، في نظام فرضته أَهمِّية شَخصيَّات الحضور، ابتداء من قيادات الرَّعويَّة، وجميعها كلاب، مرورًا بالأتباع الكبار، وجميعها من الخراف أشباه الكلاب، وانتهاءً بالعَامَّة، وجميعها خراف أصلاء.

على هذا التَّرتيب جلست الكلاب في الصَّفَّين الأَوَّلين، وجلست الخراف أشباه الكلاب في الصُّفوف الخمسة التَّالية، تليها أكثر الصُّفوف عددًا، وأَشدّها ازدحامًا، شغلها الجمهور من خراف القطيع.

وقد خطب الكلب زعبور، راعي قطيع: أوسط ما وراء النَّهر؛ في الحضور، فنبح قائلًا:

- الحمد لله، أنا مسرور، لأنِّي شايفكم مسرورين؛ الحمد لله؛ طبعًا! لم لا تكونوا مسرورين وأنتم تبيتون في حظيرة ذات مستوى مُتطوِّر رائع؟ لكن، وأنتم تتَنعَّمون فيها كُلّ ليلة، هل فَكَّرتم في حجم الجهد الَّذي بذَلتُه من أجل الوصول بالحظيرة إلى هذا المستوى؟ هل تعرفون حجم الجهد الَّذي بذله كُلّ كلب، وكُلّ خروف شبه كلب، يتَولَّى مَسئوليَّة من مَسئوليَّات رَعويَّة المَقرّ؟ لا تعرفون طبعًا. لكن أقسم بالله العظيم، وأنا لا أقول إلَّا الصِّدق، أنا لا أكذب أبدًا، إنَّ كَمّ الجهد المبذول ضخم وحَقيقيّ..

قطع تصفيق أحد الخراف، الشَّبيهة بالكلاب، الخطابَ الرَّعويّ، فتبعه تصفيق القطيع بأكمله. وأظهر الكلب زعبور امتنانًا متواضعًا لحَميميَّة الحضور، فهَزَّ رأسه، ودَلّى لسانه لاهثًا، ورَقَّص ذيله؛ إلَّا أنَّه، وبشكل مفاجئ، قَطَّب جبينه، وزَرَّ عينيه، وقد رفع مخلبه بإشارة حاسمة مطالبًا بوقف التَّصفيق، واستطرد يتَكلَّم بنبرة استغرقها الأسى واللوم:

- لكن هذا لا يمنع أن أقول لكم: أنا زعلان. نعم. والله العظيم أنا زعلان. وصلني كلام مأمأ به البعض منكم؛ واسمحوا لي يا حضرات أن أصف هذا البعض بالمُغرضين. هؤلاء المغرضون يتَرحَّمون على حظيرة الحَاجّ يونس! ولفرط إعجابهم بحظيرة الحَاجّ يونس أوشكوا على نظم الشِّعر في مُميِّزاتها! وأنا مُستعجِب والله! والله العظيم أنا مُستعجِب بجَدّ! فأنا أسمع من زمان، مُذ كنت جروًا أرضع لبن أُمِّي الله يرحمها، جيراننا وأصدقاءنا الخرفان يتباهون بأنَّهم المخلوقات الوحيدة الَّتي فطرها الله على حُبِّ الحُريَّة.

طَيِّب، إذا كان حُبُّها للحُرِّية حَقيقيًّا فأين حظيرة الحَاجّ يونس من الحُريَّة؟

نبح بنبرة تأنيب ساخرة:

- أحظيرة الحَاجّ يونس الضَّيقة لها علاقة بالحُريَّة؟ أحظيرة الحَاجّ يونس المَبنيَّة من جدران عالية، ومُغطَّاة بسقف يكتم الأنفاس، لها علاقة بالحُريَّة؟ أحظيرة الحَاجّ يونس الخانقة، ذات منافذ التَّهوية متناهية الصِّغر حتَّى لكأنَّها سجن، لها علاقة بالحُريَّة؟

هذا غير أنَّها بالغة الخطورة؛ هل تَصوَّرتم مصيركم في حالة نشوب حريق لأيّ سبب من الأسباب؟ وليكن ماسًا كَهربائيًا مثلًا. عجيب والله! كهرباء؟ أيّ كهرباء تحتاجها الخراف ليقوم الحَاجّ يونس بتوصيلها إلى الحظيرة؟ كنتم ستموتون شَرّ ميتة.

هكذا طوال الوقت كنتم تبيتون في خطر وأنتم لا تنتبهون.

ثُمّ بسط زعبور أسارير وجهه، وارتكز على مُؤخِّرته، رفع صدره ودار بذراعيه في الهواء دورة كاملة، ينظر في أنحاء لا مَرئيَّة، فيما يهتف بنبرة التَّباهي:

- لكن انظروا إلى حظيرتكم اليوم. إنَّها الأفضل بحيث لا يُوجَد أصلًا مجال للمقارنة بينها وحظيرة الحَاجّ يونس؛ حظيرتنا فسيحة جِدًّا، شَيَّدناها بأحدث طرق البناء، بحيث لا يمكن لخروف، مهما بلغت عيناه من حِدَّة البصر، أن يرى جدرانها، أو سقفها، وهذا يُهيِّئ له شعورًا حَقيقيًّا بالحُريَّة الَّتي يعشقها الخروف منكم؛ سيشعر، وهو يرقد داخلها، بأنَّه يرقد في مرعاه الطَّلق، لا تُقيِّده جدران، ولا أسقف...

انطلق التَّصفيق المنفرد مقاطعًا الخطاب الرَّعويّ، تبعه التَّصفيق الجَماعيّ الهادر، فرفع الكلب زعبور صوته ضاحكًا، ناظرًا إلى الصُّفوف الأخيرة المُكتظَّة بالخراف وقال:

- أنتم أيُّها البسطاء دائمًا موضع اهتمامنا؛ والله العظيم يا جماعة أنتم دائمًا موضع اهتمامنا.

وكان ضُمادَة من الحاضرين، ولم يكن خروفًا كأيّ خروف؛ بل

كان شَكَّاكًا، شغوفًا بممارسة الشَّكّ، لا يُسلّم عقله لأيّ فكرة، مهما كانت فكرة قَويَّة الأركان؛ ومهما أجمعت الخراف المُفكِّرة المُدقِّقة على صِحَّتها؛ ومهما أجمعت الخراف الورعة على قداستها؛ حتَّى أنَّه لا يُولي ثقته لفكرة أنَّه هو نفسه مخلوق حَيٌّ على الحقيقة، يعيش بالفعل داخل عالم كبير، فيه مراع، وأنهار، وصحراء، وحقول، وكلاب، وحظائر.

إنَّه يَشكّ مَحبَّة في الشَّكّ. وقد برع فيه إلى الحَدّ الَّذي يستطيع معه جعل أَيّ خروف، مهما كان شديد الإيمان بوجود الوجود، يَشكّ في وجود الوجود؛ بل يشُكّ في وجود نفسه ذاتها.

فكان طَبيعيًّا ألَّا يرتاح ضُمادَة لفكرة وجود حظيرة شديدة التَّطوُّر، متناهية الاتِّساع، لدرجة عدم قدرة الخراف على رؤية جدرانها.

هكذا شَكّ ضُمادَة، وتساءل في دخيلته:

- هل يمكن أن تُوجَد أسقف إذا تباعدت الجدران فيما بينها بعدًا لا نِهائيًّا درجة ألَّا تُرَى؟ هل يمكن للأسقف، والجدران، أن تكون شَفَّافة لحَدّ استحالة رؤيتها؟

ولأنَّ ضُمادَة ضليعُ شَكٍّ، فقد شَكَّ في شَكِّه؛ وسأل نفسه:

- وما الَّذي يمنع من أنَّ نَظريَّات بناء حديثة قد وُجِدَت بالفعل؟ ونَوعيَّات جدران زُجاجيَّة، لا تُرى، قد صُنعَت بالفعل؟

ولأنَّه بصدد مسألة عَقلانيَّة، فقد قَرَّر حَلَّها بالطَّريقة العِلميَّة، الَّتي لا قِبَل للشَّكّ بالتَّشكيك فيها: التَّجربة. أن يذهب بنفسه

لاستكشاف الجدران الَّتي لا تُرَى، والتَّيقُّن من وجودها.

واختار القيام بالمُهمَّة ليلًا؛ فقد وضع في حسبانه فَرضيَّة كذب المُعظَّم زعبور، خصوصًا وأنَّ الكلاب مفطورة بطبيعتها على الكذب؛ وفي حالة صِحَّة هذه الفَرضيَّة فإن زعبور، لا شك في ذلك، سيصدر أوامره إلى الحُرَّاس بمنع تَحرُّك الخراف إلى أبعد من الحدود المرسومة للقطيع، كي لا يكتشف أحدها الحقيقة.

هكذا لم يجد «ضمادة» بُدًّا من التَّحرُّك في خفاء الليل.

حين انتصف الليل قام من بين الخراف المستلقية على الأرض متلاصقة لشِدَّة البرد، قام بخِفَّة، وخطى بينها برشاقة، فلم يلمس أيًّا منها، ثُمَّ دار حول القطيع دورة واسعة مُتلصِّصًا، قبل أن يدلف إلى مقصده عبر السِّكَّة خلف صخرة الرَّعويَّة....

هنا قطع الحكيم تعذير حكاية الخروف ضُمادَة، وقَرَّب فمه من أذن الخروف تعسير، شَمَّها ونفر قبل أن يمأمئ فيها بمرارة:

- خذ مِنِّي الحكمة يا ولدي: الشَّكَّاكون حمقى؛ وإلَّا كان ضُمادَة أدرك استحالة إفلاته من كلاب الحراسة مهما كانت نائمة. فالكلاب لا تحرس بعيونها فقط، بل بأنوفها أيضًا؛ ولا مقارنة بين كفاءة الحراسة بالأنف وكفاءة الحراسة بالعين؛ الحراسة بالأنف أحكم الحراسات، لأنَّ العينَين لا بُدّ لهما من الانغلاق للنَّوم، مهما حرصتا على اليقظة فإنَّهما تغفوان ولو للحظة، لو لم تَغْفُوَا لمات صاحبهما اكتئابًا، أو جنونًا؛ لكن الأنف على عكس العينَين، لو غفا الأنف عن التَّنفُّس، والشَّمّ، لربما فطس المخلوق، ومات مخنوقًا.

هكذا تنام عينا المخلوق، ولا ينام أنفه.

الدَّاهية الأكبر أنَّ أنوف الكلاب واحدة من أسوأ أنواع الأنوف بالنِّسبة لخروف يرغب في مغادرة القطيع تَلصُّصًا، لأنَّها تمتلك حَاسَّة شَمّ هي الأقوى من نوعها، تستطيع شَمّ رائحة الخروف مهما ابتعد عنها؛ هكذا تَتتبَّع الكلابُ الخرافَ حتَّى وهي نائمة.

ثُمَّ فوجئ تعسير بتعذير يضرب رأسه بحافره، ويهتف نادمًا:

- أوَّاه! اِلْحَقْ خذ مِنِّي حكمة ثانية يا ولدي: الشَّكَّاكون أذكياء فوق العادة، إذا جلست إلى أحدهم، وناقشته، فستشعر بأنَّك قبل الجلوس إليه كنت خروفًا، وبعد الجلوس إليه صرت خروفًا آخر. كأنَّك كنت أعمى وفَتَّحت! أنا شَخصيًّا سبق لي مناقشة ضُمادَة أكثر من مَرَّة؛ يا له من خروف ذَكيّ؛ لا، إنَّه تجاوز مرحلة الذَّكاء. إنَّه خروف عَبقريّ.

وقد خرج، قبل أشهر، ليرى إن كانت هناك جدران لحظيرة موجودة بالفعل، ولم يعد.

ومين غير الله يعلم الغيوب
ومين غيره يعلم المصاير.
ضُمادَة حبسوه في الجبوب
كاس مُرْ، وعلى كل حُرْ داير.
الجبان يعيش ولا عيوب
والشُّجاع راسه مقطوع وطاير.

عندما أوغل الليل أزف وقت المغادرة؛ غادر تعسير إقطاع

تعذير إلى إقطاعه، غادر آسفًا، حزينًا لمصير ضُمادَة السَّكَّاك، فأسوأ المصائر تلك مجهولة النِّهايات.

وقد التقته سميرة، رغم إيغال الليل، تَهلَّلت له، ومأمات خفيضًا تُرحِّب به، ومكَّنها القمر المكتمل من رؤية عينيه، كانتا حزينتَين، كما رأت فيهما ما أفزعها، فوشوشته على الفور بنبرة منفطرة:

- أتجالس الكلاب يا تعسير؟

أجابها مندهشًا:

- لا.

- لعَلَّك تجالس الخراف من أشباه الكلاب!

- لا.

واستدرك:

- لم هذه الأسئلة الغريبة يا أُمِّي؟

قالت:

- لا شيء.

قال:

- أنا أجالس الحكيم تعذير.

جزعت أشدّ الجزع، ودارت حول نفسها تريد نطح الأرض، قبل أن تلصق جنبها بجنب تعسير، ورقبتها برقبته، وتهمس له بنبرة طُمِرت بإشفاق وخوف أموميَّين:

- اسمعني؛ الحكماء أَشدّ خطرًا علينا من الكلاب وأشباهها، بل أَشدّ خطرًا علينا من الذِّئاب. افهمني، أنا الشَّاة البسيطة، أنا أُمُّك الَّتي تخشى عليك كما ينبغي؛ ما تَظنّ الحكيم يا حبيبي؟ الحكيم فشل في أن يكون خروفًا أصيلًا، وفشل في أن يكون خروفًا شبه كلب، فجلس يقول الحكم. ومن يسمع كلام الحكماء يكره الدُّنيا، والدُّنيا تكرهه. ألا ترى الدُّنيا تكره الحكماء بأكثر مِمَّا تكره الكلاب؟ ألا يلفت انتباهك أنَّ الجرب لا يصيب سوى جلود الحكماء؟ الدُّنيا تعاقبهم يا ضناي، فاسمع كلامي وابعد عن تعذير.

وأنهت كلامها دون إخباره عَمَّا يساورها من شكوك في أنَّ ملامح وجهه ربما ليست على ما كانت عليه، لعَلَّها تختلط بملامح وجوه الكلاب.

ولعَلّ الأمر اختلط عليها فشَكَّت فيما لا يُشكّ فيه.

ولا يبكي عليك ويحزَن
ويسهر يدادي في هَمَّك.
تضحك لك ووَجَعها تِخزِن
سِتِّ الحبايب أُمَّك.
حِدا رجلها حُطّ راسك
ولا حَدا في الكون يلومك.
لو خَيَّروك مِ النَّاس جميعًا
أُمَّك خُدها في كومَك.
تِرضَى يِرضَى عليك رَبّك
وغضبها تعسك وشومَك.

زعق الشّيخ أبيض الهِلّي بحماسة، وبنبرة لائمة، وكانت الرَّبابة استيقظت وفاقت، ونجوم السَّماء نَوَّرت وضاءت:

- الأم إذا ماتت يقول الله لابنها: ماتت من كُنَّا نكرمك لأجلها، فاعمل اليوم عملًا نكرمك لأجله. تُرْفَع الحماية الرَّبانيَّة عن الواحد مِنَّا بموت أُمِّه، ويُلقَى به في وجه المتاعب وحيدًا؛ ونحن نيام لا ننتبه! نُفرِّط في كرامة أُمَّهاتنا، نتركهن وراء الأبواب والبَوَّابات وحيدات مُهمَلات، حتَّى أنَّهن قد يمتن وحيدات! رعَوننا صغارًا فأهملناهنّ كبارًا. فيا سعد من يَحنّ لأُمِّه، يَحنّ عليه رَبُّه. ويا خِزى من يقسو على أُمِّه، تقسو عليه جَهنَّم في الآخرة، وفي الدُّنيا يُسلَّط عليه السُّلطان وزَبانيّته.

لم يُعِر تعسير، رغم أنَّه خروف بَارّ بأُمِّه، كلام سميرة اهتمامًا؛ فقد حَدَّثته نفسه بكلام معقول، حيث نَبَّهته إلى فرق الوعي بين تعذير وسميرة؛ تعذير طاعن في السِّنّ، مُجرِّب، ومُفكِّر، وحافظ مَحكيَّات، ومُتعلِّم، يتَحدَّث بما يمليه عليه العقل، بينما سميرة مُجرَّد شاة شَابَّة، جاهلة، تتَحدَّث بما تمليه عليها عواطف الأمومة؛ وقد خاب من رغب عن العقل ورغب في العواطف.

على هذا أتت ليلة الغد وتعسير في إقطاع تعذير، يقول له بنبرة رجاء:

- احكِ لي أكثر عن ضُمادَة الشَّكاك.

قال تعذير:

- أحكي لك.

ضُمادَة شابٌّ أهوش الصُّوف، أهوج الفعل، عيناه واسعتان بَرّاقتان، وإن كانتا زائغتَين على الدَّوام؛ مستوى اهتماماته ليس على نفس مستوى اهتمامات بَقيَّة القطيع؛ اهتماماته أرق بكثير.

وكان يحب الجلوس معي فيأتيني كما تأتيني، أنت في حضوري تصمت معظم الوقت لأنّك تَتعلّم، وأنا في حضوره أصمت معظم الوقت لأنّي أتَعلّم؛ وقد قال لي في ليلة سمر:

- يا تعذير، أنا أشكُّ لأنَّ الشَّكَّ نعمة. إذا لم أشكّ أوشِك على ارتكاب جريمة. إذا لم أشكّ سأعتقد أنَّ هذا العالم الظّالم موجود فعلًا. فماذا يجب أن أفعل لمواجهة الظُّلم الواقع عَليّ، في عالم موجود، غير ارتكاب جريمة كُلّ ساعة؟

قلت له:

- ليس شرطًا يا ضُمادَة؛ ما الدَّاعي للسُّقوط في مَغبَّة ارتكاب جريمة إذا أمكنك اللجوء للقضاء حين تُظلَم؟

غرغر ضُمادَة بضحكة ساخرة ومأمأ:

- وماذا يفعل القضاء غير مواجهة الظُّلم بظلم؟

وعلى ما أتَمتَّع به من حكمة السّنين إلّا أنَّني لم أفهم سؤال ضمادة! فكيف للقضاء أن يظلم؟! كيف للقاضي، وهو المُعوَّل عليه تحقيق العدل، أن يكون مجرمًا؟!

نفضت رأسي، وضَيَّقت عينَي بنظرة استنكار ساخنة، حذفت بها ضُمادَة، وأنا أسأله:

قال:

- أنا فَكَّرت في الأمر: إذا كان كُلّ واحد مِنَّا خروفًا، فإنَّنا جميعًا نُكوِّن القطيع بمجمله، والقطيع بمجمله هو عبارة عن خروف كبير. إذا كان الخروف مِنَّا قد يرتكب الجريمة إيمانًا منه بأنَّه يُحقِّق لنفسه عدلًا افتقده، فيسرق من مرعى غيره، مثلًا، لأنَّ غيره تسبَّب في تجويعه، كذلك الخروف الكبير، قد يرتكب الجريمة إيمانًا منه بأنَّه يُحقِّق عدلًا منشودًا. الخروف مِنَّا يرتكب الجريمة بأدواته الشَّخصيَّة البسيطة، بحوافره، أو بقرنيه، في حين يرتكب الخروف الكبير الجريمة بأدوات الرَّعويَّة الحاكمة، والقضاء على رأس تلك الأدوات.

لا أنكر يا تعسير أنَّني لم أستطع فهم كلام ضُمادَة الشَّكَّاك جَيِّدًا، فرجوته:

- زدني دَقَّة يا ضُمادَة، عَمَّك تعذير لم يفهم بعد.

فنفض جميع جسده بقُوَّة الفُتوَّة وسألني:

- بماذا يحكم القضاة المستحدثون على الخروف الَّذي يسرق طعام جاره؟

أجبته: بالسَّجن.

ضحك ضُمادَة ضحكته البلهاء السَّاخرة وقال:

- إذا كانت السَّرقة ظلمًا فالسَّجن ظلم أكبر.

اعترضت:

- لا طبعًا، ها هي الأمور تلتبس عليك شأنك شأن جميع الشَّكَّاكين؛ السَّرقة شيء والسَّجن شيء آخر. السَّرقة جريمة والسَّجن عقوبة.

دون أن يتَخلَّى ضُمادَة عن نبرته السَّاخرة قال:

- يبدو لي أنَّ الخراف الحكيمة تسقط بدورها في فَخِّ المصطلحات الَّتي اصطنعها الرُّعاة الكلاب.

ثُمَّ سارع يسألني، وقد تخَلَّى صوته عن نبرته السَّاخرة، مستخدمًا نبرة جَادَّة للغاية:

- أجبني يا تعذير: ما الهدف من العقوبة؛ هل هو إيقاع الألم بالجاني، أم إصلاح فساده؟

قبل أن أجيبه نهض فجأة، كأنَّه يهرع إلى المغادرة، لكنَّه نفض جسده ونطح الهواء، وحمحم، وبَعَّر، وسألني ثانية:

- هل عندك علم بمَحكيَّة المُفكِّر فرافير العظيمة: «معجم القطعان»؟

أجبته مفاخرًا:

- إن لم يكن عندي، أنا، علم بها، فمن غيري!

قال: إذن لو أنَّ المُفكِّر العظيم فرافير وُجِد فعلًا، في عالم وُجِد فعلًا، وصَنَّف تلك المَحكيَّة العظيمة فعلًا، فإنَّ أعظم ما سمعته

من تفصيلاتها تلك المعروفة بـ: التَّحاكم والمقاضاة؛ المُوضِّحة لرؤية ذلك القَاضيّ العدل، المُسمَّى «تجسير»، بخصوص الأحكام، وكَيفيَّة تعامله كقاض مع من تَمَّتْ إدانتهم بارتكاب جرائم.

كان القاضي العدل تجسير يرى أنَّ الخروف الجاني، وإن فسد بعضه بارتكاب جنايته، لم يفسد كُلُّه؛ وعلى المحكمة أن تنظر بعين العناية إلى الجزء السَّليم منه بأكثر مِمَّا يلفت انتباهها جزؤه الفاسد، فتحكم بما يُصلِح فاسده، لا بما يُفسِد صالحه، ففي صلاحه صلاح القطيع، وهكذا في فساده.

وقد سرد المُفكِّر فرافير، في مَحكيَّته: معجم القطعان؛ بتفصيلة: التَّحاكم والمقاضاة؛ هذه القِصَّة المُعبِّرة:

عُرِض الخروف الجاني «هجير» على الخروف القاضي تجسير، مُتَّهمًا بكسر إحدى قوائم خروف يُدعَى «بكير»، عندما وَجَّه إليه نطحة قَويَّة بقرنيه قاصدًا مُتعمِّدًا، وذلك لأنَّ المجني عليه سبقه إلى التهام أوراق شُجيرة غَضَّة، رغم أنَّ المرعى يَغصّ بالآلاف منها، ما يُثبِت أنَّ فسادًا حَقيقيًّا وقع في نفس الجاني هجير، فهو لا يريد الاستحواز على الشُجَيرة لسَدِّ جوعٍ أَلَمَّ به، وإنَّما لفرض الهيمنة، واستعراض القُوَّة.

وقد درس الخروف القاضي أبعاد القَضيَّة المعروضة عليه، وخاطب المُتَّهم بمقولات، وسأله سؤالات، فرَدَّ عليه المُتَّهم بإجابات تثبت أنَّه لم يفسد كُلّه، فلم يحكم عليه بالحكم المُقرَّر بالأعراف الخِرفانيَّة: العقاب من جنس العمل؛ أي: أن يُنطَح في قائمته لتُكسر.

بل حكم عليه حكمًا حكيمًا: أن يدور في دائرة مُحدَّدة مئة لَفَّة كاملة.

وقد نُفِّذ الحكم، غير أنَّ المجرم هجير لم يستطع إكمال سبعين لفَّة، عندما شعر بقوائمه الأربع تتألَّم ألمًا طاغيًا، كأنَّ أربعة كباش عَفيَّة تواصل نطح قوائمه فتتكسَّر. فشعر بإلى أيّ مدى تسَبَّب في إيلام بكير، وأحَسَّ بتأنيب الضَّمير؛ على هذا ما إن استكمل هجير العقوبة حتَّى سارع بزيارة المَجنيّ عليه، واعتذر له اعتذارًا صادقًا.

وعَلَّق المُفكِّر العظيم فرافير على القِصَّة فقال: أثبت القاضي العدل تجسير، بهذا الحكم الحكيم، صِحَّة رؤيته بخصوص النَّظر بعين الرِّعاية إلى الجزء السَّليم من الخروف الجاني؛ وهكذا، بدلًا من أن يُضاف إلى القطيع خروف بقائمة مُحطَّمة، كسب القطيع خروفًا سليمًا تائبًا، وخروفًا تقَبَّل الاعتذار، فتَعلَّم التَّسامح.

وقلب ضُمادَة الشَّكَّاك نبرة صوته الجَادَّة إلى نبرة ساخرة، وقال:

- العقوبات يُشرِّعها الرُّعاة، لا لمصلحة القطعان كما تراها الخراف، بل لمصلحة القطعان كما تراها الكلاب.

سألته: وما الفرق إذا كانت مصلحة القطعان واحدة؟

نظر ضمادة إليّ بعينين مُستهجنَتين وقال:

-أنا أشُكّ في أنَّك حكيم يا تعذير! كيف لا ترى الفرق على وضوحه؟ إنَّه الفرق بين رؤيتَي قلبَين؛ قلوب الخراف ترى القطيع حياة، أمَّا

قلوب الكلاب فترى القطيع مَقرًّا. الخراف تريد الحياة بالقطيع، والكلاب تريد الاسترزاق بالمَقرّ؛ الخراف مُلَّاك، والكلاب تُجَّار؛ ومن يتاجر ويسترزق يدير الأسباب لمصلحته، لا لمصلحة غيره.

وأكاد أجزم، أنا ضمادة الشَّكَّاك الَّذي لا أكاد أجزم بشيء، أنَّ الرُّعاة الكلاب لا يريدون العيش للخراف، بما تعنيه كلمة عيش من معانٍ كريمة؛ وإنَّما يريدون لها الالتزام والخضوع، الضَّبط والرَّبط لإنتاج الألبان والأصواف، وبمزيد من الضَّبط والرَّبط يُنتَج المزيد من الألبان والأصواف، فكيف للكلاب إخضاع الخراف للضَّبط والرَّبط يا عم تعذير؟

- كيف؟

- بالرَّدع.

ولا ردع بغير عقوبات مؤلمة لمن ينتهك، أو يحاول انتهاك، مقتضيات الضَّبط والرَّبط.

هنا قام تعذير من ضجعته، وبدوره فَرَّج بين ساقيه، وبال بولًا مهيضًا، لائقًا بخروفٍ هرم، ونفض جسده نفضة مُتعَبة، فنثر ترابًا عَلُق ببواقي صوفه، بدا منزعجًا حتَّى أنَّه بَعَّر، ثُمَّ قال بنبرة آسفة للغاية:

- آه يا تعسير؛ يا للعار! اكتشفت أنَّني نسيت معظم ما جاء في مَحكيَّة: معجم القطعان!

ثُمَّ، «الرَّدع»!

على طول عمري، وعمق تَأمُّلي، لم أكن أعرف شيئًا عن كلمة: الرَّدع؛ حين سمعتها لأوَّل مَرَّة من ضُمادَة الشَّكَّاك. وقد أردت أن أسأله عن معناها فخجلت، لكنَّ خجلي من أن أعيش جاهلًا بشيء كان أكبر، فتحايلت، وسألت ضُمادَة الشَّكَّاك بلهجة من يعلم لكنَّه يستفسر ليَحتجَّ:

- أَيّ شيء هذا: الرَّدع؟

أجاب ضُمادَة:

- التَّخويف.

التَّخويف لتحقيق هدف لا يمكن تحقيقه دون تخويف.

هؤلاء الرُّعاة الكلاب، ومُنظِّروهم، ومستشاروهم، ومعاونوهم، يكذبون حينما يقولون إنَّهم يستخدمون الرَّدع لأجل أهداف مَقَرَّيَة نبيلة، أَهمُّها استتباب الأمن، كي تحيا الخراف في أمان وسلام. وإذا كان لهذا الكلام أن ينطلي على جماهير الخراف من الدَّهماء والغوغاء، فلا يجب أن ينطلي على حكيم مثلك، أو على شَكَّاك مثلي. نحن من نعلم علم اليقين أنَّ مهما كان الهدف نبيلًا فلا، ولن، يُضفي صفة نبيلة على الرَّدع، إذا كان في حقيقته تخويفًا.

وأذكر أنَّ الخروف ضُمادَة مال برأسه إلى رأسي، وصَكَّ قرنه بقرني، وقال بصوت واثق:

- أنت ترى؛ لقد حكم القضاء في العديد من الجرائم بعقوبات

مؤلمة، بل قل: رادعة؛ فهل انتهت الجريمة؟ هل ارتدع مجرمو الخراف؟ العكس تمامًا هو ما حدث، الجرائم تزداد حِدَّة وعنفًا، والكلاب، مع أشباهها من الخراف، هي المستفيدة الوحيدة من الرَّدع.

وفيما أخذ عقلي يتأهَّب للتَّفكير في كيف أنَّ الكلاب وحدها المستفيدة من ردع الخراف، مع أنَّ الرَّدع يُحقِّق النِّظام والأمن للقطيع أيضًا؛ إذ بضُمادَة يقول بقلب فائر:

- ومع احترامي للقاضي تجسير، لِما أولاه من عطف على الجناة حتَّى يتأكَّد فسادهم، فأنا أَشكّ في جدوى العقوبة كعلاج للجريمة. إنَّها أمرٌّ لا خِرفانيًّا بالمرَّة، حتَّى لو لم تكن العقوبة مؤلمة جَسديًّا، فإنَّها مؤلمة روحيًّا؛ إذا كانت عقوبة فهي مؤلمة على أيّ حال.

كم يؤسفني، وأنا الشَّكَّاك، القطع بأنَّ علاج الجريمة هو الحُرِّيَّة؛ وأنَّ لا حُريَّة في وجود الرُّعاة الكلاب.

ربما لو قال ضُمادَة جملته الأخيرة وأنا أصغر سِنًّا عَمَّا عليه الآن لما كنت ارتعبت كُلّ هذا الرُّعب لسماعها. لكن ملعونٌ العجز، وملعونٌ الهرم، يلازمهما التَّرقُّب والخوف، والرَّغبة في إنهاء العمر بسكينة وهدوء، لذلك وجدتني أحزق بصوت مخنوق، وأسارع بوضع حافِري على مِشْفَري ضُمادَة الشَّكَّاك لأخرسه، قائلًا بنبرة هلوعة:

- هش! اسكت، اغلق فمك البائس هذا، لربما سمعك كلب، أو خروف شبه كلب، فيُلقَى بنا في كهوف الظَّلام الجَبليَّة، حيث

لا نرى الشَّمس حتَّى الموت.

لكنَّه، كأيّ شَكَّاك، لم يكن يمكنه غلق فمه دائمًا، يطرطش بالكلام هنا وهناك كما يطرطش بوله؛ وقد لا تَهتمّ الكلاب بمُجرَّد الكلام إذا خرج من أفواه الشَّكَّاكين والمُفكِّرين، لظنّها أنَّ القطيع لا يَهتمّ بكلام هذا الصِّنف من الخراف، لكن حين يُتجاوَز الكلام إلى الفعل فإنَّ الكلاب تُقدِم على تَصرُّفات خسيسة ومُجرَّمة.

إنَّ العزيز ضمادة الشَّكَّاك ذهب يستطلع حقيقة وجود حظيرة تحيط بنا فلم يعد. أو بالأحرى لم يعد حَيًّا؛ لقد جاءت الكلاب بجسده مُمزَّقًا شَرَّ مُمزَّق، تحمله فيما بينها بفكاكها، وألقته أمام أعيننا كقمامة. رأيناه وكأنَّ ألف ذئب تناوشه! لكن الكلاب قالت إنَّها عثرت عليه أسفل سِنّ الجبل البعيد، مُتردِّيًا، قتيلًا. وإنَّ مصير الشَّكَّاكين والمُفكِّرين سَيِّء.

قالو يا فرعون إيشي فرعنك
قال ما لقيتشي حد يَلمَّني.
ريتو الطَّغَى والبَغَى سَكتُّمو
تَجبَّرتُ ولا واحد لامني.
فالعَيْب عندكمو ليس عندي
سُبَّ نفسك ولا تَسُبَّني.

منذ عصور ما قبل التّاريخ، وقت التقاء مصالح الخراف بمصالح البشر، وتدشين التَّعايش السِّلميّ فيما بينهما، مرورًا بعصر الرُّعاة المُتأخِّرين، وحتَّى الراعي البَشريّ الأخير، الحَاجّ

يونس، لم تكن خراف قطيع: أوسط ما وراء النَّهر؛ تعرف شيئًا اسمه: القضاء. فلم تُرتَكب أفعالًا ضَارَّة بالغير يمكن توصيفها بالجرائم؛ لأنَّ الجريمة، مثل أَيّ شيء، لا تُوجَد بدون أسباب.

ولم تكن أسباب الجرائم متاحة على طول عصور الرَّاعي البَشريّ، لأنَّ جميع احتياجات العيش الكريم توَفَّرت دائمًا، أَهمُّها على الإطلاق ذلك الشُّعور الفخم بالحُريَّة والكرامة.

وقد كان الرُّعاة البشر بارعين في منح خرافهم هذا الشُّعور.

فبخلاف الحظائر المحترمة الَّتي بناها لمبيت القطعان، واقتيادها للمراعي الممتازة المُشبِعة، فإنَّ الرَّاعي البَشريّ حين كان يُحصِّل منها مقابل الرِّعاية لم يكن يُحصِّله بجلافة، أو باستعلاء، أو بمغالاة، تُشعِر الخراف بأنَّها مُجرَّد كائنات مُستَغلَّة؛ بل كان يُحصِّله بمنتهى اللطف والرِّقَّة.

مثلًا لم يكن الحَاجّ يونس يُقدِم على حَلْبِ شاةٍ قبل غسل يديه جَيِّدًا، حتَّى لا يُؤثِّر اتِّساخهما في نظافة ضرعها؛ ولا يحلبها قبل أن يربت على ظهرها بحِنوٍّ؛ وربما بالغ في اللطف بها، فينفخ النَّاي، ويُغَنِّي لها، إلى أن تَحنّ بدورها، فتَدرّ حليبها في قعبه مدرارًا.

وباللطف نفسه كان يَجزّ الصُّوف، فلا تشعر شاة أو خروف، بعد الجَزّ، بأنَّ شيئًا قد استُلِب منهما عنوة، بل يشعران بأنَّ شيئًا عزيزًا قد منحاه طوعًا ورضاءً للرَّاعي البَشريّ.

ومع كُلّ لطف وحِنوّ الحَاجّ يونس فإنَّ بعض الخراف، خصوصًا

المراهقة منها، كانت تنتابها من حين لآخر رغبات عارمة في افتعال اضطرابات، احتجاجًا على ما تعتبره جشعًا فادحًا يسلكه الرَّاعي البَشريّ، لأنَّه يحلب ألبان القطيع كُلّها، ويَجزّ أصوافه كُلّها.

وليتها سكتت عند هذا الحَدّ، بل كُلَّما ضَلّ خروف وافتقده القطيع أشاعت تلك الخراف المراهقة أنَّ الرَّاعي البَشريّ اختطفه، وباعه في الأسواق للجَزَّارين.

ونسألها عن الجَزَّارين.

- أَيُّ شيء هذه: الجَزَّارين؟

فتجيب إجابات غاية في البشاعة، يَبيَضّ لها الصُّوف الأسود، ويَسودَ لها الصُّوف الأبيض.

وكُنَّا لفرط ما نعهده من رِقَّة الرُّعاة البَشريِّين لا نُصدِّق أنَّ بشرًا اسمهم: الجَزَّارين؛ يمكن أن يكونوا قتلة خراف بشعين، مريعين، إلى هذه الدَّرجة.

هذا غير أنَّ سببًا قَويًّا جعلنا نتَمسَّك بتكذيب تلك الشَّائعة المخيفة، هو: إيماننا العميق بأنَّ الكلب هو من يقوم بتسريبها لأسباب لم نكن نعلمها وقتها.

بل إنَّ الكلب زمجور زاد الشَّائعة رعبًا، عندما أضاف إليها فرية أخرى فظيعة: إنَّ الجَزَّارين يذبحون الخراف المخطوفة، وينفخونها وهي مذبوحة، ويضربونها بالعِصيّ وهي منفوخة! ويسلخون عنها جلودها، ثُمَّ يُعلّقونها في الهواء بخطاطيف،

ويُمزِّقون لحومها بالسَّكاكين شَرّ مُمزَّق.

ويضيف الكلب إلى مزاعمه زعمًا جديدًا، مرعبًا، فيقول إنَّ قسوة البشر لا تتَوقَّف عند بيع الجَزَّارين لحم الخروف المُدمَّى، بل تتَطوَّر لمراحل أبشع، عندما يقوم المشترون بتقطيع لحمه إلى مزق أصغر، وطهوها في الماء المَغليّ، أو شيِّها على الجمر الملتهب، قبل أن يأكلوها بفرح، وسعادة، واستمتاع!

لقد حرص الكلب على وصف هذا المشهد المفجع بتدليس شديد، ودون مراعاة لمشاعر الخراف، فقال إنَّ الرَّاعي البَشريّ يكسب معظم ماله من بيع الخراف بعد تسمينها. وإنَّ الحَاجّ يونس كان إذا قرَّر البيع يتَنقَّل بين الخراف، ويتَحسَّس ظهورها، حتَّى إذا استَقرّ على أسمنها لحمًا أخذه ليلًا، في غفلة النَّوم، وباعه لهؤلاء الجَزَّارين.

كلام بشع.

ويضيف الكلب قائلًا إنَّ الخروف المسكين، المُباع سَيّء الحَظّ، يظَلّ يمأمئ وهو مربوط وحيدًا بين قطعان البشر، هؤلاء الَّذين ينتمي إليهم صنف الرُّعاة، وجميعهم أَشدّ افتراسًا من الذِّئاب، لأنَّ افتراس الذِّئب ليس غير هجمة مباغتة يتبعها القتل والالتهام؛ وهو أمر هَيِّن إذا قيس بما يفعله البشر بالخروف.

ويا لهف قلب هذا الخروف وهو يقف مُقيَّدًا بالحبال، لا يتَوقَّف عن الصُّراخ والانتحاب؛ لَعلَّه يبكي فقدان عياله، أو فقدان أبويه، أيًّا كان الوضع هو في النِّهاية خروف يبكي فقدان

صحبة الأعِزَّاء من أفراد قطيعه؛ هذا غير جهله بمصيره، وإن كان كُلّ ما حوله يشي بمصير سَيّء، فأمام ناظريه خطاطيف عُلِّقت بها جثث مسلوخة، تشخب دمًا، تشبه جثث الخراف.

لكن زمجور، لئيم الطِّباع، لشَدّ ما يسعى إلى التَّحقير من شأن الخراف، حتَّى وهي تواجه الذَّبح، فيسخر منها سخرية دنيئة؛ يقول إنِّ الخروف، المُقيَّدة قوائمه انتظارًا للذَّبح، سرعان ما يتَوقَّف عن المأمأة والنَّحيب فور أن يُوضَع أمامه بعض أعواد من البرسيم، أو حفنة غلال. تختفي ملامح البؤس من وجهه، وتظهر ملامح السَّعادة، فينكَبّ يأكل بشَهيَّة عارمة حتَّى يمتلئ شبعًا، فيستلقي يجتَرّ وهو ينظر ببلادة إلى لحوم الخراف، إخوانه، تتأرجح بالخطاطيف.

ترى هل يقصد الكلب، بنشر مثل هذه الافتراءات والمبالغات بين شبابنا المراهق، غير إثارة غضبهم وحنقهم على الرُّعاة البشر؟ ولِمَ يفعل ذلك إن لم يكن لأسباب تَخصّه؟ للأسف لم نعلمها في حينها، لكنَّها كانت أسبابًا بارعة فعلًا، نجحت في قلب الحقائق.

وإلَّا كيف انقلب سلوك جَسّ الرَّاعي البَشريّ لظهر الخروف مِنَّا، من سلوكٍ حَميميّ بامتياز إلى سلوك إجرَاميّ مُروِّع، هدفه البيع والذَّبح، ومن ثَمَّ السَّلخ والطَّبخ؟

كُنَّا ننبهر لمُخيِّلة الكلب الإجرَاميَّة المعطاءة في تصوير الفظائع؛ ونُصرّ على كذب الكلب؛ إذ نؤمن كخراف بأنَّ الله فطر الكلاب على الكذب.

وكيف تلوم على الخروف وهو حيوان
يـرى أخـاه ذبيحـة فـلا يضـام.
وأنـت في الدُّنيـا تـرى الإنسان
يـذبح أخـاه بـالـحروب ضـرام.
قـابيل قتـل هـابيل أوَّل الأزمـان
عـاش الخسـيس ورحـلوا الـكرام.

وقد حَدَّثتك يا تعسير عن روعة بنيان حظيرتنا في زمن الرُّعاة البَشر، وحَدَّثتك عن كفاية الطَّعام والشَّراب فيها، لكنِّي لم أُحدِّثك عن أرقى ما كان يُقدَّم لنا داخلها من خدمات إضَافيَّة، والَّذي ما كان ليُقدَّم لنا لولا ما تَمتَّع به هؤلاء الرُّعاة الغابرون من لطف.

أقصد: خدمة النَّظافة.

فأنت تعرف أنَّنا لا يَهمّنا قليلًا، أو كثيرًا، إذا كُنَّا نبعر ونبول في أماكن طعامنا، أو في أماكن نومنا. وحتَّى إذا كُنَّا نشعر بالفرق بين الحظيرة وهي نظيفة، وبينها وهي مُكدَّسة بالبعر، زائطة بالأبوال، فقد ظَلَّت مسألة النَّظافة أمرًا لا يعنينا، إذ من أَهمّ صفات الخراف قدرتها على التَّكيُّف مع أَيّ وضع. هذه القدرة، من وجهة نظري، ليست مُجرَّد صفة مُهمَّة، بل ميزة جنس الخراف؛ وأيّ ميزة رائعة.

إنَّها الميزة الرَّئيسة الَّتي منحت جنسنا القدرة على البقاء مهما شَقّ الحال، في حين أنَّ أنواعًا عديدة من المخلوقات انقرضت لا لشيء غير أنَّها عجزت عن التَّكيُّف مع واقعها.

رغم ذلك فإنّي لا زلت أتَذكَّر حرص الحَاجّ يونس على تنظيف حظيرتنا، فكان يستدعي زوجته، ويجمعان فضلات القطيع، بالمسحاة مَرَّة، وبأيديهما مَرَّة؛ فهل شاهدت الكلب زعبور، أو غير الكلب زعبور، يسلك سلوكًا نبيلًا رقيقًا كهذا؟

قطعًا: لا.

طَيِّب؛ أقول لك الأَشدّ إدهاشًا:

- لقد بلغت رِقَّة وحِنيَّة الحَاجّ يونس أن كان يُمعِن في تنظيف حظيرتنا، درجة رَشّها بالمبيدات الحَشريَّة مَرَّة على الأقل أسبوعِيًّا.

طَيِّب؛ أقول لك الأقوى إثارة:

- كان الحَاجّ يونس يحرص على نظافتنا الشَّخصيَّة حرصًا مُبالغًا فيه، فكان يُخصِّص عصر كُلّ يوم جمعة لأجل تحميمنا في النَّهر.

هل تتَخيَّل ما أقوله!

لن تتَخيَّله مهما وصفت لك؛ وأنا لا أقوله لتتَخيَّله، بل لأُدلِّل لك على: إلى أَيّ مدى بلغت رِقَّة وحِنيَّة الرُّعاة البَشر؛ ثُمّ لتنظر بعدها إلى حالنا في ظِلّ الرُّعاة الكلاب، وكم بلغت من السُّوء والخبث، بحيث تعي أنَّ أَيّ ذكر لكلمة: رأفة؛ أو كلمة: حِنِّيَّة؛ أو كلمة: شفقة؛ ينطق بها الكلب زعبور في خطاباته إنَّما هو من قبيل المناورة والخداع المُسايِسَين.

فمن أين للكلب بالرَّأفة، أو الحِنِّيَّة، أو الشَّفقة، وهو لم يُجبَل

إلا على العَضّ والخمش.

جُبِلت الكلاب على القسوة.

الكلب مخلوق جبان
وله طباعه الرَّذيلة.
أسدٌ على كُلِّ غلبان
ولكُلِّ قوي يِهِز دِيلَه.
افهمو يا قطيع خرفان
دا الفهم حاجة جميلة.

قلت لك من قبل إنَّ الحَاجّ يونس ساقنا قديمًا إلى هذا المرعى، وكان أبعد المراعي، ضاربًا في الصَّحاري، لذلك لم يكن بمستطاع القطيع العودة في نفس اليوم إلى الحظيرة، فتَقرَّر لنا المبيت فيه. وكانت الشَّمس اختفت وراء خَطّ الأفق، والعتمة تزحف من الأفق المقابل، عندما سمعنا نباح زمجور، والَّذي شاءت الأقدار له أن يكون، فيما بعد، مُؤسِّسًا لرَعويَّة الكلاب.

لم يكن نباحًا نشيطًا نابهًا كالعادة، وإنَّما ممطوطًا، طويلًا، عليلًا، خافتًا.

هكذا؛ ربما بسبب لدغة عقرب، أو عضَّة أفعى، أُصِيب زمجور بإعياء مفاجئ ألقى به على جنبه ضعيفًا واهنًا.

هنا يجب لفت انتباهك إلى أنْ: ليست القدرة على التَّكيُّف هي ميزة الخراف العظيمة؛ لدى الخراف مَيزة أخرى، ربما هي الميزة الأعظم الَّتي وضعت الخراف على دَرَج الرُّقيّ في مرتبة سامية عن

معظم المخلوقات.

ميزة: المَوضوعيَّة.

فمهما اختلفت الخراف مع الآخر فإنَّها لا تنكر حقوقه. ترانا نكره الكلاب غاية الكره، ونختلف على تقييم دورها في التَّنظيم الدَّاخلي، رغم ذلك لا يمكن لأحدنا إنكار أَهميَّة دورها في الحراسة. وإقرارنا بذلك لا يعني أنَّ الخراف لا تستطيع القيام بمَهامّ الحراسة، إنَّها تستطيع، لكنَّها ستفعل بصعوبة شديدة، بينما الكلاب تحرس ببساطة ومهارة، كأنَّها تتَنفَّس؛ الكلب قد لا يتَحرَّك من ضجعته، مع ذلك فإنَّ نباحه، دون مغادرة مكانه قيد أنملة، كفيل بطرد المفترسات المُتربِّصة بالقطيع.

فلمَّا مرض زمجور شعرنا بقلب الحَاجّ يونس ينخلع؛ إذ رأيناه يشرَئبّ برأسه، مُتطلِّعًا ناحية الأفق بقلق وتخَوُّف. وقد أثبت تَقدُّم الوقت صدق تَخوُّفه. فبالكاد أظلمت السَّماء، ليتعالى من الآفاق عواء أفتك المفترسات بقطعان الخراف، هذا المخلوق البشع، كِلابيّ الخلق والخليقة؛ الذِّئب.

فلمَّا لم يسمع الذِّئب نباحًا نشيطًا، وسمع أنينًا كِلابيًّا مريضًا، أشبه بالأصوات المصاحبة لطلوع أرواح الكلاب، تَجرَّأ على التَّقدُّم ناحية القطيع بتؤدة، يقترب منه برَويَّة، يُنقِّل خطواته بثقة وحذر منقطعي النَّظير.

في تلك اللحظة الفارقة ظهر خروفنا الأثير.

المُعظَّم: «تغبير».

وقد كان تغبير خروفًا من العَوامّ، غير أنَّه لم يكن مثلها تمامًا، إذ تَجمَّعت فيه جميع فضائل الخراف، وترَسَّبت في قلبه وعقله، وحتَّى في عضلات جسده.

فإذا كنتَ ترى الخراف صبورة فإنَّ الصَّبر هو: تغبير.

وإذا كنتَ ترى الخراف تُحبّ القطيع وتؤمن به فإنَّ تغبير يؤمن بأنَّه القطيع، وأنَّ القطيع هو؛ حتَّى أنَّ كلمة عظيمة اشتهرت عنه، قالها يومًا وثَمَّة خطر داهم قد أحدق بالقطيع؛ حينئذ غرغر، ومأمأ، وتساءل بنبرة استنكاريَّة ذات مغزى عميق:

- أيُؤذَى القطيع وأنا حَيّ!

وإذا كنتَ ترى الخروف عزيز النَّفس، مهما أطعمه راعيه البَشريّ، ومهما جَهَّز له الحظائر المريحة النَّظيفة، لا يقترب من راعيه مطأطئًا رأسه، يؤرجحه يمينًا ويسارًا، مُرقِّصًا لِيَّته بين فخذيه، كما تفعل الكلاب إذا ألقى لها الرَّاعي حتّة عظمة! لا؛ الخروف مِنَّا كان يتعامل مع الرَّاعي البَشريّ بنِديَّة؛ ولم لا؟ فإذا كان الحَاجّ يونس يعطينا طعامًا وحظيرة، فإنَّ الخراف تعطيه أصوافًا وألبانًا؛ مع ذلك إنْ ذُكِرت عِزَّة النَّفس فهي: تغبير.

أمَّا عن التُّقَى والوَرَع فتغبير هو الخروف التَّقيُّ الوَرِع؛ ينظر للسَّماء مَرَّتين، عند شروق الشَّمس، وعند الغروب، فيما يُحرِّك مِشْفَريه متمتمًا، كأنَّه يُحدِّث مقيمًا في الأعالي، يُحدِّثه بخشوع لا يخشعه للحَاجّ يونس نفسه، ولا لكلبه. يسأل الله أن يجعله

خروف أضحية.

فتح تعسير مقلتيه على آخرهما مستفهمًا. فقال الحكيم تعذير:

- أنت لا زلت صغيرًا، لم تكمل الحول، فلم يمر بك يوم الأضحية لتعرفه، إنَّه يوم مُقدَّس لدينا، وكلَّما كان الخروف أشَدّ ورعًا، وتقوى، رغب في أن يكون ذلك الخروف المختار للفداء، تَمثُّلًا بجَدِّنا الكبش الَّذي كان يرعى في خضرة السَّماوات، واختاره الله فداءً للرَّاعي البَشريّ «الحَاجّ إسماعيل»، لكن رغم قداسة هذا اليوم، فإنَّ الخراف، مهما كانت ورعة، تخشاه. إنَّه يوم المذبحة الكبرى، والدَّم الخِرفانيّ الطَّيِّب السَّائل أنهارًا. وقد قال الكلب زمجور إنَّه وُلِد في إحدى المدن، ولدته أمُّه في حارة أسفل عربة كارُّو قديمة، تسكنها العناكب والحشرات؛ وأنا كأيّ خروف هنا لا أعرف ما: حارة؛ ولا ما: عربة كارو؛ لكن إذا كان زمجور ولد هناك، فلا بُدّ أنَّها أشياء خبيثة، تليق بكلب خبيث مثله. قال إنَّه في تلك المدينة رأي مذبحة الخراف الَّتي تجري في ذلك اليوم السَّنويّ، وهو يوم يبدأ فجرًا بزحام بَشريٍّ غير معتاد، يزحفون إلى المساجد وهم يُهلِّلون ويُكبِّرون بكلام يخاطبون به الله. قال زمجور إنَّه لاحظ وجود خراف مُقيَّدة في مداخل العمائر، وأمام البيوت، خراف غريبة لم يكن لها وجود سابق، تثغو ثغاء الغرباء، كأنَّها تبكي، صعب عليه أحوالها، لكن ماذا يُقدِّم لها إذا كان لا يملك ما يُقدِّمه لنفسه وهو كلب مُشرَّد، ابن كلبة مُشرَّدة، في الشَّوارع. قال زمجور إنَّ البَشريِّين ما إن خرجوا من المساجد

حتَّى انهمكوا في ذبح تلك الخراف، كأنَّ أحدهم حَرَّضهم، في تلك المساجد، على سفك دم هذه المخلوقات.

ومع صعوبة المشهد لم يخف زمجور شماتته في الخراف؛ قال إنَّ البَشريِّين كانوا يعطفون عليه، وعلى أمِّه، فيلقون لهما بأكياس القمامة المليئة ببقايا ما لَذَّ وطاب من أطعمتهم، لكن ماذا قَدَّمت لهما تلك الخراف غير ضجيج الثُّغاء، ورائحة أبعارها المقرفة؟

إنَّه يوم مُقدَّس وعر، لكن تغبير كان يُلحّ على الله في صلواته، في كلِّ إشراق ومغيب، أن يختاره كبش فداء. على هذا إن ذُكِر الورع والتُّقي فهما: تغبير.

هذا غير أنَّ سلوكه الشَّخصيّ تجاه القطيع كان دائمًا سلوك الورعين الأتقياء. فمثلًا: لا يسارع تغبير إلى قضم شُجيرَة رأى خروفًا أَحَقّ بها منه لجوع ألَمَّ به، أو لأنَّه الأقرب إليها. كما لا يناطح خروفًا قط انتصارًا لنفسه. ولا ينزو على أكثر من نعجة، أو شاة، في اليوم الواحد. هذا غير ما حباه الله به من قُوَّة جَسديَّة، وغزارة صوف، حسده عليهما جميع الخراف التِّيوس.

فكم بدا مهيبًا جليلًا كأسد هصور، والصُّوف الأسود الغزير يحيط برقبته، منسابًا أسفلها فَيَّاضًا، ويتَخلَّل أذنيه العريضتَين، وينبت بين قرنيه المعقوفَين انعقاف مناقير النُّسور.

لكُلّ تلك الصِّفات الجُسمانيَّة، والرُّوحية، أُغرِمت به نعاجنا وشياهنا؛ العذارى منها والزَّوجات؛ وكثيرًا ما كان يصل إلى علمنا، من حديث نعجة لصديقتها، أو كلام شاة لأختها، أنَّها تتَغزَّل في

جمال هيئة تغبير، ورجاحة عقل تغبير، ونقاء قلب تغبير. حتَّى أنَّ الواحدة منها كانت تنسطل بسيرته، فتمأمئ وتحمحم بشكل مُتغنِّج، منفلت، يثير حفائظنا مَرَّات، ويثير شهواتنا مَرَّات.

وفي جلسات لَيليَّة كثيرة، حينما كان الأرق يصيب بعضنا، كُنَّا نتناقل أحاديث خيانات إناثنا مع تغبير. لكن...

يجب أن تكون لنا هنا وقفة؛ ربما يا تعسير، لأنَّك لم تزل خروفًا شَابًّا، لم يُكلِّمك أحدهم في هذا الموضوع الحَسَّاس، لكنِّي أراك أعقل من مُجرَّد خروف شاب، لذلك سأُكلِّمك دون حساسية؛ لتعرف أنَّنا لا نعتبر علاقات إناثنا بالذُّكور خيانات، نعتبرها علاقات حَميميَّة غير مرغوب فيها، إن تَمَّت فإنَّنا، باعتبارنا كباشًا مُتفتِّحين، نَغضّ الطَّرف عنها، ونواصل الحياة مع إناثنا. فنحن نملك ميزة أخرى، تُوضَع في مَصافّ ميزاتنا العظمى العديدة، أمثال: التَّكيُّف، والمَوضوعيَّة، والكبرياء.

وقد تكون هي أعظم ميزاتنا على الإطلاق؛ ميزة: التَّفهُّم.

إنَّنا نتَفهَّم رغبات إناثنا، لأنَّنا بوصفنا ذكورًا لنا رغبات مثلها. والنِّعاج شقائق الكباش.

هل كان لعلاقة، غير مرغوب فيها، أن تَتمّ لو لم يكن طرفاها خروف ونعجة؟ مُؤكَّد لا. فلماذا نستنكر على إناثنا ما لا نستنكره على أنفسنا؟ إنَّه شيء يتنافى مع مَوضوعيَّتنا، كما أنَّ لدينا من الكبرياء ما يجعلنا نخجل من الدَّعوة إلى تفعيل قيمة أخلَاقيَّة ما،

ثُمَّ نخالفها بسلوكيَّاتنا.

المُهمّ؛ اقترب الذِّئب من القطيع، مُتهيِّئًا لهجومه القاتل فور تحديد فريسته.

توَقَّف زمجور عن النُّباح. فقد أدرك أنَّ نباحه المريض لن ينفع بأكثر مِمَّا يَضرّ، وربما بلغ ضرره أن أودى به إلى حتفه. فالذِّئب، مثلما يهرب من نباح كلب الحراسة القَويّ، يهجم على كلب الحراسة الضَّعيف، ويتعامل معه كما يتعامل مع فريسة خِرفانيَّة سهلة: يُمزِّق بطنه، ينتزع قلبه، يأكل من لحمه؛ فآثر زمجور غلق فمه.

واختبأ الحَاجّ يونس في خيمته؛ فما يفعل غير الاختباء! لعلَّه فَكَّر في أنَّ أقصى ما قد يُسبِّبه الذِّئب من خسائر فقدان قطعة، أو اثنتين، من قطيعه، ليس أكثر من ذلك. ومهما كانت الخسارة أليمة لكنَّها لا تُقارَن بخسارة روحه، فيما لو أقدم على حماقة الدِّفاع عن قطيعه بيدَين خاليتين من أَيّ وسيلة قتال.

أغلق زمجور فمه، مع ذلك رفع عنقه، يسترق النَّظر ناحية الذِّئب.

واختبأ الحَاجّ يونس، مع ذلك رفع عنقه، يسترق النَّظر ناحية الذِّئب.

سترى أنَّ كثيرًا من الحقائق ما كان لها أن تَتَّضح لولا وقوع المصائب.

وقد كشف هجوم الذَّئب المتلازم مع مرض الكلب زمجور وجُبن الحَاجّ يونس عن حقيقة خطيرة، مفادها: إنَّ كُلّ خروف، ونعجة، وحَمَل، مُهدَّد دائمًا، إذا لم يكن قادرًا على الدِّفاع عن نفسه بنفسه. وإنَّ جميع الحمايات الخارجة عن التَّكوين الذَّاتي للخروف آيلة للسُّقوط في لحظات مفاجئة، مانحة الفرصة لمصائب كبرى، مثل هجوم ذلك الذِّئب، أن تقع. لولا أن ظهر، في الوقت المناسب، خروفنا تغبير المُعظَّم، النَّبيل المُطهَّم، حامي حمى قطيع: أوسط ما وراء النَّهر.

انعكست أضواء المشاعل على وجه الشَّيخ أبيض الهِلِّي، فظهر نُحاسيًّا، منطلق الأسارير؛ وقد زعق زعقة فرح صادية، أنعشت قلوب المستمعين، لأنَّهم شَمُّوا فيها رائحة الأمل، وسمعوها بشارة خلاص، فتصايحوا بابتهاج طاغ، بينما أخذ هو يقول:

- ظهر الشُّجاع وكان غير مُنتَظر. فمن كان ينتظر بروز خروف لمواجهة ذئب؟ القطيع بلا راعي، وبلا كلب حراسة، فأصغر ذئب يقدر يأكل خرفان زَيّ ما يحب. لكن الله مُطَّلع يا إخواننا، مهما تفتكروا الحَلُّ بعيد، فرج رَبّنا قريب؛ لمَّا دَقَّت القلوب بالخوف من هجمة الذِّئب المرعبة، وكان كُلّ خروف، أو نعجة، ينطق الشَّهادة على روحه...

في هذه اللحظة هَزَّ أبيض الرَّبابة هَزَّة مفاجئة بعنفوان، وأجرى عليها قوس العزف بتَدفُّق فيضان، وأنشد بصوت يركض كالرَّهوان:

وما ضـاقت الَّا وفُـرِجت
وما حِزْنِـت إلَّا وسـعيدة.
حدادي الهم حَطَّت وفرشت
راح الفـرح أرسـل بريدَه.
فارس بطل مغوار اسمه تغبير
ما غفـلانشي عَمـَا يريدَه.
فتى سُجاع ما يخشى التَّدابير
في الحـرب مـالُه نديدَه.
قام هجم على الدِّيب بقرنيه
هجمة وغى حـمية وشـديدة.

انطلق من قلب القطيع مقذوفًا بشجاعته، كتلة سوداء متدحرجة بأسرع من نيزك السَّماء، تبرق عيناه وهجًا نَاريًّا، يحمحم صارخًا بتهديدات الوغى، يُغبِّر التُّراب، سحائبًا، وهو تغبير، قد مال برأسه إلى وضع المناطحة، مبرزًا قرنَين بَرَّاقين، كأنَّهما طُرِقا من سبيكة الفولاذ، منتهيَين بطرفَين مُدبَّبَين، بإمكانهما، لفرط دِقَّتهما، اختراق قلب ذبابة، دون تمزيق الذُّبابة نفسها.

ما إن رأى الذِّئب هجمة تغبير، جَادَّة، وعاصفة، حتَّى نكص سريعًا على أعقابه، وأقعى بعيدًا، ينظر إلى هذا المهاجم المغامر مذهولًا.

كُنَّا في لحظة فارقة؛ واللحظة الفارقة يحتاج تحَقُّقها إلى أحدٍ؛ أحدٍ نادر، عَفويّ، لا يَهتمّ بحساب المعادلات؛ لا يلقي بالًا إلى: بأيِّ الشُّئون يكسب، أو بأيِّها يخسر؛ أحدٍ كأنَّه خروف همل، عَاديّ، مع ذلك قلبه لا يَضخّ دماء بقدر ما يَضخّ ثورة.

هكذا، ثورته تكون مفاجئة، لا يقصد بها إطلاق شعارات تَحريريَّة عظمى بقدر ما يقصد إرساء قيم معروفة، لكنَّها مُهدرة، كالصِّدق، والمروءة، والوضوح، والانتصار للمشاعر النَّبيلة مهما كانت صغيرة وبسيطة.

وقد ثار تغبير مناطحًا الذِّئب دون شعارات رَنَّانة، ثار فقط كي لا يتَألَّم أحد أصدقائه إذا نجح الذِّئب في الانقضاض عليه. وربما ثار لأنَّه لم يتَصوَّر إقدام ذئب على إهانة نعجة، أو إلحاق الضَّرر بشاة. أو ثار لأنَّ ضميره رفض تَخيُّل حَمَل ضعيف يرفس برجليه بين أنياب الذِّئب.

تَحقَّقت الفائدة العظيمة، عندما ألقت ثورة تغبير في روع جميع أقرانه الكباش أنَّ الذِّئب ليس على الحقيقة ذلك المخلوق الَّذي لا يقهره سوى الكلاب. بل الكباش قادرة على قهره أيضًا.

كما أُلقِي في روع الخراف ما هو أَهمّ بكثير؛ إنَّها قادرة على العيش بأمان دون حاجة لكلب.

ثُمَّ أُلقِي في روعها ما هو أخطر، ما كان بمثابة الحقيقة الَّتي تكشفها الحوادث الطَّارئة: إنَّ الكلاب مخلوقات زائدة عن حاجة القطيع.

وربما أهَمّ ما كشفت عنه ثورة تغبير هو ما عَبَّر عنه ضمادة السَّكاك ليلتها، عندما همس في أذني بفرح قائلًا:

- أَشكُ في أنَّ قطيعنا بعد اليوم يحتاج لرعاية الحَاجّ يونس، أو رعاية غير الحاجّ يونس.

وكان الحدث أكبر، وأعظم، من أن ينقضي وقد تغَيَّرت مفاهيم الخراف فقط؛ فحتَّى الكلب زمجور تغَيَّرت مفاهيمه، وفتح عينيه لينظر من زاوية مختلفة عن الزَّاوية الَّتي ظَلَّ طوال عمره ينظر منها إلى الخراف، فامتلأ قلبه قلقًا؛ فلطالما رأى زمجور الخرافَ مخلوقات بليدة، تقوم حياتها على مُرتكزَين لا ثالث لهما: المرعى، والحظيرة. لا تعرف من العالم سواهما، فلا تطمح إلى غيرهما. ولطالما رآها كائنات وخمة، درجة عدم قدرتها على القيام بحراسة نفسها، ما اضطُرّ معه الرُّعاة البَشريِّون إلى استجلاب الكلاب، وتوظيفها لحماية وتأمين قطعانهم من هجوم المفترسات. وأنَّ الرَّاعي البَشريَّ مهما دَلَّل الخراف وبالغ في خدمتها، فإنَّه لا يفعل ذلك إلَّا للحصول على اللبن، والصُّوف، واللحم، أمَّا علاقته الحَميميَّة الحَقيقيَّة فهي علاقته بالكلب، يُحبُّه حتَّى يكاد يصادقه. في أوقات مللِه يلاعبه. في أوقات نشاطه يُدرِّبه. ارتباط قَويٌّ مكين ظَنَّ معه زمجور أنَّ أصل البشر والكلاب واحد.

وليس بمستطاع مخلوق إنكار أنَّ الكلب ماكر؛ فما إن عاشر الإنسان حتَّى أدرك أنَّه كائن أَنانيٌّ، يعطي إذا أخذ، ويأخذ أكثر مِمَّا يعطي، ولا استمرار لعطائه إذا لم يستَمرّ أخذه. لمس زمجور تلك الأَنانيَّة البَشريَّة عند إخلاله بواجباته الأَمنيَّة، لأسباب معظمها خارج عن إرادته. مثل: غفوة يغفوها في نقطة الحراسة، فتحيط به الخراف بينما ترعى، حينها تُعطِّل رائحتها النَّفَّاذة حَاسَّة الشَّمّ لديه، فلا ينتبه لهجوم ذِئباويٍّ مباغت تكون نتيجته ترويع القطيع، واغتيال أحد أفراده.

في مثل هذا الظَّرف العصيب يرى الكلب علاقته الوطيدة بالرَّاعي، وقد كانت مليئة باللفتات الرَّقيقة، كقصعة لبن خِرفانيّ طازج تُمنَح له بصدر رحب، أو عظمة ساخنة لساق شاة مَكسوَّة بهبرة من لحمها المَشويّ، وغيرها من مثل تلك العطاءات الكريمة، تَتبخَّر فجأة، تختفي كَأنَّها لم تكن يومًا!

إذ ما إن يكتشف الرَّاعي مصرع خروفه حتَّى يسارع إلى سَبِّ الكلب بأقذع الشَّتائم، ثُمَّ يأخذ في رجمه بالحصى والحجارة رجمًا غشيمًا، وكأنَّه لا يقصد معاقبته بقدر ما يقصد قتله. ما لا يجد معه زمجور بُدًّا من وضع ذيله بين ساقيه، والهرب بأسرع ما يستطيع، فيما ينوح نباحًا مستعطفًا بلا جدوى.

هكذا فهم الكلب أخيرًا ما فهمته الخراف أَوَّلًا: إنَّ ما يُبقي على قُوَّة العلاقة بالرَّاعي ليس تلك المشاعر الدَّافئة المتبادلة بينهما، وإنَّما المنفعة المتبادلة بينهما.

العطاء مقابل الأخذ.

على هذا أدرك زمجور أنَّ المشاعر الدَّافئة ليست هي دافع امتداد العلاقة بينه والرَّاعي البشريّ، وإنَّما المنافع الدَّافئة. فقال لنفسه خلاصة ما فهم:

- قيمتك يا زمجور من قيمة حراستك. الحراسة يا زمجور هي ما تمنحك قيمتك. إذا لم تحرس يا زمجور تخلَّى عنك الرَّاعي، فتمسي حيوانًا بَريًّا هملًا، صريعَ الفوضى.

وها زمجور، يا لفزعه، قد رأى للتَّوّ خروفًا ينهض بمَهامّ الحراسة، وعلى أفضل ما يكون النُّهوض.

أيضًا، انتهت تبعات انتصار تغبير على الذِّئب إلى تغيير مفاهيم الرَّاعي البَشريّ نفسه؛ وكان الحَاجّ يونس قد دخل مسجدًا صَحراويًّا صغيرًا ليُصلّي، فسمع شيخًا يقول:

- إنَّ الله يفرح بعبده الطَّائع، لكن فرحته بالعبد الآبق الآيب أَشدّ.

سمع الحَاجّ يونس هذا الكلام باعتباره حديثًا قُدسيًّا، بيد أنَّه لم يستطع هضمه لزمن طويل؛ فكيف تكون فرحة الله بعودة عبد آبق أَشدّ من فرحته بعبد شديد الإخلاص له، يلزمه لزومًا؟ أليس هذا ظلمًا لمن يلزم الطَّاعة؟

لكن، قد يكون أَهمّ ما تثمره الأحداث ليس ما يتَرتَّب على وقوعها من نتائج مَاديَّة، وإنَّما ما يتَرتَّب على وقوعها من تغيير للمفاهيم والأفكار. هكذا، لم تُغيِّر مناطحة الكبش الأسود للذِّئب، ودحره إيَّاه، وإنقاذ القطيع من عدوانه، مفهومَ الخراف حول قدراتها التَّناطحيَّة فقط؛ ولا غَيَّرت مفهوم الكلب واعتقاده بأنَّه قُوَّة القطيع الوحيدة القادرة على الحراسة؛ بل غَيَّرت مفهوم الحَاجّ يونس لذلك الحديث القُدسيّ، عندما وجد نفسه، فجأة، يفرح بكبشه الحارس بأَشدّ مِمَّا يفرح بكلبه الحارس! رغم أنَّ حراسة الأوَّل لم تكن غير صولة طارئة، فيما يلزم الثَّاني الحراسة لزومًا.

وقد انتبه الحَاجّ يونس لتناقضه، وفَكَّر، واكتشف أنَّ فرحته

الطَّاغية ليس لها علاقة باكتشاف قدرة الكبش على مناطحة ذئب، بقدر ما لها علاقة بأنَّه، بوصفه راعيًا، صار يملك حارسَين مخلصَين، لا واحدًا.

ومَرَّت الأيَّام؛ وشفي زمجور، ومرض الحَاجّ يونس. وكان مرض موته.

خضرة يا دنيا وحلوة في أَوَّلك
سودة يا دنيا ومُرَّة في آخرِك.
تخدمها حياتك يا مفتونًا بها
لكــن خسـيسـة آخـرها تبهدلك.
كن حكيمًـا وما تبُصِّلهاشِي أبدًا
تَظلّ طـول حياتك هي تُبصِّلك.

قال أبيض الهِلّي، والقمر في السَّماء تَربَّع، وجهًا بالحسن أضواء:

- في النَّهار الأخير من عمره فَكَّر الحَاجُّ يونس في مصير قطيعه، فوجده مصيرًا مُرًّا. فالقطيع بعيد عن القطعان؛ إذن من يرعاه؟ من يحلب ألبان الشِّياه؟ من يَجزّ أصواف الخراف؟ من يُؤمِّن لها المرعى والمبيت؟ وندم الحَاجّ يونس، وهو يموت، على أنَّه اعتزل رفاقه الرُّعاة. لو لم يعتزلهم لضَمَّ أحدُهم قطيعَه إلى قطيعِه.

يا إخواننا؛ وحياة سيدنا النَّبي افهموا الكلام زين، قَرّبوا من بعض، بلا فُرقَة، النَّجاة في القربى. وانظروا وتَعجَّبوا؛ الحَاجّ

يونس يُحيِّره مصير قطيعه بعد موته! شوفوا ابن المرأة مهموم بالدُّنيا حَيًّا وميتًا! دنيا غرورة، والإنسان غِرّ.

المهم؛ الرَّجل فَكَّر فلقي مشكلة حلب الألبان محلولة، الحملان لا تشبع من الرَّضاعة، ستحلب بأفواهها ضروع أُمَّهاتها لآخر قطرة. ومشكلة الأصواف بفضل الله محلولة، لأنَّ بقاء الأصواف على أجساد الخرفان من غير جَزّ أنفع لها؛ تُبرِّدها صيفًا، وتدفئها شتاءً.

هكذا وجد الحَاجّ عَليّ أنَّ المشكلة الوحيدة، الحَقيقيَّة، هي المشكلة الأَمنيَّة؛ تهديد الذِّئاب الَّذي لا ينتهي، ومدى قدرة القطيع على مواجهة تلك النَّوعيَّة الخطيرة من التَّهديدات.

هنالك استدعى الحَاجّ يونس الخروف تغبير والكلب زمجور.

وقد امتثل الكلب للاستدعاء فورًا، إذ هرول إلى حيث اطَّرح الرَّاعي المُنهَك بمرضه أرضًا، راقدًا على جنبه، وأخذ يُرقِّص ذيله، ويُطوِّح رأسه، ويتَمسَّح فيه، مطلقًا أصوات تَزلُّف مائسة.

أَمَّا خروفنا المُعظَّم، فإن لم يكن لَبَّى الاستدعاء بالشَّكل اللائق به ككبش محارب، وأيقونة المناطحة العظمى، الَّتي صار الخراف ينظرون إليها بإجلال وإكبار، روحًا عظيما يُنفَخ منه في جميع كباش القطيع، فيلهمها الشَّجاعة والإقدام، فإنَّه لَبَّى الاستدعاء كما يليق بأيّ خروف عَاديّ استدعاه رَاع ما. ذهب بتؤدة مُتمهِّلًا، يلقي بالتَّحيَّة على من يعرف ومن لا يعرف، حتَّى وصل إلى الحَاجّ يونس قبل وصول الموت إليه بدقائق قليلة، لكنَّها دقائق كانت

كافية لأن يُلقي الرَّاعي بآخر تعليماته؛ قال، وصدره يعلو ويهبط، يعاني سكرات الموت:

- تغبير الرَّاعي من بعدي، وزمجور يحرس مخلصًا له إخلاصه لي.

وفاضت روح الحَاجّ يونس، لينتهي بموته عصر الرُّعاة البشر لقطيع: أوسط ما وراء النَّهر؛ ويبدأ عصر الرَّاعي الخروف.

ليه يا زماني بتِقلِب قلب
أحيا سعيدًا ثُمَّ فجأةً تشقيني.
هو انت يا زماني لو ليك قلب
تزِحْني بعيدًا عن الفرحِ وتشجيني.
لكن لِنَا في السَّما فوق رَب
إن كنت قَتلتَني فهْوَ يُحييني.

للحارس البصر، وللمحروس البصيرة؛ للكلاب الحراسة، والقُوَّة للحراسة؛ أَمَّا الحكمة فتَلزَم الخراف، لأنَّ الحكمة مأمورة بمرافقة أولي الضَّعف والوهن.

هكذا، في حين استقبل زمجور خبر انتقال الرَّعويَّة لأحد الخراف بالحزن، بالغيظ، بالقهر، بالحقد، بالحسد، فإنَّ خرفان القطيع الحكيمة، الهرمة، عقدت الجلسات الطَّويلة لتدرس تعليمات الرَّاعي البَشريّ الأخير، تُفنِّد الأسباب الَّتي دعته إلى تقديم الخروف على الكلب.

نفر الخروف «تيسير» الهواء، وغرغر، وقال بمأمأة مُشبَّعة بخشوع خروف تَقيّ:

- إنَّه وعد الله، يُورِث الأرض لخرافه الصالحة.

وقال:

- أيَّتها الخراف: إذا أراد رَبُّ الأسباب فلا تسألي عن الأسباب؛ هذا عيب والله.

وقال:

- ما الكلب من الله؟ إنَّه مخلوق ممقوت، حتَّى أنَّ الرَّاعي البَشريّ كان يقول إنَّ مخلوقات خَيِّرة لطيفة، اسمها الملائكة، لا تدخل مطلقًا مبيت الكلب. لكن انظروا ما الخروف من الله؛ بخ، بخ، إنَّه المخلوق المُعزَّز، المُكرَّم، أحَبّ مخلوقاته إليه.

ودَلَّل:

- ألا ترى الخراف أنَّها مهما شربت، من سَجل ماء، يشرب الرَّاعي من نفس السَّجل بلا غضاضة أو حرج، في حين لا يقرب السَّجل، أبدًا، لو أنَّ الكلب ولغ فيه؟

وأضاف، رافعًا رأسه، ناظرًا للسَّماء، كأنَّه يتَتبَّع وحيًا:

- هذا غير ما ورد في مَحكيَّتنا المُقدَّسة، والَّذي لن تفتأ الخراف تباهي به الكلاب أبد الدَّهر، مؤكِّدًا على أنَّ الله اختار الخروف، من بين جميع مخلوقاته، مَرَّتين لإنقاذ الرُّعاة البشر من تداعيات خطيئاتهم. دعوني أُذكِّركم بهما.

في المَرَّة الأولى: أنزل الله الكبش، الَّذي يرعى خضرة السَّماء، فداءً للرَّاعي البَشريّ الصَّالح، الحَاجّ إسماعيل.

وفي المَرَّة الثَّانية: أنزله الله ابنًا له، في صورة راع بَشريٍّ عظيم اسمه «الحَاجّ المسيح»، لكن تلاميذ الحَاجّ المسيح كانوا طوال الوقت يعلمون حقيقته، فدَوَّنها أحدهم، بكُلِّ فخر، في كتاب مُقدَّس، مشيرًا إلى الحَاجّ المسيح باعتباره الخروف الأكبر.

وتساءل «تفسير»، كأَيّ خروف تَقيّ ورع، لا يسأل للحصول على إجابة بقدر ما يسأل لترسيخ إجابة جاهزة لديه:

- إذا كان الله جعل ابنه خروفًا، وكَلَّفه برعاية قطعان البشر، فعلام الاندهاش من تكليف الحَاجّ يونس الخروف تغبير برعاية قطيع خراف؟

وكان أن نهض خروف جليل، آخر، يُدعَى تفسير، على قوائمه، وسارع بنطح نعجة صغيرة تَسلَّلت إلى مجلسهم المُوقَّر، تتَلصَّص وتصيخ السَّمع لما يقال، أبعدها، وعاد ينفر الهواء من منخريه؛ نظر لتيسير نظرة مُشكِّكة في قيمة كلامه. فهكذا مفكرو الخراف، عادة ما ينظرون إلى المُتديِّنين نظرتهم للسُّفهاء والمجانين.

لكن هذا لم يمنع تفسير من أن يتَحدَّث برزانة قائلًا:

- حتَّى مع ما لحديث خروفنا الجليل تيسير من وجاهة دِينيَّة، فإنِّي لا أظُنّ أنَّ الحَاجّ يونس اختار خروفنا الهمام تغبير للرَّعويَّة على أساس دِينيٍّ. بل أظُنّه اختاره على أساس الكفاءة. وأساس كفاءة الرَّاعي هو مدى ثباته الانفعَاليّ. وأنا كمفكِّر له ملاحظاته القَيِّمة، بخصوص نفوس الحيوانات، أستطيع التَّأكيد على أنَّ مستوى الثَّبات الانفعَاليّ عند الخراف أعلى بما لا يقارن به ثبات الكلاب الانفِعاليّ.

والحقيقة أنَّ كلام خروفنا، العلَّامة تفسير، كان يتَمتَّع بقدر كبير من الصِّحَّة.

فعندما استدعى الحَاجّ يونس الخروف تغبير، والكلب زمجور، فإنَّهما وقفا أمامه متجاورين، نظر فيهما نظرة مُتفحِّصة؛ لم تمنعه خطفات الاحتضار من إمعان النَّظر فيهما جَيِّدًا، إنَّ مستقبل القطيع في رقبته، وهو ذاهب إلى الموت، حيث اليوم الأخرَويّ الَّذي يخشاه البشر، والتَّحقيق الإلَهيّ فيما قَدَّموه بحيواتهم، وإنّ كُلّ راع مسئول عن رَعيَّته.

نظر إلى الكلب فرآه خفيفًا، إن كان نباحه قادرًا على إشاعة القلق في قلب قاتل فَتَّاك كالذِّئب، لكنَّه حيوان عديم الشَّخصيَّة؛ ها هو يقف أمامه، لا يكاد يثبت في مكانه، يُوشِك على القفز فوقه ليلعق قدمَيه، كأنَّه يتَمنَّى لو كان بَشريًّا، لا كلبًا.

ثُمَّ نظر إلى الكبش فرآه ثقيلًا، يقف رصينًا، يخطف نظرات إلى رفاق قطيعه، كأنَّ وقوفه بين يدَي الرَّاعي البَشريّ، بعيدًا عنهم، يؤلمه، فيأمل في مغادرة سريعة إليهم.

ولطالما لاحظ الحَاجّ يونس اعتداد الخراف بذواتها؛ اعتدادًا لا عند الكباش فقط، بل يَمتدّ إلى الحملان الصَّغيرة، مروزًا بالنِّعاج والشِّياه؛ فمهما قَدَّم لها من مراعٍ وفيرة الكلأ. مهما قَدَّم لها من برسيم غَضٍّ رَيَّان. مهما قَدَّم لها من حظائر رحبة واسعة نظيفة. فإنَّ خروفًا منها لم يخطُ يومًا إلى الرَّاعي مُرقِّصًا لِيَّته، أو مؤرجحًا رأسه، أو باذلًا أيًّا من تعبيرات الامتنان الَّتي يقَدِّم الكلب المئات

منها، كأنَّها على دراية كاملة بأنَّه يُثمِّنها غاليًا، ومهما تجاهلته سيَظلّ يرعاها؛ وربما تعرف ألَّا معنى لحياته لو لم يواصل رعايتها؛ لو لم يفعل قد يموت فقرًا.

أمَّا الكلب؛ فما الَّذي يُقدِّمه الكلب؟ ما الَّذي يُقدِّمه له، أو للقطيع؟ الحراسة؟ ها هو هذا الكبش الأسود الهمام، تغبير، استطاع النُّهوض بمُهمَّة الحراسة، وتَمكَّن من أن يهزم ذئبًا ببساطة.

وربما لو لم يُرقِّص الكلب ذيله، ويُصغِّر نفسه، لطُرِد من الحراسة بأقرب خطأ يرتكبه. هكذا، إن لم تستعمل الكلاب أنيابها للعيش، استعملت ذيولها.

أمعن الحَاجّ يونس النَّظر إليهما، فرأى المهابة تحتفي بالكبش الأسود الضَّخم، الَّذي بدا بجوار الكلب الضَّئيل ملكًا عزيزًا، صوفه يُثمَّن غاليًا، ولا مُثمِّن لشعر الكلب؛ قرناه المعقوفان كأنَّهما تاج ملك، في حين رأس الكلب أجلح عار، كرأس العبد.

على هذا الحَقّ والعدل، قَرَّر، قبل وفاته بلحظة، تولية مَسئوليَّة الرِّعاية لواحد من ركائز القطيع. واحد منه لا من خارجه. من الخراف لا من الكلاب. إذا كان يملك على الحقيقة جميع مُميِّزات الرَّاعي الصَّالح.

لیس یُؤمَنُ على القطیعِ من جهلِهِ
إلَّا بـِراعٍ فتًى مِـن أهلِهِ.
قـَويٌّ أَمـِينٌ كـالنّـَبِيُّ موسى

استـأمنه شعيـبٌ عـلى أهلِهِ.
هكـذا فَكـَّر الـحَجُّ يونس
وذا من رجـاحة عـقلِهِ وفضلِهِ.

قال أبيض الهِلّي:

- المعقول يا إخواننا أنَّه لا يفهم الخرفان إلَّا خروف، ولا يفهم الكِلبان إلَّا كلب؛ يبقى الحقُّ والعدل هو أن القطيع، لو كان خرفان، يحكمه خروف، ولو كان كلاب، يحكمه كلب؛ ويبقى الظُّلم والحيف هو أن يحكم خرفان الحَاجّ يونس كلب. فلا هذا سيفهم ذاك، ولا ذاك سيفهم هذا، أهداف الحياة بالنِّسبة للاثنين مختلفة.

نهاية الكلام إنَّ هذا خروف، وهذا كلب.

حاجة ثانية يا إخواننا؛ الكِلاب عندها مشاكل؛ تعالوا نقول مشاكلها لناس تفهم.

وأجرى القوس على الرَّبابة، ونتر مُتنحِّمًا يُسلِّك حنجرته، وسحب بيضاء مثل اللجين مبهجة، في سماء آنسها أحسن البدور، يستمع مع السَّامعين في سرور.

بعد أن فَضَّل الحَاجّ يونس الخروف تغبير على الكلب زمجور لرعوية القطيع حَدَّث الأخير نفسه وهو حسير:

- يا لغبائك يا زمجور. يا لخديعتك يا زمجور؛ ويا لنذالتك

وقِلّة مروءتك يا حَاجّ يونس. قضيت أزهى سني عمري في خدمتك وخدمة قطيعك. أقوم بمَهامّ الحراسة على أَتمّ وجه. أقوم بمَهامّ الصَّيد على أَتمّ وجه. أقوم بمَهامّ تسليتك على أَتمّ وجه. فإذا بك تغدر بي على أَتمّ وجه، فتُسلِّم قيادي، أنا الكلب، لخروف عشت حياتي أحرسه! أنبحه، أزجره، وأحيانًا أنهشه بعَضَّة، أو أَصكّه بضربة، أو أجرحه بخمشة، كي يلزم النِّظام، ويَستتبّ الأمن. أتُسلِم قياد كلب ذي مخلب لخروف ذي ظلف! أتُسلِم قياد آكل لحم مفترس لآكل حشائش مُجترّ! أين ذهب عنك ذكاؤك وأنت تَقرّ هذا القرار؟ ربما ذهب مع روحك الذَّاهب، فلم تسطع تقليب الأمر بتمام عقلك.

على كُلٍّ، أنا النَّار الَّتي لم، ولا، ولن، تنحني يومًا للتراب.

هذا ما حَدَّث به زمجور نفسه قبل أن يغادر وحيدًا، ثُمَّ يعود بعد ساعات بأورطة كلاب، كانت مطرودة من قطعانها لأسباب مختلفة، فأحاطت بالقطيع تُظهِر الحراسة.

زمجور جاب العصابة
وحَوَّط بيها القطيع.
عـَ الشَّر وُعدَه وصحابه
كلاب لها شان مريع.
لتمرِّر عيشة الغلابة
بالمكر والقول بديع.

قال الحكيم تعذير، يُحدِّث اليافع تعسير:

- لم يكتف المُفكِّر تفسير بتَأمُّل سلوك بني جلدته من جميع المناحي، مذ صيرورة الخروف حملًا رضيعًا، وحتَّى يغدو كبشًا هرمًا يُوشِك على الموت، بل عكف وقتًا طويلًا على تأمُّل سلوك الكلاب أيضًا.

وأهمّ ما كشفت عنه تَأمُّلاته كان عجيبًا ومفزعًا لدرجة لا تتَخيَّلها.

وقد كان في يوم من أيَّام الرَّاعي الحَاجّ يونس أن ساقنا إلى مرعى وفير الكلأ، شجيراته صغيرة، ذات أوراق وارفة شديدة الخضرة، تكاد تَنزّ طراوة وليونة، مرشوشة على رمل الصَّحراء إلى أبعد مِمَّا تبلغ أبصارنا، فانهمك القطيع يأكل بشراهة ونهم، غير أنِّي لاحظت تفسير عازفًا عن الطَّعام، يتَمطَّى تحت ظِلّ شجيرة، ويحمحم حمحمات واهنة، كأنَّه بائس.

لأوَّل وهلة ظننت أنَّ اشتهاءً جِنسيًّا ألَمَّ به، غير أنِّي عدت عن هذا الظَّنّ سريعًا. فإن كان الشَّبق استَبدَّ به فما يمنعه من الالتقاء بنعجة، أو شاة، توافق رغبتها رغبته فتُبرِّد ناره، إذا كانت النِّعاج والشِّياه أكثر أفراد القطيع؟

ولأنَّ صداقتي بتفسير حَقيقيَّة، حيث أنَّها عميقة وقديمة، فإنِّي نزعت نفسي من طعامي، وربضت بجواره، وسألته عن سبب حمحماته الواهنة، فقال حزينًا:

- اكتشفت شيئًا مخيفًا يا تعذير، جنسًا ثالثًا يعيش بيننا، جنسًا ربما أخطر على القطيع من الذِّئاب، جنسًا مِنَّا لكنَّه يشبه الكلاب، يُمأمِئ مأمآتنا، وأصوافه أصوافنا، وقرونه قروننا، لكنَّه ينطق بقلوب الكلاب.

بل إنَّ ملامح وجوهه، إذا دَقَّقت النظر فيها، تشبه ملامح وجه الكلب.

وهل الدُّنيا تُبقَى دنيا يا تعذير
لـو أنَّهـا خَلَت من العجـايب.
ظالم ومظلوم سوا على السَّرير
بعد العِدا صارا مِنِ الحبايب.
خرفان مشت في سِكّة الكِلبان
ليهم نشان لكن نشانهم خايب.

أثبت تفسير أسبابًا مَوضوعيَّة يمكن التَّعويل عليها كمُسبِّبات إيجاد لما عُرِف بعد ذلك بـ: «الخراف الأشباه»؛ هذا الجنس الخِرفانيّ الشَّاذّ، الخراف شبيهة الكلاب.

وقد تَنوَّعت الأسباب الَّتي أوردها تفسير بين أخطاء أُسريَّة وأخطاء مُجتمعيَّة، تُرتَكب في أثناء محاولة تنشئة الحَمَل تنشئة صحيحة.

مثلًا؛ هناك بعض الأسر لا تبالي بإجراء أَهمّ طقس تَنشئويّ يجب على وَليّ الأمر القيام به فور استطاعة الحَمَل المشي. يقصد طقس التَّعميد. أو طقس التَّلويث حسب رؤية المُفكِّر تنوير.

نفس تلك الأسر لا تَهتمّ بزجر حملانها إذا قامت، في أثناء لعبها، بتقليد الكلاب، كما يحدث في تلك اللعبة القميئة المُسمَّاة بـ: الحرس واللصوص. فالحَمَل الَّذي يُؤدِّي دور كلب الحراسة قد يُعجَب في ذاته العميقة بهذا الدَّور، ما يجعله بمرور الوقت يتَفهَّم الكلاب، إلى أن يجد نفسه مغرمًا بها. ثُمَّ بمرور الأيام يكبر ليصير خروفًا معجبًا بالكلب، فيقوم هذا الإعجاب بدوره الخبيث في تشويه ملامح وجه الخروف، وتحويلها إلى ما يشبه ملامح وجه الكلب.

ها هي مُجرَّد لعبة مع ذلك تصنع فارقًا خطيرًا في مجتمع القطيع، فكيف يُتغاضَى عَمَّا تحتويه بعض المَحكيَّات الهَزليَّة للعديد من الوقائع الحَربيَّة بين الكلاب والذِّئاب، وتمجيدها للكلاب الَّتي تبلي بلاءً عظيمًا على حساب الذِّئاب؟ لا شَكَّ في أنَّ هذا التَّمجيد سيُسرِّب إلى نفوس يافعة الخراف المزيد من الإعجاب بما يحلو للكلاب تسميته: بطولات الحُرَّاس.

ضرب تعذير بجانب قرنه عند كتفه الأجرب، ورفس بحافره جانب بطنه، قبل أن يستطرد حديثه لتعسير بتساؤل استهجانيّ:

- ما البطولة في أن تُؤدِّي عملًا بنجاح إذا كان هو مُهمَّتك الموكولة إليك؟ البطولة هي أن تُؤدِّي عملًا بنجاح دون أن يكون عملًا موكولًا إليك. وعمل الحراسة موكول إلى الكلاب.

لكن، حتَّى آخر راعٍ بَشريّ ظَلَّت الخراف قادرة على التَّعايش بكثير من التَّوافق مع الكلب زمجور، رغم مناوشاته الدَّائمة لها،

والَّتي عديدًا ما تَطوَّرت إلى عَضٍّ وخمش حَقيقيَّين. إذ لم يكن زمجور، أو أَي كلب آخر، يحرس القطيع لمصلحة نفسه، وإنَّما لمصلحة الرَّاعي البَشريّ، لذلك كان حريصًا على فعل جميع ما يَظنّ أنَّه ينال استحسان ذلك الرَّاعي.

هكذا، لم يكتفِ الكلب بالدِّفاع عن القطيع ضِدّ الذِّئاب، وغيرها من المفترسات، وهي المُهمَّة الرَّئيسة المنوطة به، الَّتي لا يحتاج إتمامها لغير أن يربض منتبهًا في مكان قريب من القطيع، حتَّى إذا شعر بوجود ذئب نبح، فإذا رآه طارده، وأبعده عن حدود المرعى.

هذه هي مُهمَّة الكلب الأسَاسيَّة في القطيع. لكن، وبسبب طبيعته الاستعرَاضيَّة، ورغبته الشَّديدة في لفت انتباه وَليّ نعمته حدث أن...

نعم يا تعسير، الرَّاعي البَشريّ هو وَليّ نعمة الكلب، أَمَّا الخراف فأولياء نعمة الرَّاعي البَشريّ وجميع كلابه. لأنَّ الكلب لو لم يُشمَل باهتمام الرَّاعي لن يكون غير حيوان بَريٍّ ضَالّ، لا قيمة له في ذاته، أَمَّا الخراف فقيمتها في ذواتها، تستطيع التَّعايش في مجتمع كبير دون حاجة إلى مخلوق سواها. لهذا، أقصد لقيمتها الذَّاتيَّة، ظَلَّت على الدَّوام مطمع الطَّامعين، في حين لم نسمع أنَّ مخلوقًا طمع في الكلاب.

المهم: قلت لك إنَّ الكلب مُغرم بلفت انتباه وَليّ نعمته، لذلك لم يكتفِ بالحراسة، بل راح يُؤدِّي مُهمَّة أخرى، هي بالأساس مُهمَّة الرَّاعي البَشريّ الرَّئيسة. وقد كان اهتمام الكلب بأداء هذه

المُهمَّة الجديدة أصل البلاء الَّذي وقع على الخراف لاحقًا، ولا تزال تخضع لنيره، والله أعلم متى تَتخلَّص منه.

أخذ زمجور يُؤدِّي مُهمَّة التَّنظيم الدَّاخليّ أيضًا.

من طبائع الخراف وهي ترعى، ولعَلَّك لاحظت هذا، حتَّى بعد أن قُسِّمت أراضي المرعى إلى إقطاعات وُزِّعت علينا، ولم تعد على المشاع، أنَّها لا تلتزم بحدود المرعى، ولها عذرها؛ فالخروف، أو الشَّاة، أو حتَّى الحَمَل، حكيم بطبعه، بالإضافة إلى أنَّه شَرِه ونهم بفطرته. وأن تجتمع الحكمة مع الشَّراهة والنَّهم فهو الإعجاز الإلَهيّ الَّذي لم يحظ به جنس غير جنس الخراف.

إنَّ الخروف يأكل بشره ويُفكِّر بأناة في ذات الوقت. فما الَّذي يمكن أن يفعله التَّفكير والأكل في ذات الوقت غير السَّرحان؟

على هذا تجد الخروف، أو الشَّاة، أو حتَّى الحَمَل، يَشذّ أحيانًا عن القطيع، وعن حدود المرعى، ليرعى في مكان ليس مرعاه؛ في تلك الحالة كان الرَّاعي البَشريّ يزعق لهذا الضَّالّ، أو لتلك الضَّالَّة:

- هِريَا. هِريَا.

ولَعلَّك إذا سمعت الحَاجّ يونس، لفرط حِدَّة نبرة صوته وهو يزعق: هِريَا. هِريَا؛ تَظنّه يَسبّ أو يشتم، لكن الحَقَّ أنَّ الأمر مختلف عن هذا الظَنّ.

فقد اجتمع كبراؤنا وحكماؤنا، قديمًا، من أجل بذل محاولة لفهم معنى تلك الـ هِريَا؛ الَّتي يصيح بها الرَّاعي البَشريّ في كُلّ

لحظة رعي، فاكتشفوا ما أذهلهم، وهَزَّوا له رؤوسهم وقرونهم عجبًا، وقد ارتسمت ابتسامة مندهشة على وجوههم، وكأنَّهم يتساءلون غير مُصدِّقين:

- أيكون الأمر على ذلك بالفعل!

وانتهوا إلى إكبار وتقدير رِقَّة وحِنيَّة راعيهم البَشريّ. وندموا على إساءة الظَّن بكلمة: هِريَا.

والحكاية؛ إنَّ ذلك الرَّاعي كان يُربِّي في بيته مخلوقًا صغير الحجم، يمشي على أربع قوائم مثلما نمشي، وله ذيل مثلما لنا ذيول، رغم ذلك فهو مختلف عَنَّا شكلًا وموضوعًا.

يختلف عنَّا في الطِّباع؛ فهو كسول جِدًّا، ربما لا يكاد يستيقظ من نومه، ولا ينهض على قوائمه، إلَّا للأكل والشُّرب، أو لاصطياد جرذ تائه، أو لقتل بعض العقارب والأفاعي والسَّحالي، وهي أعمال ضئيلة القيمة، ليست إنتَاجيَّة بالمَرَّة.

فذلك الكائن لم يكن ينتج لبنًا مثلما ننتج، ولا ينتج أصوافًا مثلما ننتج. لم يكن ينتج أَيَّ شيء مفيد، مع ذلك لَقِيَ من الرَّاعي اهتمامًا متزايدًا، فحرص على سقيه من ذات ألباننا الَّتي يشرب منها، يطعمه ذات الجبن الَّذي يأكل منه. بل بالغ في تدليله حَدّ أنَّه لا ينهره أو يُعنِّفه إذا هَفَّه مزاجه فحلا له الاستلقاء والنَّوم بين يديه أثناء صلاته.

والحَقُّ يا تعسير هو أنَّني لم أر في حياتي مخلوقًا له أنفة تشبه أنفتنا سواه. إذ مع كُلّ هذا التَّدليل، الَّذي يلقاه من الرَّاعي، إلَّا أنَّه لم يقم، ولو لمَرَّة واحدة، بأداء تلك الحركات الوُصوليَّة القميئة

إنَّما فقط ينظر إليه، وكفى.

وإن أراد التَّعبير عن امتنانه للرَّاعي فلا يزيد عن التَّمسُّح بساقه أو بذراعه. وإذا فعل ذلك فإنَّه يفعله بعِزَّة نفس، فلا يلهث ولا يلعق، وإنَّما رافعًا رأسه، ناصبًا أذنيه، بعينين واسعتين، كأنَّهما تقولان للرَّاعي بوضوح وشفافية:

- أنا صديقك إذا استمريت تهتَمّ بي، غير ذلك فلا أنا صديقك، ولا أنت صديقي. لا أعرفك، ولا تعرفني. وحتَّى إذا كنت لا أقَدِّم لك إنتاجًا ينفعك، فعليك أن تحترمني لذاتي.

علاقة نزيهة، قائمة على النِّديَّة، وإن لم يكن هناك تكافؤ.

والعجيب أنَّ الرَّاعي، مع ما يلاقيه من نِدِّية قد تصل لحَدّ الوقاحة، ظَلّ يُحبّ هذا المخلوق حُبًّا ربما تسامى إلى مستوى الوله والهيام! حتَّى أنَّه إذا تَهيَّأ للنَّوم كان يحرص على ضَمّه إليه في فراشه، واحتوائه بغطائه؛ ولم يكن الرَّاعي يفعل هذا مع مخلوق غيره، ما عني أنَّه أحبَّه حُبًّا جَمًّا.

وكان يُسمِّي هذا المخلوق: هِرَّة.

وقد نظر كبراؤنا وحكماؤنا القدامى في نَوعيَّة العلاقة بين الحَاجّ يونس والهِرَّة، وإلى أيّ مدى هي علاقة ساخنة، فاستنتجوا أنَّ الرَّاعي ربما كان يقصد بكلمة: هِرَّة؛ معنى عَاطفيًّا يتَعلَّق بالحُبّ. ما يعني أنَّ الرَّاعي حين كان يصيح بخروف ضَلّ مرعاه: هِريَا،

هِريَا؛ فإنَّه على الحقيقة كان يقول: هِرَّة، هِرَّة.

يعني: حبيبي، حبيبي.

ثُمَّ لم يعد الرَّاعي البَشريّ يزعق بـ: هِريَا، أو بغير هِريَا، بعد أن أظهر الكلب نشاطًا كبيرًا في زجر أيّ خروف يتجاوز المرعى المُحدَّد للقطيع.

فما إن يتجاوز خروف ما، أو شاة ما، أو حَمَل ما، حدود مرعاه، حتَّى يَهبّ زمجور فزعًا من مرقده، منطلقًا كالسَّهم باتِّجاه الضَّالّ مِنَّا، فيما يزمجر زمجرة مرعبة، كفيلة بأن تجعل المتجاوز ينتبه من سرحانه بسرعة البرق، والقهقرى إلى الوراء في لمحة.

وإذا كان الرَّاعي البَشريّ قد استراح كثيرًا لأداء الكلب في مُهمَّته الجديدة، بحيث صار لا يعمل شيئًا تقريبًا غير حلب الألبان، وجَزّ الأصواف، فلم يمانع أن يتَوغَّل الكلب بالتَّدخُّل في أَخصّ خصُوصيَّات طبائع الخراف؛ أقصد تلك المُتعلِّقة بـ: المناطحة.

فكثيرًا، وكان هذا وقت مشاع المراعي، ما نجم عن التَّزاحم حول مرعى أوفر كلأً من غيره العديد من التَّناطحات السِّلميَّة، ودائمًا ما كانت تنتهي بهدوء، ودون أن تُغيِّر من الواقع شيئًا، حتَّى أنَّ المتناطحَين كانا يعودان إلى قضم الكلأ، من نفس الأرض المُتناطَح عليها، متلاصقَين مُتحابَّين.

أمَّا إذا تناطحا لرغبة اجتاحت أحدهما في الاستئثار بلقاء حَميميّ مع نعجة شَابَّة، حسناء، ملفوفة القوام، رَيَّانة الليَّة،

دقيقة الحوافر، بعينَين مشقوقتَين عَسليَّتين، تمشي تتبختر، فإنَّه ما إن يردع عذوله نطحًا، ويقضي وطره من نعجته المشتهاة، حتَّى تعود علاقة الوئام بينهما على خير ما يرام، فلا يهتم بعدها إن شرع هذا العذول بدوره في النَّزو عليها والاستمتاع بأنوثتها.

لقد صَعَّد زمجور من نفوذه، فصار يخترق القطيع، ويهاجم المتناطِحَين بشراسة، يَفضّ تناطحهما بقُوَّة، ليحدث، ولأوَّل مَرَّة، أن يتجاوز الكلب وظيفته كحارس حدود، إلى التَّعاطي مع الشِّئون الدَّاخليَّة للقطيع.

قال الشَّيخ أبيض الهِلِّي:

- نحن فَلَّاحون؛ أعني أنَّنا نعرف المثل القائل: سكتنا له دخل بحماره؛ هذا يا إخواننا نفس ما حصل للقطيع؛ سكتت الخرفان فتجاوزت الكِلبان، وتجاوزت ما يَخصَّها إلى ما لا يَخصّها. ما لكلاب الحراسة، المُعيَّنة لحراسة القطيع من هجمات الذِّئاب، بمشاكل الخراف بينها وبعضها؟

نقول الكلام لناس تفهم، وغَنِّي يا ربابة..

الطَّفاسة طبع اللئيم
ما يشبع يَومًا بِوَكلُه.
يعدو على حق اليتيم
ما يِهمُّه طبعه ولا شكله.
كلب ملعون وغشيم
في المرعى كِثُرِت مشاكله.

هذا قبل أن يرخى الشَّيخ أبيض الهِلّي عزف الرَّبابة، ويكسر صوته بما يعني أنَّه يتَأهَّب لإنهاء السَّهرة.

زعق خفاجة معترضًا:

- سقت عليك سيدنا مُحمَّد لا تختم؛ السَّهرة بدأت تحلو.

لكنَّ أبيض لم يبال، فلو أنَّه فعل لما انقطع عن الغناء ليال، ومزاج النَّاس بالاستماع إليه عال، مع ذلك كان قد عِيل، وجهده اغتيل، فأنشد يُنهي الليل.

وكما بدأنا بحمد الله
نختم بحمده بارينا.
وبالصَّلا عَ الزِّين المُكمَّل
أبو سيرة عَطِرة نبينا.
رسول حَقْ ما يقبل الضِّيم
مَن يِعادِيه كَنُّه عادِينا.
ليلة أولى خِلصِت بفضله
وتاني ليلة نرجع نادينا.
نقول لناس لِهَا عقول تفهم
حِكَم مبدوره فْ حكاوينا.

تي را را تي را تي را را تي ... تيرا را تي را تي را را را.

الليلة الثَّانية

إذا فسد السُّلطان شَحَّت الأموال، واستفحل الغلاء.

وقد فسد السُّلطان، فشَحَّت الأموال، واستفحل الغلاء، حتَّى أنَّ المِشْ البلاشيء صار يُبَاع ويُشتَرى بأفحش الأثمان. لم لا؟ وجباة الضَّرائب والمكوس أُطلِقوا في المدن، والقرى، والكفور، والنُّجوع، كالكلاب المسعورة؛ يجمعون النَّاس، ويحصون ما بأيديهم، وما ليس بأيديهم، ثُمَّ يفرضون ما يَعزّ عليهم جمعه من أموال، ويحصدونها حصد الجراد الأصفر للخُضرَة العامرة، فأصاب الشَّعبَ القهرُ، لأنَّهم يُنهَبون عيني عينك، ولا يستطيعون الصَّدّ.

بالقُوَّة الجَبريَّة سُلِبوا حَقّ إبداء التَّذمُّر أو الاعتراض، فاستسلموا للنَّهب الميري، لكنَّهم كانوا غاضبين، وبدلًا من أن يُوجِّهوا غضبهم نحو من استلبهم الحقوق، وَجَّهوا غضبهم إلى أنفسهم، فساءت أخلاقهم فيما بينهم؛ تَجبَّر بعضُهم على بعضِهم؛ طَفَّفوا موازينهم، واحتكروا بضائعهم، وقد قال الله في قرآنه الكريم: وَيلٌ للمُطفِّفين، الَّذين إذا اكتالوا على النَّاس يَستَوفون، وإذا كالُوهم أو وزنوهم يُخسِرون.

وإذا أنذر اللهُ العبادَ، فلم يرتدعوا، وقع عليهم ما أُنذِروه؛ وقع الويل على البلاد، فشَقَّق الأراضي، وسَجَّر البحور، ونَشَّف النَّهر، وجَفَّف التُّرع والمصارف، وتَسابَّ النَّاس وتشاتموا، وتصارعوا واقتتلوا؛ ثُمَّ فشا الهرج والمرج.

وهكذا، ولا حول ولا قُوَّة إلَّا بالله، بفساد السُّلطان فسدت الرَّعيَّة، وساءت البلدان.

وقد جاء الشَّيخ أبيض الهِلِّي إلى النَّجع، يسعى إليه كما في الليلة السَّابقة؛ جدع يَلفّ العمامة حتَّى جبينه، والجَلَّابية على جسمه محبوكة، واسعة الكُمَّين، يمتطي بغلًا أسود يلمع شعره لفرط شبعه؛ وكيف لا يشبع البغلُ وفي كُلّ ليلة يختلف إلى النُّجوع، فيُضيِّفه النَّاس بتبن بهائمهم الشَّحيح، كما يُضيِّفون صاحبه المُغنِّي بأكلهم وشربهم، مهما جاعوا بعد ذلك، أو عطشوا.

ينضح وجه أبيض بحمرة الشَّبع، فيخالها المستمعون حمرة وجه السُّلطان نفسه؛ غير أنَّ السُّلطان يُفنِي، وأبيض يُغنِّي.

يُجيد أبيض الهِلِّي المَغنَى، وإنطاق الرَّبابة؛ كلام الرَّبابة حزين، وغناها حزين؛ سيُغنِّي تكملة قِصَّة الخروف الَّذي عَضَّه الكلب، والخرفان الَّتي قهرتها الكِلبان؛ قلنا الموضوع واعر، وعلى الوجع انطبق، كأنَّه طبقٌ انكفأ على طبق، فتَهلَّل له الغلابة المستمعون، وصاحوا يزعقون:

- قل يا شيخ أبيض، قل.

وصاح خفاجة بحمية المسطولين:

- قل يا واكل ناسك.

هَزَّ أبيض الرَّبابة، ولَحَم بها القوس، أجرى الوتر القاسي على الأوتار المشدودة، فصدحت بالنَّغم الحَارّ، مَزِّيكا بلاد قِبلي؛ وأنشد يقول بصوت مشروخ:

وأوَّل القـول نِبـديـه
بـحمـد رَبِّ الـبَريَّـة.
والحُبّ والشَّوق نِبديه
لـمُحمَّد قـائد الـسَّريَّة.
أُصـلّي وأُسلـّم عـليه
سِـيدِ العُجْم والعَرابيَّة.

تَهلَّل المستمعون، وتصايحوا:

- اللهم صَلِّ وسَلِّم عليه.

- حبيبي يا رسول الله، يا من شكا الجمل إليه هَمَّه.

- يا طه يا جَدّ الحسين، مدد يا آل البيت مدد.

تنشط الرَّبابة، وينشط صوت أبيض، فيركض النَّغم إلى الأسماع بَهيًّا مشرقًا، تتراقص له القلوب، وتفرح به الأرواح؛ والمَغنَى يقول:

والقول نقوله لناس تفهم
زيـنـه وعـايقـه تِبـاهَى.
ولـو جـرعوا كوس الـهَمّ
رجـال رامـيه بـلاها.

خُد مِنِّي واسمع يا إنسان
قِصّة خروفٍ مليحٍ.
لم يِرضَ بالظُّلم يِنعان
وإن كان يصبح دبيحٍ.
خُد مِنِّي واسمع يا وَد عَمِّي
كلامي مافِيهْشي قبيحٍ.

قِصّة خروف واعي ومعقول
في المراعى اسمه تعسير.
هانعيد ونزيد فيهِ القول
مِقدامٍ ما يخشى التَّعاسير.
خروف راسي وله عزم
كاسر من جملة الاكاسير.

ودارت الرُّؤوس مع دوائر النَّغم الحُرّ، كما دارت الصِّينيَّة عليها أكواب الشَّاي المُرّ، والجوزة تَتنقَّل بين الأيادي المعروقة والأكفّ الخشنة، بصعوبة تَمرّ.

وكان أن قام المُعظَّم تغبير، في طليعة رَعويَّته المباركة، باستدعاء زمجور، الَّذي حضر راكضًا، مستعرضًا ذُلّه وتَزلّفه، مثلما كان يفعل أيَّام الحَاجّ يونس بالضَّبط، مع ذلك فإنَّ

حصفاءنا من أهل الفراسة والنَّباهة، المُطَّلعين على الجواهر لا المناظر، رأوا تلك اللمعة الَّتي إذا ومضت في عين صاحبها عُرِف أنَّ قلبه مخادع.

وقد رأى هؤلاء الحصفاء لمعة موازية في عين المُعظَّم تغبير.

لمعة الزَّهو.

فها هو، بين عَشيَّة وضحاها، قد أعلى الله شأنه، ليصير سَيِّد الكلب، آمره وناهيه. وسبحان مغير الأحوال، المُعزّ المُذلّ؛ من كان خاضعًا صار، بين غمضة عين وانتباهتها، مُخضِعًا!

هكذا لم يَسَع كُلّ خروف، بينما يرى هذا المشهد، إلَّا أن تعلو تكبيراته في سماء المرعى. فمذ متى لا يفرح المظلوم بنصر الله إذا أمكنه من ظالمه؟

ولم نشُكّ في أنَّ المُعظَّم تغبير سيستدعى زمجور لمحاسبته على ما اقترفت مخالبه، وأنيابه، من تجاوزات في حَقّ الخراف، ومن ثَمَّ توبيخه وإقالته، وطرده مع ما جلبه من شتات الكلاب شَرّ طردة.

لكن شيئًا من تَوقُّعاتنا لم يحدث.

بل إنَّ تَوَقُّعاتنا خابت، عندما رأينا المُعظَّم تغبير يبتسم لزمجور ابتسامة تقدير. قبل أن يُكلِّفه، وجميع رفاقه الكلاب، رَسميًّا، بمواصلة أداء جميع المَهامّ الَّتي كان يُؤدِّيها في ظِلّ وجود الرَّاعي الرَّاحل، الأصليَّة منها والمبتدعة، حراسة الحدود والتَّنظيم الدَّاخليّ.

لماذا لم يحسم المُعظَّم تغبير أمره، فيطرد الكلاب، كما وعد في خطابه الأوَّل بعد توليته الرَّعويَّة؟ لماذا لم يُعجِّل بإصدار هذا القرار البَاتّ ليواكب ثَوريَّة اللحظة؟

ليست هناك إجابة واحدة لهذا السُّؤال العصيب يمكن الوثوق في صِحَّتها؛ فحسنو الظَّن من عَوامّ الخراف يجيبون:

- لأنَّ المُعظَّم تغبير طلع أو نزل خروف؛ وهل الخروف إلَّا مخلوق متسامح بطبعه، لا يجيد التَّعامل مع ثورة حتَّى لو هاجت كوامنه بها.

أمَّا حصفاء الخراف فتبادلوا بينهم، وبشكل سِرِّي للغاية، تفسيرات ليست مريحة، أساسها أنَّ المُعظَّم تغبير اغتَرّ، فأعجبه التَّعامل مِن فوق مع مَن كان يعامله مِن فوق.

أو: ربما لن يشعر المُعظَّم الخروف تغبير بأنَّه قد صار شيئًا ذا بال، لو لم يتعامل مع كلب ظَلَّ يُمثِّل له، حتَّى وقت قريب، كُلَّ شيء ذي بال.

أمَّا جماهير قطيع الخراف فقد استَقرّ رأيها، كالعادة، على أنَّ بحر المُسايسات واسع، وأنَّ عموم الخرفان ليست مُطَّلعة على ما يَطَّلع عليه الرَّاعي. كما ولا خروف واحد يمكنه إنكار أنَّ المُعظَّم تغبير، رغم كُلّ شيء، قد صنع مجدًا عظيمًا للنَّسل الخِرفانيّ، مذ ظهوره إلى الوجود، وإلى أن يشاء الله زوال الوجود.

على أيّ حال كان عصرٌ جديدٌ قد بدأ، ذو طبيعة زِلزاليَّة أطاحت بتلال من ركام زيف أناخت على أفهامنا لأزمنة طويلة.

وقد انقضت أيَّام، وأسابيع، وأشهر، منذ بداية هذا العصر، على أعجب وأغرب ما يمكن للزَّمن أن يمليه من وقائع وأحداث، لنرى حقائقَ أشياءٍ عاشت بيننا دهورًا على غير ذات الحقائق. وليدرك الكثير من الخراف أنَّ أنبل الحقائق لم تكن على حقيقتها سوى أخسّ الأوهام.

ومذ قَرَّر الحَاجّ يونس ترقية الخروف تغبير إلى الرَّعويَّة والكلب زمجور يعاني في كُلّ وقت، معاناة من طُعِن بخنجر فنفذ بين الضُّلوع، لكنَّ سِنَّ النَّصل لم يمرق بعد إلى حشاش القلب. يتَألَّم هذا المطعون ألمًا شنيعًا مع أقلّ حركة منه، يتَعذَّب ولا يموت.

أيعتليه خروفٌ؟ أتعتلي الخرافُ الكلابَ!

وكثيرًا ما رأى زمجور كلابًا تموت بالسُّمّ، وشعر بفظاعة ما يجري لها في أثناء موتها، وكيف تنعر وهي تفتح أفواهها، فيما تنقبض أجسادها انقباضات قاسية، كأنَّها لا تريد استفراغ السُّمّ بقدر ما تريد استفراغ أحشائها؛ بيد أنَّ الموت سُمًّا أهون على الكلب الحُرّ من أن يعتليه خروف.

ويُفكّر زمجور؛ ويُحدِّث نفسه في معظم الأوقات بمثل هذا الحديث التَّالي:

نحن الكلاب حُرَّاس القطعان وسادتها. لم نبلغ هذه المنزلة

الحُرَّاس والسَّادة.

وقد عاشرنا الخرافَ آمادًا طويلة، فرأينا جميع أخلاقها مُستحقَرة؛ وأحقر أخلاقها هو عدم اعتدادها بأنفسها باعتبارها خرافًا؛ حتَّى أنَّ أحدها إذا رأى ملامح وجهه، على صفحة النَّهر، تستحيل إلى ملامح وجه كلب أصابته فرحة عارمة.

فإذا كان مُجرَّد انحراف ملامح وجه الخروف إلى شبه ملامح وجه الكلب قد عصف به فرحًا، فكيف به لو تَحوَّل كُلّه إلى كلب؟ هكذا يمكن إدراك إلى أيّ مدى يحتقر الخروف جنسه، ويَودّ لو لم يكنه.

لكن، بالمقابل، ماذا لو أنَّ كلبًا ذهب ليلعق من ماء النَّهر، فرأى ملامح وجهه تنحرف شبهًا إلى ملامح وجه خروف؟ لا يمكن تَصوُّر رَدَّ فعله. سيرفض تصديق ما يراه رفضًا قاطعًا، وسيعتقد أنَّه ضَحيَّة غفوة رديئة، أو عرضة لكابوس مقيت بشع؛ فأيّ مقت، وأيّ بشاعة، لو أنَّ وجه أحدنا انقلب إلى سحنة وجه خروف؟

إنَّ الكلاب حُرَّاس القطعان وسادتها لاعتدادها الرَّاسخ بذواتها، وفخرها الكاسح بجنسها؛ فحتَّى الجرو من جرائنا يُنشَّأ على الإيمان بأنَّ الكلب سَيِّد، وأنَّ أيّ سَيِّد حتمًا يكون كلبًا.

والكلب ينظر لمكانه، فيدرك أنَّه أساس القطيع وسَيِّده؛ فمهما زعم الحارس البَشريّ أنَّه أساس القطيع وسَيِّده يَظلّ زعمه ادِّعاء لا غير.

فمن السَّيِّد لو لم يكن هو القادر على إخافة الذِّئاب، ومطاردتها إن جرؤت على التَّفكير في إلحاق الأذى بالقطيع؟ هل يستطيع الرَّاعي البَشريّ مواجهة ذئب؟ مستحيل.

فكم من ضراط سمعته الكلاب، وفساء شَمَّته، لرعاة بَشريِّين، نفثته مُؤخِّراتهم في أثناء مسارعتهم بالهرب والاختباء حين ظهور ذئب؟ ضراط وفساء كثير.

على هذا يبقى الكلب، من بين جميع عناصر القطيع، الَّذي يفعلها بجرأة، وشجاعة، ونبل.

وقد أطلقت مجموعة خبيثة من الخراف شائعات عديدة مغرضة، تهدف بإطلاقها إلى النَّيل من كرم مُحتدّ الكلاب وعراقة أصلها، والحَطّ من قدرها، وتشويه فرادتها، في محاولة دنيئة ومحمومة لإعلاء الجنس الخِرفانيّ على الجنس الكِلابيّ، واعتباره الأسمى والأثمن في القطيع، ومن ثَمَّ إسقاط الرَّاعي البَشريّ في جُبِّ خديعة ماكرة، تدفع به إلى اتخاذ قرار خاطئ تمامًا، كأن يأمر في لحظات احتضاره بتولية خروف حقير مَهامّ الرَّعويَّة، ما يُؤدِّي به إلى أن يضع الكلب تحت إمرة خروف!

إمرة خروف.

إذ شَتَّان الفارق بين البشر والخراف.

البشر جنس سَاميٌّ عظيم؛ إن لم يكن قادرًا على هزيمة الذِّئاب بالمواجهة المباشرة فإنَّه، لأكثر من مَرَّة، تَمكَّن من نصب الفخاخ لها، واصطيادها، وقتلها بدم بارد.

والحَقُّ، الَّذي لا يمكن إغفاله، هو أنَّ البشر يفوقون الكلاب شراسة وقُوَّة. فحتَّى إن لم تكن أنيابهم في قُوَّة أنياب أصغر جرو، ولا قواطعهم في حِدَّة قواطعه. وإن لم تكن لهم مخالب فَتَّاكة كمخالبه، فإنَّهم كانوا قادرين دومًا على التهام اللحوم والنَّباتات! والتهام اللحوم مع النباتات بنفس الشَّراهة عمل مُعجِز لا تستطيعه الكلاب، ولا تستطيعه الذِّئاب، ولا تستطيعه الخراف الحقيرة قطعًا، فقط البشر هم من يستطيعونه.

نعم؛ تَمكَّنت الكلاب لطول ما عاشرت البشر من قضم الخبز، ومضغه، وهضمه. مع ذلك فإنَّها تعتقد أنَّ الخبز ليس من النَّباتات، لأنَّها لا ترى أشجارًا تثمره، فتُرجِّح أن يكون الخبز طعامًا مُكَوَّنًا من اللحوم والدِّماء. على ذلك، أين إذن هذه القدرة البَشريَّة الخَلَّاقة من وهن الخراف؟ الَّتي لا يمكنها غير التهام الحشائش والشُّجيرات، فيما تسقط بسهولة بين فكاك الذِّئاب وأسنان البشر؟

إنَّها غَبيَّة درجة عدم تصديقها أنَّ الرُّعاة البشر لا يَربُّونها اكتفاء بحلب ألبانها، وجَزّ أصوافها، وإنَّما يذبحونها أيضًا، وينزعون لحومها عن عظامها، ويسلقونها في ماء يغلي داخل قدور تَتَّقد النِّيران حولها، أو يشوونها على جمر الفحم.

وهكذا يظهر الفارق الشَّاسع بين سمو الرَّاعي البَشريّ وحِطَّة الرَّاعي الخِرفانيّ، فارقًا شاسعًا يجعلنا ككلاب حراسة وتنظيم، ومهما وافقنا على العمل تحت إمرة بَشريّ، فإنَّنا نرفض رفضًا قاطعًا العمل تحت إمرة خروف.

وبعد أن تَمكَّن الغَبيُّ، ابن الغَبيَّة، الخروف تغبير، من التَّعرُّض لذئب عجوز، فاقدٍ فَكَّه، مقصوفة مخالبه، والتَّغلُّب عليه بمناطحة خاطفة، أشاعت الخراف أنَّ الكلاب كائنات زائدة عن حاجة القطعان، لأنَّها تحرس خرافًا قادرة على حراسة نفسها.

وهي شائعة إن دَلَّت على شيء فعلى بلادة وغباوة الخراف المعتادتَين، الَّتي اغترَّت بمواجهة وحيدة، مع ذئب يفتقد لإمكانيَّاته القِتاليَّة. ولو أنَّ تغبير واجه ذئبًا فَتيًّا لربما أمسى، هذا المتعجرف، خراء ذئب مبعثر في الصَّحراء، يَبَّسته الشَّمس.

فما كان بمقدور تغبير أن يفعل، إزاء مواجهة ذئب شَاب، أكثر من نطحتين ينطح بهما الهواء، أو ثلاثة؟ وريثما يكتشف إصرار الذِّئب على التهامه فسرعان ما كان سيُولِّي دبره، ليتَلقَّى قفزة مريعة، تنشب خلالها المخالب القاسية أطرافها المُدبَّبة في لحم ظهره، قبل إسقاطه على جنبه، وبقر بطنه بضربة مخلب

قاطعة، تظهر على إثرها أحشاؤه الطَّازجة الدَّافئة، يتصاعد بخرها، والقلب منها يرقص على دَقَّات دفقات دمه الهلوع، يقطف الذِّئب هذا القلب بأنيابه، تحت بصر تغبير الضَّريع.

لكن هل سُمِع قديمًا، أو حديثًا، أنَّ ذئبًا التهم كلبًا؟

إن كان حدث فنادرًا جِدًّا، أَمَّا الغالب الأَعمّ فهو انتصار الكلاب على الذِّئاب في جميع المواجهات.

فإذا كانت الكلاب تُذلّ الذِّئاب، مُذِلَّة الخراف، فكيف لعقل راشد تَصوُّر أنَّ بمكنة كلب العمل تحت إمرة خروف؟

كما أنَّ الكلاب ليست زائدة عن حاجة القطعان، إذا كانت أَهمّ حاجات القطيع هي تجميعه حين تَفرُّق أفراده، والمحافظة على وحدته، وتأمينه من الأخطار، وتمهيد السُّبل المُؤدِّية به إلى المراعي الأرغد، وتنظيم أولَوِيَّاته، والنَّظر في مُتطلّباته.

وإن كان الحَاجّ يونس قام بجميع هذا العمل، على أكمل وجه، فهو لم يقم به وحده، وإنَّما بمساعدة كلب.

ولأنَّنا وُهِبنا نعمة العقل لم يساعد كلبٌ راعيًا بَشريًّا مَجَّانًا، لوجه الله، وإنَّما كان يتَعلَّم منه مَهامّ وأساليب الرَّعويَّة بشكل غير ملحوظ، دون أن يُلفِت الانتباه إليه، تَحسُّبًا لظرف يجد الكلب فيه نفسه إزاء قطيع بدون راعٍ.

في تلك الحالة من يحلب الألبان؟ من يَجزّ الأصواف؟ كيف نأكل من لحم الخراف وجبتنا الرَّئيسة؟ إذن لا مفر للقطيع من وجود راع خبير، يجيد التَّعامل مع مختلف أنواع الاحتياجات: احتياجات القطيع، واحتياجات الرَّاعي، الَّتي هي الاحتياجات الأَهمّ.

وكُنَّا ندرك أنَّ هذا القطيع، بعد رحيل الحَاجّ يونس، لن يجد من يُشفق عليه، ويكون بمثابة معنى حياته، سوانا، فنحن حُرَّاسه قبل كُلّ شيء، والخبراء باحتياجاته بعد كُلّ شيء.

وكثيرًا ما تساءلت الكلاب، فيما بينها، عَمَّا إن كانت الخراف اهتَمَّت يومًا بغير المرعى والحظيرة، أو انشغلت بغير الأكل والنَّوم، أو طمحت إلى أمور كبرى كالرَّعوية.

وكانت الإجابة دائمًا: لم يحدث.

من يهتَمّ بالرَّعويَّة لا بُدَّ له من أن يهتمّ بالمسايسة؛ فيما الخراف تمقتها، وتعشقها الكلاب. لذلك، عندما تَولَّى تغبير الرَّعويَّة، في غفلة من الزَّمن، فوجئنا بأنَّ الخراف انتشت أيَّما نشوة! حتَّى أنَّها انصرفت عن شَمِّ الأرض، وقضم العشب، إلى تبادل المأمآت المُهنِّئة الصَّاخبة! وشاركت الكباشُ النِّعاجَ في أداء رقصات مثيرة، خليعة، أَدَّت إلى حصول موجة تلاقح كبيرة، بدت وكأنَّها حفلة جنس خَرفانيّ جَماعيّ...

حفلة جنس جَماعيّ!

بمناسبة ذِكر الجنس الجَماعيّ؛ إنَّ هذه الخراف القذرة تغتال شرفنا، عندما تشيع أنَّ الكلاب ليس عندها نخوة ولا مروءة. بزعم أنَّ ذكورنا تأتي إناثنا جهرًا دون ستر. وأنَّ الكلب مِنَّا يمارس الجنس مع الكلبة في حضور مجموعة من ذكور الكلاب. وأنَّ إناث الكلاب عواهر فواجر، تَظلّ الواحدة منها، في أثناء الممارسة، تطلق النَّبحات المُتأوِّهة، المثيرة، في زمرة الذُّكور المحيطة بهما. بل إنَّ الكلبة تزيد الفجر عهرًا، فتقبض برحمها على قضيب الكلب داخلها، فلا تتركه قبل أن تتَكيَّف جِنسيًّا، لأقصى درجات التَّكيُّف؛ وهكذا تَظلّ الكلبة مفضوحة علنًا لما يزيد على ربع السَّاعة، بأقَلّ تقدير للوقت، تَجرّ عاشقها خلفها في زَفَّة كلاب مستثارة بالشَّبق.

هذا غير اتِّهام الخراف لإناثنا بالخيانات المُتعدِّدة، بدعوى أنَّها تفتقد ذكورها، المشغولة دائمًا بمَهامّ الحراسة. وتتَهكَّم الخراف بأنْ حتَّى إذا حضرتها ذكورها فإنَّها ذكور تفتقد الرِّقة؛ إذ كيف لكلاب حراسة، قاسية وعنيفة بالفطرة، أن تكون رقيقة بينما تُحبّ!

ولن تنسى الخراف، كما لن ننسى، قِصَّة انحراف الكلبة شَطُورة؛ لأنَّها القِصَّة الَّتي بقدر ما نعتبرها وصمة عار في جبين جنس الكلاب كُلّه تعتبرها الخراف الغُرّة المضيئة في جبينها بأقوى مِمَّا تضيء الشَّمس. لم لا؟ وهي القِصَّة الَّتي لا تفتأ تَحتجّ بها دليلًا على صِحَّة نظرتها لذكور الكلاب غير المستوفية لطموحات إناثها عَاطفيًّا.

كلبة اسمها شَطُورة، وكانت أجمل كلبة، عيناها دعجاوان، وأنفها بَرّاق مُبلَّل دائمًا بندى الإثارة، لونه رَماديّ، وآه من أنف أنثى الكلب إن كانت رَماديَّة، تُفجِّر الحُبَّ في قلب كُلّ ذكر يراها، وتُفجِّر الرَّغبة في جسده؛ وكان لها أذنان سبحان من صَوَّر، ليستا منتصبتين بالكامل، بل منطويتَي الطَّرفين، ما أضفى على وجه شَطُورة من المياسة والدَّلال الشَّيء الكثير؛ وشعرها غزير، ينساب على معظم أعضاء جسدها كالحرير، بيد أنَّ انسيابه حول ذيلها كان آية مبهرة من آيات الحسن، ما إن تُرقِّص ذيلها، ذي الشَّعر الهفهاف، حتَّى تتساقط قلوب معظم ذكور الكلاب في جبوب الهوى عميقة الأغوار، وتصطرع أرواحها هيامًا؛ ولخطو شَطُورة سحر يصيب الكلب العاقل الرَّزين بالصَّبابة والوله! والحَقّ، إنَّها كانت كلبة كاملة الأوصاف، ما حدا بالكلب الرَّئيس لمجموعة كلاب تحرس أحد القطعان الكبيرة أن يستفرد بها، وكان المنتظر أن تسعد شَطُورة بهذا الكلب مَرَّتين، مَرَّة: لمكانه السَّامي كرئيس حُرَّاس، قد يُمكِّنها لرفعة وضعه، من الالتحاق بخدمة الحراسة في القطيع؛ ومَرَّة: لذكورته، الَّتي ستُوفِّيها حَقَّ عاطفتها المشبوبة باعتبارها كلبة مثيرة، فهو الكلب الفحل، الَّذي لم يترك كلبة في أنحاء جميع المراعي إلَّا واتَّصل بها؛ لكنَّها، ولتعاستها، رفضت استفراد الرَّئيس بها، لأسباب لم تُعلَن وقتها، وطافت تبحث عن بعض ما تفتقده بين الكلاب العَاديَّة، كُلّ ليلة تبرم مع أحدها، وكُلّ ليلة جرسة وفضيحة. لكن، ومع طوافها على جميع ذكور الكلاب، ظَلَّت لا تجد ما تبحث عنه.

فما كان من السّافلة إلّا أن تواصلت مع خروف تواصلًا حَميميًّا !

لقد كانت العاهرة، إذا اقتربت من القطيع، تراقب الكباش، ففُتِنت، حسب ما قالت بعد ذلك وهي تُعيِّرنا، بطريقة الكبش في ممارسة الحُبّ مع شاته، أو نعجته.

شَطُّورة المومس قالت إنَّه شَتَّان الفارق بين كلب يتَذلَّل لأنثاه كي يقضي وطره، وخروف يتَودَّد لأنثاه من أجل نفس الغرض؛ شَتَّان الفارق بين نباح مزعج يطالب بإنهاء الأمر على عجل، وبين حمحمة ممتعة تُسوِّي الرَّغبة على نار هادئة.

وقالت شَطُّورة المُنحطَّة إنَّ الكلب، عند طلبه لممارسة الحُبّ، يُقدِّم الشَّمشمة في مؤخرة كلبته، لكن الخروف، «الله على الخروف»، يُقدِّم المأمأة الرَّقيقة في أذنَي نعجته.

ونبحت في وجوهنا وهي تقول:

- إنَّ رِقَّة الخروف هي ما أفتقده فيكم.

وقد منحها الخروف ما افتقدته.

الحب مقياسه نتاية
تعشق بأنفاس مبهورة.
فضيحة مكتوبة فحكاية
صيتها ذائع ومشهورة.
كلبة نامت لخروف
عاشقة واسمها شطورة.

وكان الأشَدّ إذلالًا لنا هو أنَّنا لم نستطع محاسبة شَطُورة على ما ارتكبته من جريمة مُخلّة بشرف جميع الكلاب، فهي كأنثى أشرس من أيِّ ذكر؛ إذ وُهِبت قدرات قِتاليَّة أعلى، لتَتمكَّن من الدِّفاع عن نفسها ضِدّ الذُّكور الَّتي قد يسعى أحدها لإقامة علاقة جَسديَّة معها في غير الأوقات المناسبة؛ وأيضًا لتتَمكَّن من الدِّفاع عن جرائها، إذا وَلِدت، ضِدّ هجوم عَدائيّ قد يتَسبَّب في وقوع ضرر لوِلدانها.

لم يكن بمقدورنا غير التَّغاضي عن فعلتها، والاكتفاء بأنَّها رحلت طواعية.

كان الأشَدّ إذلالًا لنا هو أنَّ، في الوقت الَّذي لم نستطع مساءلة كلبتنا، استطاعت الخراف مساءلة كبشها، وأدانته، كونه واقَع كلبة، ما اعتُبِر إهانة بالغة لإناثها، وانهالت عليه نطحًا ورفسًا.

رغم ذلك فإنَّنا تعَلَّمنا من الواقعة المشينة شيئًا مُهمًّا، هو: أن نتفهَّم رفض الرُّعاة البشر لضَمّ إناث الكلاب إلى فرق حراسة القطعان. وكُنَّا نستنكر استبعادها، ونعتبره أمرًا تَعسُّفيًّا يُضرّ بحالتنا النَّفسيَّة، والإضرار بحالتنا النَّفسيَّة سيُؤدِّي بالضَّرورة إلى الإضرار بكفاءة الحراسة. لكنَّنا فهمنا؛ فإبعاد الإناث عنَّا، مهما كان مؤذيًا لحالتنا النَّفسيَّة، لن يكون أشَدّ إيذاءً لحالتنا النَّفسيَّة من تفضيلها وصال الكباش على وصالنا.

أمَّا الخراف، فإنَّها عزت رفض الرُّعاة البشر ضَمّ إناث الكلاب إلى القطعان لأسباب أخرى، منها، وهو على الحقيقة سبب

معقول: إنَّ أنثى الكلب لا تصلح للحراسة كذكر الكلب، لأنَّها لا تولي الحراسة نفس الاهتمام الَّذي توليه لأمور أخرى، كالحُبّ، والأمومة؛ خصوصًا الأمومة، فهي لا تمانع في أن يأكل الذِّئب جميع خراف القطيع، إذا كان لا بُدّ لها من تصريف كامل انتباهها لحماية جرائها. هذا غير أنَّ أمومتها تطغى عليها فتتعامل مع ما حولها، في كثير من الأحيان، بعنف الأم الخائفة على صغارها، وإن لم تكن قد ولدت أيّ جراء بعد. وهو الدَّافع نفسه الَّذي يجعلها تهاجم خراف القطيع، مصدر رزق الرَّاعي، بشراسة، معتبرة إيَّاها خطرًا جسيمًا يهَدِّد ولدانها.

كما عزت الخراف رفض الرُّعاة البشر ضَمّ إناث الكلاب إلى القطعان لسبب آخر، ساذج ومضحك، لا يمكن لمخلوق التَّفكير فيه باعتباره سببًا، لو لم يكن خروفًا يُفكِّر بالعاطفة أكثر مِمَّا يُفكِّر بالمنطق، لكن هكذا فَكَّرت: إنَّ إناث الرُّعاة البشر لا تطيق إناث الكلاب، لأنَّها تغار منها! فقد انتشر بين القطعان أنَّ بعض الرُّعاة البشريِّين المراهقين أقاموا علاقات عَاطفيَّة ناجحة مع كلبات! كان المراهق في أثنائها يضع مكانه من أنثى الكلب كذكر كلب مكتمل!

لكن الخراف لم تذكر السَّبب الخبيث الَّذي يجعل أنثى الرَّاعي البشريّ تُرحِّب ببقاء ذكر الكلب، بل وتحرص على أن تُقدِّم له أشهى الأطعمة والأشربة بنفسها، تعامله بِرقَّة لا تَبذُلها الإناث إلَّا لحبيب.

وكشفت الخراف، هذه الكائنات الفُضوليَّة الَّتي تهوى مراقبة الآخرين، عن أنَّ سعدى، زوجة الحَاجّ يونس، كانت تكره إناث

الخراف أيضًا، تتعامل معها بعنف غير مُبرَّر، تَسبّها وتشتمها بينما تخدمها، لكنَّها، وعلى العكس تمامًا من ذلك، فيما تخدم الكباش فإنَّها تتعامل معها ببشاشة ونشاط. كانت شغوفة بها حتَّى ليحلو لها مساعدتها على مواقعة الشِّياه والنِّعاج، فتمسك بيدها قضبانها الرَّفيعة كالحَيَّات، وتُوجِّهها إلى أهدافها المنشودة بانتشاء.

واعتبرت الخراف أن طرد إناث الكلاب من القطعان هو دلالة أكيدة على امتهان الرَّاعي البَشريّ لجنس الكلاب، واحترامه لجنس الخراف؛ هكذا ادَّعت أنَّ الرَّاعي البَشريّ، لو كان يحترم الكلب، لما طرد أنثاه، وحرمه من صحبتها، في حين يحرص نفس الرَّاعي، كُلّ الحرص، على التَّقريب بين الخروف وأنثاه.

وفي الوقت الَّذي لو رأى الرَّاعي كلبًا يمارس الحُبّ مع كلبة فإنَّه ينهرهما، ويقذفهما بالحجارة، حتَّى ليكاد يقتلهما، فإنَّه يَحثّ الخروف على بذل أكبر قدر من المشاعر الحميمية لأنثاه، ويسعد أيَّما سعادة بمشهد ممارسة الحُبّ بينهما، ويَحضّهما بأريحيَّة على أدائه لأكثر من مَرَّة.

ثُمَّ تُصعِّد الخراف القذرة من قيمة شرفها، وتُدنِّي من قيمة شرفنا بشكل بالغ الحقارة؛ عندما تُلحِق الأمور الجِنسيَّة بالمشيئة الإلهية! فتقول إنَّ الله أراد السِّتر للخراف، فجعل لها لِيَّة عريضة، ثقيلة، تتَدلَّى لتستر عوراتها في كُلّ حين، وعلى أَيّ حال، خصوصًا الحال الجِنسيَّة، بينما أراد الله الفضيحة للكلاب، فجعل لها ذيولًا رفيعة، خفيفة، تلتَفّ إلى أعلى كأذناب العقارب، لتكشف

عوراتها في كُلّ حين، وعلى أيّ حال، خصوصًا الحال الجِنسيَّة.

وجميعها شائعات خِرفانيَّة حقيرة مردود عليها؛ وأشمل الكلام بخصوص الشَّائعة الَّتي تطعن في شرف الكلاب هو: الخراف مُعلِّمة العهر، لكنَّها، كأيّ عاهرة، فإنَّها تُلحِق بالكلاب دنسًا ملتصق بها طبعًا. فأين تَصرُّف ذكورنا إزاء علاقة جِنسيَّة غير شَرعيَّة بين كلب وكلبة من تَصرُّف ذكورهم إزاء علاقة جِنسيَّة غير شَرعيَّة بين خروف ونعجة؟ لا مجال للمقارنة، وإلَّا لما كُنَّا سمعنا الرُّعاة البَشريِّين، يتكلَّمون في أوقات سمرهم، إذا اجتمعوا بقطعانهم في مرعى واحد، يصفون رجال البشر المتغاضين عن زوجاتهم اللعوبات بأنَّهم: رجال لهم قرون.

فمن الَّذي له قرون على رأسه؟ الخرفان، أم الكلاب؟

إنَّ الخروف يرى خروفًا ينزو على نعجة، أو على شاة، فلا يصدر عنه أيّ رَدّ فعل! غير أنَّه ينحو بنظره بعيدًا، كأنَّه يقول لنفسه: السِّتر عليهما أولى؛ لكن ذكور الكلاب، هؤلاء الشُّرفاء، ما إن ترى أحدها اعتلى كلبة حتَّى تتركه إلى أن يتَعمَّق في خطيئته، وإلى أن تقبض الكلبة الفاجرة برحمها على ذكره، فتسارع الكلاب بالهجوم عليه هجومًا مؤلمًا، تَعضّه وتخمشه، وتَعضّ الكلبة وتخمشها، فيعلوا منهما نباح الوجع بديلًا عن نباح المتعة، ولا تتركه أو تتركها قبل إنهاكهما، وانفلاتهما هاربَين إلى أبعد مكان.

الكلاب سادةٌ أشرافٌ غيورة.

والخراف يُضرَب بها المثل في النَّطاعة والدَّياثة.

قطع أبيض الهِلّي عزف الرَّبابة، وحملق في المستمعين؛ بدوا في إضاءة المشاعل المتأرجحة أقرب للأشباح منهم إلى البشر، أجسادهم نحيفة، جلودهم معروقة، وجوههم نتأت عظام وجناتها، وعمائمهم تُرابيَّة على هدومهم المُغبَّرة، وأقدامهم سوداء مُشقَّقة، كأنَّها نُحِتت من حوافر الخراف.

قال الشَّيخ أبيض:

- ما أحلاه وأحكمه دعاء نبينا لرَبِّه؛ رفع وجهه إليه وطلب منه بخشوع وتَأدُّب: يا رَبّ أرني الحَقَّ حَقًّا، وارزقني اتِّباعه، وأرني الباطل باطلًا، وارزقني اجتنابه؛ سبحان الله. هل ممكن الواحد مِنَّا يرى الحَقَّ غير حَقٍّ، ويرى الباطل غير باطل؟ ممكن يا إخواننا والله، بل هناك الأنكأ من ذلك، أن يرى الواحد مِنَّا الحَقَّ باطلًا، ويرى الباطل حَقًّا! وهناك الأنكأ من الأنكأ. أن يرى الواحد مِنَّا الحَقَّ ولا يَتَّبعه، ويرى الباطل ويَتَّبعه. الله يا إخواننا لَمَّا يمكر بأهل الضَّلال يعمي قلوبهم، والكلب في قِصَّتنا من أهل الضلال، وهو يرى أنَّ..

وشَدّ القوس على الرَّبابة، وغَنَّى:

من مِيتا كان للخرفانِ حقوق
وفي المراعي سِيادهم الكلِبان.
يا كُلْ مَن لُه عين أبصِرِ الفروق
الكلب سُجاعٌ والخروفُ جبان.
مَليون خروف ما يِهزُّو شَعرَه فْ كلب
وكلب واحد يِشتِّت مَليون من القُطعان.

الخراف مخلوقات مُتنطّعة إلى أبعد ما يكون التَّنطُّع، لا تتَكلَّم عن أمر دُنيويّ إلَّا ولَبَّسته بالدِّين تلبيسًا، لا لشيء غير اعتقادها بأنَّها مخلوقات الله المختارة، المخصوصة على الدَّوام فداءً للرُّعاة البشر. بالتَّالي فهي الحيوانات الوحيدة المشمولة بالعناية الإلهِيَّة؛ ما يعني أنَّها المخلوقات الوحيدة الجديرة بالاحترام.

أي، إنَّها أفضل عند الله من الكلاب.

وكأنَّ الكلاب لم يَخصّها الله بذكر مُقدَّس!

كأنَّ الخراف لم تعرف، مع طول علاقتها بالبشر، أنَّ الكلاب ذُكِرت في آيات عديدة من كتب الرُّعاة البشريِّين المُقدَّسة، وفي مواطن العِزَّة والفخار منها؛ مواطن الحراسة والوصيد.

وقد بلغنا عن جدودنا وآبائنا الكلاب، أنَّهم سمعوا في بعض مجالس سمر هؤلاء الرُّعاة، أنَّ بَشريًّا حكيمًا جليلًا تَمنَّى لو يكون للبشر الصَّالحين بعضٌ من صفاتنا؛ وقال في هذا الشَّأن كلامًا خليقًا بألَّا ننساه، وأن نكتبه على مآقينا بماء الذَّهب، ونحفظه حفظًا يستحيل محوه، وتُنشَّأ عليه الجِراء.

قال ذلك الحكيم الجليل، من الرُّعاة البشر الأقدمين:

في الكلب عشر خصال محمودة، ينبغي أن تكون في كُلّ مؤمن.

- إنَّه لا يزال جائعًا حتَّى يُطعَم، وذلك من آداب الصَّالحين.
- لا يكون له موضع يُعرَف به، وذلك من علامة المُحبِّين.

- لا ينام من الليل إلَّا قليلًا، وذلك من صفات المحُسنِين.
- إذا مات لا يكون له ميراث، وذلك من أخلاق الزَّاهدين.
- إنَّه لا يترك صاحبه وإن جَوَّعه، أو طرده، وذلك من شيم المريدين.
- إنَّه يرضى من الدُّنيا بأدنى مكان، وذلك من إشارة ا لمتو ا ضعين .
- إنَّه إذا غُلِب على مكانه تركه، وانصرف إلى غيره، وذلك من علامة المتواضعين.
- إنَّه إذا ضُرِب، وطُرِد، ثُمَّ دُعِي، أجاب ولم يحقد، وذلك من أخلاق الخاشعين.
- إنَّه إذا حضر شيءٌ للأكل قعد ينظر من بعيد، وذلك من أخلاق المساكين.
- إذا رحل من مكانه لا يرحل معه شيء، ولا له شيء يلتفت إليه، وذلك من صفات المُجرَّدين.

فهل ذكر أحد هؤلاء البشر الحكماء، الأَجلَّاء، صفاتٍ طَيِّبةً للخراف، فحَضَّ البشر على التَّحلي بها؟

لم نسمع.

المهمّ. نرجع إلى الحديث عن المصيبة الجلل الَّتي حَلَّت

بالكلاب بسبب قرار الحَاجّ يونس، الصَّادر قبل احتضاره، بتولية الرَّعويَّة للخروف تغبير؛ وكيف كانت فرحة الخراف بذلك القرار فرحة طاغية، رغم أنَّها عاشت دهورًا وعصورًا ليس لها في شئون المسايسة. وكيف انفجرت فجأة بالكلام عن حقوق أهدرها الرُّعاة البشر لن يعيدها إليها سوى راعٍ منها! خروف يفهمها، يعرف أدَقّ دقائق مُتطلّباتها، وأَهمّها تغيير الوضع القائم، بمغادرة هذا المرعى الصَّحراويّ البعيد، والعودة إلى مرعاها القَرويّ القديم، حيث حقول البرسيم، والهواء الطَّلق البارد نهارًا، والحظيرة المحترمة ذات الجدران والسَّقف ليلًا.

كما أنَّ من أَهمّ رغباتها، المطلوب من الخروف تغبير تحقيقها، هي التَّخلُّص من الكلاب. أو على الأَقلّ تنحيتها عن العمل التَّنظيميّ داخل القطيع، والدَّفع بها إلى عملها الأصلي بوصفهم حُرَّاس حدود.

وأَمِلَت الخراف في أنَّ تغبير، الأهطل، سيفعل ذلك قطعًا؛ ألم يعتلِ صخرة الرَّعويَّة!

وأخذ زمجور يُفكِّر: إذا لم تكن للكلاب خصلة الدَّهاء، فما أحمقها إن نزلت تلعب في ميدان المسايسات. والخراف لا تُقرّ لنا بالدَّهاء، فتشيع أنَّنا مُجرَّد مخلوقات خبيثة ماكرة. ولأنَّها خراف، ما يعني أنَّ أميز خصالها البلادة، فإنَّها لا تستطيع التَّفرقة بين الدَّهاء، كصفة راقية يجب أن يتَحلَّى بها كُلّ ساع إلى مناصب الرَّعويَّة السَّنيَّة، وبين الخبث، الَّذي هو صفة من مجموعة

صفات رديئة لا بُدّ منها في تكوين العَامَّة والغوغاء، يتحايلون به على تصريف حياتهم المُنحطّة.

الدَّهاء مال الطَّموح، وطاقة الجموح، وأداة من ضاعت حقوقهم، يستخدموها لاستعادتها.

إذا كان للخروف غرض وطموح
ما ينفعوشي قلبه لو كان طايب.
سيبكي طول العمر وينوح
وتظل الخسارة حظه ونايب.
أنظر إلى الكلب وهو جموح
عقله حضر لكن قلبه غايب.
أقسم يمين عِزُّه ما يروح
وإن سوَّى الهوايل والمصايب.
دُلّني يا إبليس وبوح
كيف مكري يكون راجح وصايب.

تعَلّمت الكلاب من المُعظَّم زمجور، الّذي قُدِّر له أن يكون زعيمها الأوَّل، كيف تستخدم الدَّهاء لاستعادة حَقّها الطَّبيعيّ في خلافة الرَّاعي البَشريّ من مغتصبيه الخراف.

وكان أوَّل دهاء المُعظَّم زمجور هو إظهار الانصياع لآخر قرارات الحَاجّ يونس في أثناء احتضاره، وذلك على غير ما يُكنّه من رفض لها، وتَمرُّد عليها.

بل بالغ في إظهار الانصياع، حتَّى أنّه دار ولَفّ حول الخروف

تغبير أكثر من مَرّة، يَهزّ رأسه، مُرقِّصًا ذيله، مُدليًا لسانه خارج فمه لاهثًا، مُعبّرًا عن قبوله راعيًا جديدًا، والسَّمع له والطَّاعة.

هذا غير ما إن مات الحَاجّ يونس، وانهمكت الخراف في أفراحها بوَليّ عهدها الجديد، الّذي هو من جلدتها، يُفكّر أفكارها، ويمأمئ مأمآتها، حتّى سارع زمجور بدعوة عصابة الكلاب، الّتي كان قد جلبها للتّوّ، إلى المشاركة في الأفراح! فرقصت برقص الخراف، ونبحت بمأمآتها! وفي أثناء ذلك لم يتَدخَّل كلب واحد بأَيّ أمور تَنظيميّة دَاخليّة مزعجة، وتركت الخراف تفرح إلى أقصى مدى، بل وجلست معها تستمع إلى خروفها العبيط، وقد صَدَّق نفسه راعيًا، يخطب فيها قاطعًا الوعود الزّاهرة، وباسطًا الآمال الباهرة، منسطلًا بالهتافات المُتحمّسة، تطلقها جماهير الخراف، مقاطعة خطابه بين فينة وأخرى:

- يا تغبير، يا تغبير.. اخترناك لاجل التّغيير.
- يا تغبيرة يا تغبيرة.. امتى نرجع للحظيرة.
- ولا أوهام، ولا توهيم.. اشتقنا لأكل البرسيم.
- يا تغبير يا ابو قلب.. انطح أطرد أي كلب.

فقال من جملة تُرّهاته الّتي احتواها خطابه:

- سئتعلّمون حراسة أنفسكم، ولن نكون بحاجة لمن يحرسنا بعد اليوم.

اغترّ الخروف.

وتشيع الخراف، بين ما تشيعه، أنَّ الكلاب مخلوقات مُتزلّفة، منافقة، مُحبَّة لمسح الجوخ، ترضى بقطعة عظم، وتخيفها العصا.

وتَستدلّ على ذلك بالكَيفيَّة الَّتي كانت الكلابُ تلقى بها الرُّعاة البشر من تَودُّدات ساخنة، وترحيبات حميمة، تصل سخونتها وحَميميَّتها إلى حَدِّ لعق نعالهم؛ بينما تفقد جميع صفات الرِّقَّة واللطف، مُتحوِّلة إلى كائنات شرسة، عند تعاملها مع الخراف، فلا يكون لها هَمّ غير عَضّها، وخمشها، وزجرها، بأعلى طبقات النُّباح، لا تكاد تترك خروفًا، أو نعجة، أو حَمَلًا، إلَّا وضايقته بفظاظة، يتساوى في تَلقِّي الإهانات الخروف المنضبط بضوابط القطيع والخارج عنها، وكأنَّ عملها ليس إرساء النِّظام لخدمة الخراف، وإنَّما إرساء النِّظام لخدمة النِّظام.

والحقيقة الَّتي تتجاهلها الخراف هي أنَّ الكلاب لطالما أظهرت من الامتنان والتقدير للرَّاعي البشري ما يَستحقّه بالفعل؛ فكيف لا تُقدِّم كُلّ اللطف والظُّرف لمن يُقدِّم لها مُحبَّته في صورة طعام وشراب؟ أليس يطعمها من طعامه؟ ويَجهَد كي يسقيها الماء البارد في القعاب النَّظيفة؟

ثُمَّ، وهو الأَهمّ؛ أليست الكلاب مخلوقات راقية يليق بها تقديم الشُّكر، بل والمبالغة في تقديمه، لمن يُؤدّي لها خدمة؟ بعكس الخراف البليدة الَّتي مهما قَدَّم لها الرَّاعي من خدمات واهتمامات فإنَّها لا تأبه له، ولو بمنحه نظرة شكر خاطفة.

وما المشين في أن ترضى الكلاب من الرَّاعي بقطعة عظم؟ أليس هذا منتهى القناعة؟ ومنتهى التَّعبير عن الإخلاص في حُبِّ الرَّاعي لشخصه فقط؟ عندما تفنى فيه مهما قَلَّ عطاؤه.

وإذا كان قد لمس فيها الأنفة والشَّمم، فسَلَّمها مَهامّ الحراسة، كما لم يرفض تَوسُّعاتها الأمنيَّة المُؤثِّرة في شئون القطيع الدَّاخليَّة، مانحًا إيَّاها، بموافقته على ذلك، الشَّرف العظيم، فكيف لا تخضع لعصاه إذا رفعها يومًا تأديبًا وتقويمًا؟ أَوَ هل يتَقبَّل التَّأديب والتَّقويم، بنفس راضية، إلَّا كُلّ مخلوق كريم؟

ثُمَّ، هل يُعقَل ألَّا يخضع آكل لحم فقط لآكل لحم ونبات في ذات الوقت؟ فإذا خضعت فهي المحمدة المشكورة للكلاب، لا المذمومة، عندما لا يكون الخضوع ذُلًّا، بل إنزال الرَّاعي البَشريّ منزلته المُستحقَّة.

وإنزال المخلوقات منازلها عين العقل، ولُبّ رجاحته.

شوفو النَّفس تِلِف وتدور
تـقلـب الحـــق بـاطــل.
وتســاوي الحِزن بالسُّرور
والعــامل تَخــلّيه عاطل.
وآدي حـــال كُـلّ مغرور
مــا يِــعدِل إلَّا ويمــاطل.

هجعت الخراف بعد انتهاء احتفالها بتَولّي تغبير الرَّعويَّة، نامت نومًا عميقًا، بيد أنَّ زمجور، وبعض عصابته من كلاب

الحراسة، لم يهجع، وإنَّما لجأ بهم إلى كهف غائر في سفح الجبل البعيد، أقعوا فيه يواجه بعضها بعضًا، تَتألَّق عيونها ببريق النَّظرات المنتبهة، فيما يتألَّق القمر بنور باهر، في قلب سماء كأنَّها حقل أثمر نجومًا مضيئة.

القمر مكتمل؛ ليلة مناسبة لهجوم الذِّئاب.

فلتهجم الذِّئاب على القطيع، ولتأكله حتَّى آخر ساق حَمَل رضيع، ليَتسنَّى للخراف معرفة قدراتها القِتاليَّة الحَقيقيَّة، وأنَّ خروفها تغبير لم يكن غير كبش محظوظ، نطح نطحة حَظّ. والحَظّ إذا حابى تعجز بصدده التَّدابير المُحكَمة!

سأل زمجور رفاقه:

- هل يقبل أحدكم بالعمل في خدمة خروف؟

فنبح الكلب قعفور بحمية، وأجاب:

- نُسمِّم أنفسنا، ونموت أحسن.

فنبحت بَقيَّة الكلاب بحمية، وزمجرت تُؤيِّد الإجابة؛ وقد أُسعِد قلب زمجور بها أيَّما سعادة، فسأل ثانية:

- إذن ما العمل الآن؟ كيف يمكننا رفض الخدمة لدى الرَّاعي الخروف دون تمكينه من طردنا ونفينا إلى الصَّحراء المهلكة، فيكون أحسن مصائرنا الالتحاق بخدمة قطيع آخر، نمسي فيه أحدث حُرَّاسه، وأَقلّ كلابه شأنًا؟

- أن نكون أَقلّ الكلاب شأنًا في خدمة راعٍ بَشريّ، أفضل كثيرًا من أن نكون أعلى الكلاب شأنًا في خدمة خروف حقير.

أَمَّا الكلب «طغفور» فقد نبح بأعلى نباح، لافتًا الانتباه إلى نقطة مُهمَّة:

- وليت هذا الخروف يبقي علينا في خدمته! ألم تسمعوه وهو يعد خرافه، على المِدَّاري، بالتَّخلُّص من الكلاب قريبًا؟

أعجب المُعظَّم زمجور بحمية رفاقه، غير أنَّ طريقتهم في التَّعبير عن حميتهم لم تعجبه، مع ذلك التزم الهدوء اللائق بقائد حكيم، ورفع واحدة من قائمتيه الأمَاميَّتين ومسح وجهه، قبل أن يقول بنبرة خافتة، ساخرة:

- أطلقت الخراف علينا جميع الأوصاف الكاذبة، لكن لو كانت وصفتنا بالحماقة فلربما صدقت! هل أجيئ بكم، إلى هذا المكان البعيد، لنأتمر خفية، ثُمَّ لا يتَحدَّث أحدكم إِلَّا بجِدَّة ونباح عال! كأنَّه يقول للخراف استيقظي وانتبهي لتآمرنا عليكِ؟

ومع أنَّ الكلاب لو فَكَّرت للحظة لكانت أدركت أنَّها تجتمع في أبعد مكان من القطيع، بحيث أنَّها مهما تهارشت وتنابحت، بأعلى صوت، لما أمكن لأسمع خروف أن يلتقط أصواتها، لكنَّها لم تُفكِّر، فأصاب التَّقريـع هدفه سريعًا، لتتبادل فيما بينها النَّظرات اللائمة، تطأطئ رؤوسها وهي تنبح نبحات خافتة

معتذرة. ولسان حالها يقول:

- فعلًا؛ إذا كنَّا نأتمر خفية فعلينا التزام كُلّ سلوك يحافظ على السّريَّة.

قال زمجور، وقد اشتعلت عيناه بنظرة تَوهَّجت مكرًا:

- أتيت بكم إلى هنا لأقول لكم: إنَّ مستقبلنا مُهدَّد بشِدَّة؛ لقد كان الحَاجّ يونس يُؤمِّن لنا كفايتنا من اللبن، ومن لحم الخراف، فإذا افترضنا أنَّ تغبير سَيؤمِّن لنا اللبن، فهل سيُؤمِّن لنا لحم الخراف؟ لا أَظنّ، فما العمل ولحم الخراف هو وجبتنا الرَّئيسة؟

قطع الشَّيخ أبيض الهِلّي العزف، وصاح بنبرة استنكار:

- العمل أنَّ الكلاب ستمكر.

ثُمَّ واصل العزف.

صوت الرَّبابة يَصَّاعد إلى السَّماء، وهناك، في أغوار الحلك، يعتلج بنور البدر، فيُشكِّلان ضفائر من ضياء شَجيٍّ، أو من شجو مضيء؛ فيما العمائم تتمايل طربًا، والشِّيش تكركر، والدُّخان سحائب.

زعق خفاجة، بحرقة مظلوم ضَيَّعه مكر أولي البطش، قبل أن يسكره مَغنَى الرَّبابة، فقال:

- يلعن دين الكلاب على دينك يا شيخ أبيض؛ قل الكلام لناس تفهم، زينة وعايقة تِباهَى.

ضحك أبيض الهِلّي، وانطلق يُغنّي مشاطرًا خفاجة وجده المُتفجِّر:

والقول نقوله لناس تفهم
زيـنه وعـايقه تِبـاهَى.
ولـو جـرعوا كوس الهَمّ
رجـال راميـه بـلاها.
تُنـضُر سحـايب الـغَمّ
وتطلـب من الله جِلاها.

وكان أن استلقى تغبير في مكانه الجديد، الجدير به كراعي قطيع، داخل خيمة الرَّعويَّة المشرفة على ساحة المرعى، وقد راح في غفوة عميقة، بعد معاناة طويلة مع الأرق.

هكذا، في كُلّ ليالي اكتمال القمر تصاب الخراف بالأرق، قبل أن تُنهَك بالسَّهر، فتروح في نوم عميق.

ما الَّذي يصيب الخراف بالأرق، في ليالي اكتمال القمر، سوى أنَّها الليالي الَّتي تظهر فيها الذِّئاب بوفرة، فتتَعدَّد قتلاها؟

مع ذلك نامت خراف القطيع في تلك الليلة دون أرق، بعد أن أجهدتها احتفالات الفرحة الصَّاخبة بتولية المُعظَّم تغبير الرَّعويَّة؛ وبعد أن اطمَأنَّت لتحالف الكلاب معها في ذات الفرحة، وانسلالها بعد انتهاء الاحتفالات إلى خارج القطيع، حيث الحدود والحراسة.

وقد رأى تغبير الكلاب تنسحب إلى أبعد من الحدود المتعارف عليها للقطيع، واختفت بعيدًا، مع ذلك لم يَشكّ للحظة في ولائها له، وإخلاصها لعملها، وأنَّها بالتَّأكيد تسعى في مُهمَّة أَمنيَّة هدفها ضرب العمق، ما يُفقِد الذِّئاب القدرة على مهاجمة الخراف لوقت طويل.

ولم يكن تغبير قد غفا على الفور، فأخذ يَجترّ ما أكله من عشب فيما ينظر إلى القمر المنير من فتحة الخيمة؛ ورأى في موافقة تَولّيه الرَّعويَّة اكتمالَ القمر بشارة سعيدة.

وإذا أراد التَّدليل على كفاءته باعتباره راعيًا فعليه الإسراع بقيادة قطيعه إلى عصره الذَّهبيّ، والعودة به إلى مراعيه القَرويَّة، وحظيرته الأمينة؛ حتَّى إذا أمن على رَعيَّته أمكنه التَّخلُّص من الكلاب؛ هذه المخلوقات الدَّخيلة فعلًا على القطيع.

وراح في النَّوم.

وجاء من النَّوم بزمجرة قبيحة، ونفخة حَارَّة، اخترقتا أذنيه، التفت إلى مصدرهما، فرأى كلبًا يتَشمَّمه؛ للوهلة الأولى ظَنَّه ذئبًا يوشك على قضم أنفه فهَبَّ من مرقده فزعًا، قفز منتصبًا، مُهيِّئًا قرنيه لمناطحة مَصيريَّة طارئة، فأثار سحابة غبار صغيرة، غير أنَّ الكلب نبح بخفوت كأنَّه يعتذر، قبل أن يقول بنباح جَافّ صارم:

- الحارس الكبير زمجور يستأذنك في السَّماح له بلقائك على وجه السُّرعة؛ إنَّه ينتظرك في مكان بعيد، للحديث معك في أمور

تَخصّ الرَّعويَّة، وإطلاعك على الأمور السِّريَّة الَّتي يجب أن تحيط بها علمًا لتنجح في أداء مُهمّتك العظيمة.

لم يمانع تغبير في الذِّهاب إلى زمجور، لكن أبدى رغبته في اصطحاب أحد الخروفين: تفسير، أو تعذير، أو كليهما. لأنَّهما يفهمان في المسائل غير المفهومة، ويصلحان للاستشارة. إلَّا أنَّ الكلب «نقفور»، القائم بأمر هذه السِّفارة، اعتذر عن عدم استطاعته الاستجابة لرغبة الرَّاعي الجديد، مُوضِّحًا له أنَّ خبرة الكلاب، في أثناء خدمتها لرَعويَّة الحَاجّ يونس، تُؤكِّد على أنَّ عظمة الرَّاعي تتناسب طَرديًّا مع كَمّ ما يكتمه من أسرار، فكُلَّما زادت أسراره وغَمُضت زادت عظمته وربت؛ على هذا فإنّ اصطحابه لأَيّ خروف قد يُمثِّل خطرًا داهمًا على مَهامِّه بوصفه راعيًا، لأنَّ الأمور السِّريَّة لن تَظلّ سِريَّة إذا حضرها طرف ثالث، لا يُستبعَد أن يقوم بمساومته، وتهديده بإعلان ما هو سِريّ إذا طرأ بينهما خلاف مستقبلًا، في حين أنَّ الحوار الَّذي سيجري بينه وكبير الحُرَّاس يجب أن يبقى سِرًّا للأبد.

قال تعذير لتعسير بنبرة آسفة:

- سلامة الطّويَّة من أَهمّ صفات الخراف المُميِّزة لها، قلوبها بيضاء. إنَّها مخلوقات لا تَشكّ، ولا تساعد على الشَّكّ، مهما كان الأمر، أو الشَّخص، أو الشَّأن، يستَحقّ الشَّكّ، بحيث أنَّ ظهور ضُمادَة الشَّكّاك بينها أمرٌ لا يُصدَّق!

لم يتَمسَّك المُعظَّم تغبير برغبته في اصطحاب أيٍّ من خروفَيه المقترحَين؛ فلم يعهد الحياة إلَّا بسيطة، ليست ألغازًا. ثُمَ، ما الَّذي بوسع الكلاب أن تقوله، فيستَحقّ بذل جهد مُفكِّرَين كبيرَين في فهمه؟

كما لم يخطر على باله أنَّ أمر توليته الرَّعويَّة دون الكلاب قد أثار ضغائنها، درجة أنَّها ربما بصدد تنفيذ خُطَّة للخلاص منه.

ولا فَكَّر في أنَّ الذِّئاب لا تفتك بالخراف إلَّا لأنَّها تنتمي إلى العائلة الكَلبيَّة؛ أي أنَّ الكلاب أصل شَرّ الذِّئاب.

ولا انتبه إلى أنَّه سيمضي في حراسة أربعة ذئاب، في هيئة كلاب، قادرة على الغدر به فترديه قتيلًا، إذ مهما كان قرناه قَويَّين فلن يمكِّناه من مناطحة أربعة كلاب أجمعت على التَّخلُّص منه.

هكذا؛ بقلب أبيض، وبسلامة طويَّة، ترك تغبير صخرته، وانحدر يمشي بين الكلاب.

في البداية كان الكلب نقفور يمشي أَوَّلًا، يليه المُعظَّم تغبير ثانيًا، ثُمَّ الثَّلاثة كلاب في الأخير. موكب يليق بمسيرة راع في مُهمَّة رَسميَّة، غير أنَّ هذا التَشكيل المحترم لم يدم طويلًا، حيث وجد المُعظَّم تغبير نفسه محاطًا من الجهات الأربع بالكلاب الأربعة. لوهلة شعر بأنَّه أسير، لا أمير، مع ذلك لم تسمح له طويَّته السَّليمة بالشَّكّ في أنَّه ربما يمضي إلى حتفه. وحتَّى عندما كان يرفع رأسه، وينظر إلى أيٍّ من الكلاب المحيطة به، فيرى عينيه تَشعَّان وهجًا أحمر، أشبه ما يكون بوهج عيني الذِّئب

قبيل لحظة الافتراس، كان قلبه الأبيض، وسلامة طويَّته، يحيلان احمرار عينَي الكلب لا إلى الغِلّ المشتمل على الغدر، وإنَّما إلى فرط الإجهاد لطول الحراسة، ومكابدة السَّهر.

لكن، من الأمور غير المفهومة أنَّ الخراف مهما ظَلَّت لا تَشكّ لأوقات طويلة، فإنَّها تشُكّ فجأة، وبأسرع من وميض البرق!

مثلًا، تجد الخروف في مرعاه يأكل على مهل، وهو ينظر بعينين ملؤهما الاطمئنان والموادعة، مثل عينَي مُحبٍّ عطوف آمن، إلى حَيَّة رقطاء تزحف إليه؛ حتَّى أنَّ المُراقِب ليَظنّه خروفًا غِرًّا، سيظَلّ واقفًا مكانه إلى أن يُلدغ، لكن، فجأة، وبأسرع من وميض البرق، حين لا يبقى بين الحَيَّة وتنفيذ غرضها سوى شبر واحد، أو نصف شبر، يشُكّ الخروف في أنَّ هذا المخلوق الزَّاحف إليه قد يكون مخلوقًا مؤذيًا، فيقفز، فجأة، وبأسرع من وميض البرق، قفزة واسعة رشيقة، فيبتعد عن الهلاك الَّذي أحدق به.

هكذا، وبعد طول مسير، وقد صار القمر في قلب السَّماء، هَبَّ الشَّكُّ في قلب تغبير فسأل نفسه:

- إلى أين تقودني الكلاب طوال هذا الوقت؟ ولماذا هي صامتة هذا الصَّمت المريب، لا تحاول مبادلتي بأَيّ كلمة؟

انتبه المُعظَّم تغبير فجأة، وبأسرع من وميض البرق، إلى أنَّه أخطأ بمرافقة الكلاب. كيف فاته أنَّها مخلوقات كارهة للخراف! كيف فاته أن قرار الحَاجّ يونس، بتوليته الرَّعويَّة، ربما أثار ضغائنها، حتَّى أنَّها قد تكون الآن بصدد تنفيذ خُطَّة للتَّخلُّص منه!

ثُمَّ عاد ليُفكِّر تفكيرًا مُؤسَّسًا على سلامة الطّويَّة، النَّابعة من القلب الأبيض، فاطمأنَّ إلى أنَّ الكلاب لا تحتاج كُلَّ هذا الوقت، ولا كُلَّ هذه المسافة الطَّويلة، كي تتَخلَّص منه. لو أنَّها تضمر الخلاص منه لفعلت ذلك قبل ساعة، أو ساعتين، من الآن.

ورغم هذا المنطق القوي أخذ القلق يتعاظم في قلبه؛ فلأَوَّل مَرَّة في حياته يمشي وحيدًا دون قطيعه الكبير. ولأَوَّل مَرَّة في حياته يمشي وحيدًا وطويلًا في ظلام الليل. ولأَوَّل مَرَّة في حياته يمشي، منفردًا، بصحبة أربعة كلاب غادرة للقاء كلب غادر.

وفَكَّر في أنَّ ما يستشرفه من أمور الرَّعويَّة يُؤكِّد على أنَّها مُهمَّة ثقيلة، ذات تبعات غاية في الصُّعوبة والغرابة والخطورة.

ولا تِحسِن الظَّنَّ يومـًا
بمـن تعـرف اِنُّه عَـدوَّك.
تِأمنلُه على طـول دومًـا
وسـهران هُوَّا يكـيـدك.
بِتـدبِّر ازاي تِـصـيدلُه
وبيــدَبِّر ازاي يـصـيدك.
ما يكون قلبك عديم فهم
عَـدوَّك مِنـين يفـيدك.
اصحـى يا تغـبير وِفـيق
زمـجـور خَـطَّط يبـيدَك.

أبسط وأقرب الحلول بالنِّسبة لقريحة تُحيِّرها مسألة انتقاميَّة ما هي: التَّخلُّص. أو: الإزاحة. أو: المحو.

وكان أن طرح الكلب طغفور فكرة «التَّخلُّص» من تغبير على مجلس الكلاب التَّآمريّ داخل الكهف، مُوضِّحًا ضرورة الإعداد لـ«إزاحة» مُستحقّة، يُدفّع بها الخروف تغبير بعيدًا عن الرَّعويَّة، ومن ثَمّ تسليمها للحارس الكبير زمجور؛ حتَّى وإن لزم الأمر ما هو أكبر من إزاحة تغبير: «مَحوَه» من الوجود.

ولن يكون الأمر صعبًا على الكلاب. لقد اقترح طغفور، على رفاقه المتآمرين، كيف يمكن إنجاز الأمر بسهولة؛ مُجرَّد عَمليَّة أَمنيَّة خَاصَّة، تُنفِّذها أربعة كلاب قَويَّة، ذَكيَّة، كفيلة باغتيال تغبير تحت أنظار جميع الخراف، الَّتي، أقسم طغفور بالله، ما إن ترى زعيمها مقتولًا، يرفس في دمه، حتَّى تُراع، وتَكنّ، وتهمد، وتنصاع لرَعويَّة كبير الحُرَّاس زمجور. وهكذا تستعيد الكلاب مكانتها المُستحقَّة لها كحُرَّاسٍ رعاةً، أو رعاةً حُرَّاسًا.

لكن أبسط وأسهل الحلول ليست الأنسب دائمًا لأعقد وأصعب المسائل، الَّتي عادة ما تحتاج نتائجها المطلوبة إلى إجراء أكثر من معادلة، والنَّظر في أكثر من قانون، والمشي لأكثر من خطوة، وإدراك قيمة الصَّبر؛ وجميع ذلك يتَمتَّع به زمجور على أكمل وجه، لذلك لم يوافق على مقترح طغفور، بل تجاهله درجة أنه لم يطرحه حتَّى للنِّقاش، وقال:

- لو أنَّ نتائج التَّخلُّص من تغبير، بهذه الطَّريقة المباشرة،

ستنتهي فقط عند رَدّ فعل الخراف، لما كانت ثَمَّة مشكلة في هذا المقترح؛ لماذا لا تكونوا كلابًا أذكياءً لمَرَّة واحدة في حياتكم! لماذا لا تنظرون حولكم وأنتم تطرحون الحلول! لو نظرتم حولكم ستعرفون أنَّنا والخراف لا نعيش بمفردنا في هذه الصَّحراء؛ هناك قطعان كثيرة أخرى، وجميعها لا تزال تحت سيطرة الرُّعاة البشر؛ فماذا لو وصل إليهم أنَّ الكلاب تمَرَّدت على الرَّاعي الَّذي وَلَّاه الحَاجّ يونس رعاية قطيعه، مهما كان راعيًا خروفًا، بليدًا، غَبيًّا؟ هل تتَصوَّرون رِدَّة فعل الرُّعاة البشر المحيطين بنا وقتها؟

لم يُقدِّم أحد الكلاب أَيَّ تَصوُّر؛ فقط كانت جميعها تلهث، وقد تَدلَّت ألسنتها خارج أفواهها، عيونها تتأرجح في مآقيها، وتَترقَّب كما يليق بمخلوقات حراسة. فاستطرد زمجور:

- على الفور سيقوم الرُّعاة البشر بطرد جميع كلابهم مخافة أن تطمح بدورها إلى تولِّي رعاية قطعانهم؛ وليت الأمر يتَوقَّف عند هذا الحَدّ؛ هل تتَصوَّرون ماذا يمكن أن يحدث لو أنَّ كُلّ الكلاب طُرِدت من حراسة القطعان المحيطة بنا؟

ازداد عنف لهاث الكلاب المؤتمرة، حتَّى أنَّ سيلًا متقاطرًا من لعابها بدأ في الهطول من بين أنيابها، وتأرجحت عيونها بشِدَّة، مع ذلك لم تُقدِّم أَيّ تَصوُّر، فواصل زمجور:

- لن تجد الكلاب المطرودة، الَّتي ستكون جاعت للمنتهى، قطيعًا سهلًا، يمكنها مهاجمته للحصول على طعام وألبان، غير قطيعنا الَّذي بدون راعٍ بَشريّ؛ ولن يكون بمقدرتنا، وعددنا لا

يتَعدَّى دستة كلاب، مواجهة جحافلها الجائعة، الَّتي قد تكون بالمئات، حينئذ إمَّا نهرب، فنموت جوعًا في الصَّحراء، وإما نُقتَّل في مواجهة غير متكافئة، أو نرضخ لاستعباد الغزاة، وما أصعبه من استعباد، يهون إلى جواره ذُلُّ العمل في خدمة خروف اختاره راع بَشريٌّ عشنا طويلًا نُقدِّره، ونحترمه، إلى أن مات.

هنا ارتفع صوت الكلب نقفور، قائلًا بنفس النَّبرة الحَادَّة:

- لا تطالبنا بالاستسلام والعمل في خدمة خروف مهما كانت تَخوُّفاتك.

نفض زمجور رأسه وقد اعترى الضِّيق ملامح وجهه، حتَّى أنَّ كرة أنفه السَّوداء ارتعدت:

- إذا كان أحدكم يكره العمل في خدمة خروف مَرَّة واحدة، فأنا أكره ذلك ألف مَرَّة؛ لكن مسألة التَّخلُّص من الخروف تغبير دون تَروٍّ مسألة حرجة كما وَضَّحت لكم. وها أنا أُكرِّر: يلزمنا التَّريُّث والأناة لأقصى درجة، والصَّبر للنهاية، حتَّى ننتهي للفوز، ولا ننتهي لخسارة إذا وقعت ستكون فادحة.

ومن العقل إذا انت دَبّرت
تحسب حساب الخساير.
ويا ويلك إذا انت تَكبَّرت
كاس مر مليان ودايـر.
خد مِنّي صَلّيت وكَبَّرت

وفــؤادي بــالـنُصــح فــاير.
يجور الخَلق على أبو قلب أبيض
وأبو قلب أكحل عَ الخَلق جاير.

عندما انتهى تغبير إلى مدخل الكهف شعر بأنَّه انتهى إلى منتهى حياته. فالمكان مرعب؛ جبل شاهق أغلق مسار الرِّيـح، صخور مُوزَّعة كأشباح الذِّئاب، أحراش كثيفة لهياكل أشجار ميتة؛ والوقت أشدّ مرحلة من الليل إعتامًا، حتَّى أنَّ النُّجوم، وذبالة قمر مغادر، لم يكن بإمكانهما منح جوف الكهف أخفت إضاءة.

أمَّا ما أطلق الرُّعب في قلبه فهو تلك المزدوجات، من الدِّوائر الفُسفوريَّة البَرَّاقة، الَّتي تَشعّ وهجًا دَمويًّا، وقد انتشرت تتراقص في أنحاء الكهف المظلم؛ إنَّها عيون كلاب. كلاب أخرى غير تلك الأربعة الَّتي رافقته.

هكذا وجد تغبير نفسه خروفًا وحيدًا بين عصابة كلاب كثيرة العدد.

لكن سرعان ما اطمَأنَّ قلبه، فقد رَحَّب به زمجور ترحيبًا شديدًا، عندما نبح نبحتَين مرحتَين، هاشَّتَين، باشَّتَين، قبل أن يدور حوله مُخفِّضًا رأسه، مُرقِّصًا ذيله، مُظهرًا من التَّودُّدات ما يُؤكِّد على ولائه له، قبل أن يخاطبه بنبرة آسفة:

- أعتذر إليك، سَيِّدي المُعظَّم تغبير، أن أزعجتك في هذا الوقت المُتأخِّر من الليل؛ لكن لو لا أنِّي، وجميع هذه الرِّفقة

من الكلاب الطَّيِّبة، نعمل على أن يكون عهدك زاهرًا، فتصير الرَّاعي المحبوب، الَّذي تتَمسَّك به رَعيَّته فلا ترضى عنه بديلًا، لما كنت أقدمت على إزعاجك.

قال تغبير، بنبرة خروف قح، لا يتفاعل بطبعه مع المجاملات:

- أكان ضَروريًّا قطع هذه المسافة الطَّويلة كي نلتقي؟ وما هذا الجبل؟ أنا لم أكن أعلم أنَّ ثَمَّة جبالاً هنا! ولا أظُنّ أنَّ خروفًا يعلم ذلك.

أجابه زمجور بثقة:

- بالقطع كان ضَروريًّا سَيِّدي؛ فما سأقوله لك يجب أن يبقى سِرًّا، وليس لرَعيَّتك الخراف أن تعرفه، فكان لا بُدّ من الذِّهاب إلى أبعد مكان، حتَّى لا ينكشف لها أمر هذا الاجتماع، فتَظنّ بك وبنا الظُّنون.

رأى الخروف تغبير أنَّ منطق الكلب زمجور مقبول عَقليًّا؛ هذا ما يجب أن يكون بخصوص النِّقاشات السريَّة: الذِّهاب إلى أبعد مكان، وفي خفاء الليل. كما أن الخراف تنتظر منه طرد الكلاب، فكيف لو علمت باجتماعه بها؟

ارتاح قلب تغبير لعقل زمجور، ونبض بمزيد من الاطمئنان، ليَهزّ جذعه الخَلفيّ هَزَّات قَويَّة، تراقصت على إثرها لِيَّته الثَّقيلة، وبعر، وقال:

- إذن فلتبح لي بهذا السِّرّ.

- سأفعل، لكن ليس قبل أن تُقسِم على عدم إفشائه لأيّ سبب من الأسباب؛ وأنَّه سيبقى سِرًّا للأبد.

- أقسم بلِيَّتي، أعزّ وأشرف ما أملكه.

لم يكن تغبير يتَخيَّل أنَّ العمل الَّذي تقوم به الكلاب، والَّذي طالما رأته الخراف عملًا تافهًا، زائدًا عن حاجة القطيع، على هذه الشَّاكلة المُلغِزة من الدِّقَّة والتَّعقيد.

فقد أخبره زمجور عن الوتيرة الَّتي يقوم عليها عمل الحراسة؛ ليعرف أنَّ الحراسة ليست فقط تلك السَّواتر الأَمنيَّة المضروبة على الحدود الخَارجيَّة للقطيع، وإنَّما هي أيضًا تلك اللواقط الأَمنيَّة الاستخبَاراتيَّة الَّتي يجب أن تتغلغل داخله.

وأخبره بأنَّ إذا كان ثَمَّة خطر واحد يُهدِّد القطيع من الخارج، فعشرات الأخطار تُهدِّده من الدَّاخل.

يعرف تغبير، وأيّ خروف غيره، ما هو الخطر الخَارجيّ؛ إنَّه الذِّئاب، والأفاعي، والثَّعالب، لكنَّه عاش عمره لا يعرف خطرًا داخليًّا واحدًا، فضلًا عن عشرات الأخطار، قد يتَسبَّب في تحقيق أيّ ضرر للقطيع. فكان أن أطلعه الكلب زمجور على ما كشفت عنه الاستخبارات، وقد صُدِم لدرجة مُروِّعة: يكشف التَّقرير الأمنيّ عن ظهور مجموعة كبيرة من الخراف المُتمرِّدة، ترى أنَّ الخروف تفسير، لا الخروف تغبير، هو الأولى، والأكفأ، لتَولِّي الرِّعويَّة، لأنَّ تفسير، حسب زعمها، مُفكِّر يفهم أنفُس الخراف، أي يعرف مداخل ومخارج النَّفس الخِرفانيَّة المُعقَّدة، ما يُؤهِّله

لتَفهُّم مُتطلَّبات القطيع بشكل أفضل من تغبير. هذا غير ادِّعائها بأنَّ تفسير يميل لفكرة مَدنيَّة القطيع، وهي الفكرة الأكثر معاصرة وتَقدُّمية، لا فكرة الورع والتُّقى «المُتخلِّفة» الَّتي ينتمي إليها الخروف تغبير.

واعتذر زمجور عن هذا الوصف الشَّنيع لفكرة الورع والتُّقى، وإنَّه ليس الوصف الَّذي يُحبِّذه شَخصيًّا، وإنَّما ينقل ما تَوصَّلت إليه استخباراته بالضَّبط، دون تجميل أو تشويه؛ دون زيادة أو نقصان.

ثُمَّ استطرد بنفس الصَّوت البارد قائلًا:

- ترى تلك المجموعة أنَّه حتَّى إذا كان الحَاجّ يونس قد وَلَّى عظمتكم الرَّعويَّة إعجابًا بقُوَّتك، فكان يجب على عظمتكم ألَّا تهتبل الفرصة اهتبالًا، ولتدرك أن ليس بمنطق القُوَّة، المنطوية في قرنَي عظمتكم، تُحكَم القطعان، بل بالعِلم العَصريّ، المنطوي عليه صدر الخروف المُفكِّر تفسير. أنا آسف سيدي المُعظَّم تغبير، أُكرِّر أن هذا ما تقوله تلك الخراف الوقحة، وتُردِّده بصفاقة.

ولفت زمجور انتباه تغبير بنبحات خافتة، متخمة بالتَّحذير قائلًا:

- تلك المجموعة المُتمرِّدة تحتاج إلى عمل أَمنيٍّ مُكثَّف، كي لا يستشري أمرها في بَقيَّة القطيع فتستقوي علينا، لتحدث ثورة

خِرفانيَّة ربما تطيح بعظمتكم إلى خارج الرَّعويَّة، وربما إلى خارج المرعى بأكمله؛ لا قَدَّر الله.

ارتبكت مأمأة تغبير وهو يتساءل ببلادة تليق بخروف حائر:

- وما العمل؟

قال زمجور، بنباح قَويٍّ واثق، كأنَّه يرغب في إرسال رسالة اطمئنان إلى قلب تغبير:

- لا داعي للقلق أيُّها المُعظَّم، فقط نحتاج إلى تكثيف العمل الاستخبَاراتيّ داخل القطيع، ما يعني ضرورة أن تأذن لي في استجلاب المزيد من الكلاب.

المُسايساتيّ الجَيِّد يلعب بجميع معطيات المجتمع القُطعانيّ لتحقيق أفضل النَّتائج المرجوَّة؛ أمَّا المُسايساتيّ العَبقريّ فهو الَّذي يخلق المعطيات الَّتي يحتاجها من عدم، ويُحقِّق النَّتيجة الَّتي يريدها بالضَّبط، دون أدنى نسبة خطأ محتمل.

وأن يخلق المُسايساتيّ المعطيات الَّتي يحتاجها من عدم، فهذا يعني أن يمارس الكذب بمهارة، وأن يعتمد الخديعة بكفاءة.

هكذا، ما إن غادر تغبير الكهف، برفقة الكلاب الأربعة، عائدًا إلى صخرة الرَّعويَّة، حتَّى سأل طغفورُ زمجورَ عَمَّا إن كانت هناك مجموعة من الخراف قد تمرَّدت بالفعل، وتطالب بالرَّعويَّة للخروف تفسير دون الخروف تغبير!

فأجابه بألَّا شيء من ذلك حدث.

قبل أن يُردِف متسائلًا بمكر:

- لكن كيف يمكننا إقناع الخروف تغبير بعدم التَّخلُّص من الكلاب، وجلب المزيد منها، لو لم نشعره بالخوف من الخراف؟

يا لهـف قلبـي فؤادي انفطر
مـن شَرِّ كَيـدِ ابـن اللئيمة.
حبـل الأحبـة بـمكره اتبتَر
مـراده مـا يُبقـالهمْ عزيمة.
كـلاب وخـبثـهـا انـفـجر
مناها تحـوز الـخرفان غنيمة.
زمـجور تَأمَّل وخَـطَّط ونَظَر
وتغبير مِسلِّم قياده كالبهيمة.

كان طقس «التَّعميد» يُؤدِّي المَهامّ الموكلة إليه بكفاءة، فتنشأ معظم الخراف على كراهية الكلاب، حتَّى أنَّها تتَمنَّى لو لا تسمع نباحها أبدًا، وألَّا ترى أشكالها أبدًا، وألَّا تَشمّ رائحة أبوالها المقزِّزة أبدًا. مع ذلك، وفي حالات نادرة، كان التَّعميد ينتهي بالحَمَل الرَّضيع إلى عكس المأمول له تمامًا، فإذا به يَشذّ لينشأ على احترام الكلاب احترامًا عظيمًا، وربما تَعدَّت مشاعره الاحترام إلى الحُبّ! فيُحبّها حُبًّا عجيبًا، يجعله يُبرِّر لها جفاءها وقسوتها في التَّعامل مع الخراف، وإن صار هو نفسه أحد ضحايا هذين السُّلوكين العنيفَين.

وإذا كان الله قد جبل الأنفس على الميل إلى القُوَّة، والنَّأي عن الضَّعف، فليس مستغربًا أن تهفو نفس أحدهم إلى احترام عَدوّه القَويّ، وامتهان صديقه الضَّعيف؛ إغراء القُوَّة لا يدانيه سوى إغراء الأموال، حتَّى إنَّه يُلفِت انتباه الصَّغير قبل الكبير، والمجنون قبل العاقل.

كيف لا؟ وأَوَّل ما يلعبه الحَمَل الرَّضيع هو لعبة «المناطحة»، فيحاول مناطحة كُلّ ما يلقاه من موجودات.

كيف لا؟ وإذا ما أصابت لوثة عَقليَّة خروفًا ناضجًا، فإنَّه ينسى جميع السُّلوكيَّات عدا «المناطحة».

على ما سبق فإنَّ بعض الحملان، أثناء طقس التَّعميد، تُعجَب جِدًّا بشكل الكلب الرَّابض على صخرة الرَّعويَّة، خصوصًا وأنَّه يربض بوضع، وكَيفيَّة، لا تسطيعهما الخراف؛ جلسة مهيبة عزيزة.

فأين ارتفاع منخارَي الخروف وشممهما من ارتفاع أنف الكلب وشممه؟ أين نظرة الخروف البليدة الباردة من نظرة الكلب الذَّكيَّة المُتوهِّجة بالانفعالات؟ أين تراخي أذنَي الخروف، حتَّى لتبدوان كقطعتَي جلد ميتتَين مُتهدِّلتين على جانبي رأسه، من أذنَي الكلب المنتصبَين كشوكتَين مشرعتَين دومًا للإنذار والتَّنبيه؟ أين جسد الخروف المُترهِّل، المُغطَّى بالصُّوف المُغبَّر، المُتَّسخ بجميع ما تحمله الرِّياح من أتربة وقاذورات، ما يظهر معه الخروف وكأنَّه كرة قمامة تتدحرج على الأرض، من جسد الكلب المتناهي الرَّشاقة، النَّاعم، حتَّى أنَّ ضوء الشَّمس، إذا سقط عليه، يلمع

ويبرق وكأنَّه سقط على سطح مرآة صقيل؟

والخراف تُنتِج وتُعامَل معاملة العبيد، بينما الكلاب تحكم وتُعامَل معاملة الأسياد.

هكذا تَظلّ تلك النَّوعيَّة من الخراف، المُحبَّة للكلاب، تعقد المقارنات بين أهلها الخراف وأعدائها الكلاب، فتُرجِّح دائمًا كِفَّة نباهة الكلاب على بلادة الخراف؛ ولشِدَّة حُبِّها واحترامها للنَّباهة، وبمرور كُلِّ ساعة، رويدًا وببطء وبأناة، تبدأ ملامح وجوه تلك الخراف في التَّحوُّل إلى ملامح أقرب في الشَّبه إلى وجوه الكلاب.

وإذا كانت الكلاب لا تحترم الخراف، في المجمل، إلا أنَّها لا تكتفي بعدم احترام الخراف ذات الوجوه الشَّبيهة بوجوه الكلاب، بل تزيد من احتقارها وازدرائها لها أيَّما احتقار وازدراء، وذلك لعِدَّة أسباب:

أولها: إنَّها لم، ولا، ولن، تشعر بالفخر كون أنَّ ملامح وجوهها النَّبيلة، العزيزة، الفخورة، يمكن أن تنطبع على وجه خروف دنيء، مهما كان مُحبًّا لجنسها.

ثانيها: إنَّ تلك النَّوعيَّة من الخراف لا تحترم جذورها، لا تَعتدّ بأصلها وفصلها، ولا تجد غضاضة في أن تُحبّ وتحترم أعداءها، وقد تباهي أقرانها بأنَّ وجوهها تشبه وجوه الكلاب، لا الخراف.

بل وصل بها السفول إلى أدنى منحدر، فأخذت تتَخلَّص من المأمأة، لغتها الأُمّ، وتجتهد في تعَلُّم النُّباح، وتتخاطب به أحيانًا

فيما بينها! وواصلت انحدارها لدركة ظهورها بمظهر الكلاب، فتداوم على قَصِّ أصوافها ليبقى شعرها قصيرًا بَرَّاقًا كشعر الكلاب!

مع ذلك عاشت تلك النَّوعيَّة الشَّاذَّة آمادَ طويلة متوائمة مع رفاقها الخراف، رغم أنَّها مكروهة ومنبوذة كرهًا ونبذًا غير معلنَين، إلى أن دارت الأيَّام وقام الرَّاعي البَشريّ الأخير بتعيين الخروف تغبير راعيًا، حينها انتفضت قلوب تلك النَّوعيَّة الخِرفانيَّة الشَّاذَّة حزنًا وغضبًا لأجل الكلاب، ورأت، كأيّ كلب، أنَّ الأحقَّ بالرَّعويَّة، بعد الرُّعاة البشر، الرُّعاة الكلاب، لا الخراف! ومُبرِّرها: إن كان هناك مخلوقٌ أكثر شبهًا بمخلوقٍ، فالكلب هو الأكثر شبهًا بالبشر، لا الخروف.

وفي الوقت الَّذي كان تغبير يمشي على مهل، في قلب الحراسة المَكوَّنة من الكلاب الأربعة، على رأسها الكلب السَّفير نقفور، عائدًا إلى صخرة رَعويَّته بعد انتهاء اجتماعه السِّريّ، كان كلب خامس يركض كفرس ضامر، يطوي الأرض طَيًّا، يُنفِّذ تعليمات كبير الحُرَّاس زمجور، بضرورة الوصول، وبأسرع ما يمكن، إلى الخروف المدعو «طنفس»، أحد أبرز الشَّخصيَّات الخِرفانيَّة الشَّبيهة بالكلاب، إن لم يكن أبرزها جميعًا، وإبلاغه بفحوى رسالة شَفاهيَّة بالغة السِّريَّة.

لم يكن تغبير يمشي على مهل إجهادًا لطول ما مشيه في تلك الليلة، بل لفرط الثِّقل الَّذي حمله قلبه فجأة، عندما أخبره كبير

الحُرَّاس بأنَّ ثَمَّة خونة من الخراف يرفضونه راعيًا، في حين يقبلون أن يكون الخروف تفسير، العجوز، المُنهَك، راعيها!

حَزَّ في نفسه أن يرفض قطيعٌ ما قائدًا شَابًّا ورعًا تَقيًّا، ويقبل قائدًا هرمًا إبَاحيًّا، رغم أنَّ القطعان لا تني تباهي بأنَّها ورعة تَقيَّة بطبعها، تَشبّ، وتنشأ، وتكبر، وتشيب، على احترام الأخلاق والمَحكيَّات المُقدَّسة.

مع ذلك فقد تَلطَّف قلبه به، قليلًا، عندما تَذكَّر أنَّ فئة الخراف الأشباه هي نفسها الفئة المكروهة، المنبوذة من جميع خراف القطيع، كبيرها وصغيرها، كباشها وشياهها، وإن بشكل غير معلن، ما يعني أنَّ تأثيرها لن يكون ذا بال، مهما رفضته راعيًا، أو استنكرت عليه رَعويَّته.

لكن عاد قلبه للانقباض عندما راجع نفسه، سريعًا، ليكتشف أن تلك الفئة المكروهة المنبوذة، ليست بالفعل مكروهة ولا منبوذة! فكيف تكون كذلك وهي في معظم الأحيان من تقوم بفرض إرادتها على القطيع، فلا يجد بُدًّا من الانصياع لإرادتها؟

حتَّى في ظِلّ وجود الرَّاعي البَشريّ كانت قادرة على فرض إرادتها؛ عندما كانت تحرص على تَصدُّر القطيع، حين يشرع في مسيره تجاه المراعي، فتميل به فجأة إلى اليمين، أو إلى اليسار، مهما كان الرَّاعي البَشريّ لا يرغب في الميل به إلى يمين أو يسار، فلا يجد بُدًّا من الانصياع لانحرافاتها الحَادَّة المفاجئة.

ويتذكَّر المُعظَّم تغبير أنَّه كان يتَعجَّب لرَدّ فعل زمجور، تحديدًا، تجاه تَصرُّفات تلك الفئة.

فإن كان الرَّاعي البَشريّ إنسانًا لا يمتلك مُقوِّمات جَسديَّة تؤهِّله للسَّيطرة على قطيع كبير من خراف قَرَّرت تغيير المسار، إلَّا أنَّ الكلب زمجور، بما يمتلكه من مُقوِّمات جَسديَّة، كان دائمًا يمكنه تصحيح المسار ولو عنوة، إذا أراد.

وارتاح وقتها إلى أنَّه تَمكَّن من الحصول على تفسير لما حسبه لغزًا، عندما راقب تلك النَّوعيَّة من الخراف، فلاحظ أنَّها كانت قادرة على تبادل التَّنابح مع الكلب زمجور! وتتخاطب معه! ما يعني أنَّ ثَمَّة تفاهمات متبادلة بينهما، وربما مصالح مشتركة، اقتضت أن يَغضّ الكلبُ الطَّرفَ عن أَيّ رَدّ فعل تجاه بعض انحرافات الخراف شبيهة الوجه به.

لكن، الآن، تغبير ليس مرتاحًا.

إنَّها الرَّحبة الواسعة أمام مسجد النَّجع، وأشجار الكافور وافرة الخضرة تحيط بها، لم يهزمها جفاف النَّهر، ولا يبوس التُّرع، فجذورها ضاربة في أعماق الثَّرى، تشرب ماءً يجري تحت الأرض، لا يطاله جور الجائرين، يأمن عقوبة من حَرَّم الظُّلم على نفسه، سبحانه، فيَظلّ يتدَفَّق بلا انقطاع.

المسجد صغير المساحة بلا مئذنة، جدرانه طِينيَّة نُكِتت في شقوقها مقابض المشاعل؛ والشَّيخ أبيض الهِلّي يجلس على دِكَّة

رُفِعت عن مستوى الأرض بالطُّوب والحجارة، ظهره إلى الجامع، ووجهه للأشجار والمستمعين، هؤلاء المئات من الأشباح الآدَميَّة الجالسة على التُّراب من أهل النَّجع، ومن أهالي النُّجوع المجاورة.

صاح أبيض الهِلّي:

- الخيانة عار، والعِدا ما يقدروا يغلبوننا بقُوَّتهم أبدًا، لكن يغلبونا بالخيانة؛ واحد مِنَّا يقوم يستغفلنا، ويسَلِّمنا للعِدا سلام يد، فيغلبوننا. لماذا سَمُّوا الخائن خائنًا؟ لأنَّه يساعد أعداء أهله على أهله. حاجة غريبة وعجيبة! طَيِّب؛ لِمَ يخون الخائن أهله؟ هل أجاوبكم على بلاطة؟

ارتفعت الصَّيحات:

- إذا كان حالنا كُلّه صار على البلاطة، خَلِّ الإجابة على بلاطة.

زعق أبيض الهِلّي:

- لأجل أنَّ حاله مال، فيتهيَّأ له أنَّ العيشة الهنيَّة بالمال؛ وابحثوا عن المال تلاقوه أصل كُلّ بلاء.

لكن لماذا المال أصل كُلّ بلاء؟ هل أجاوبكم على البلاطة؟ أم على الرَّبابة؟

ارتفعت الصَّرخات:

- على الرَّبابة.

فأجرى الشَّيخ أبيض الهِلّي القوس على الأوتار، وغَنَّى يقول:

الـمـــال خـَـمْـرَة بـتــسكـِـر
وشـــاربــها عــقــلــه يَطوشِي.
الـمـــال حــشــيشــة بتــسطِل
وداخينــها عــقــلــه يَـلــوشِي.
أبو مال يرى نفسه سِيدِ الكل
غير نفسه في الكون مافِيشِي.
عَ النَّاس من فوق يبُصّ ويطُلّ
أنــا سيــدكو وانتــو الحــَبيشِي.

ليس كُلّ خروف نشط ذِهنيًّا خروفًا محترمًا بالضَّرورة، لأنَّ نشاط الذِّهن لا يُؤدِّي بصاحبه قطعًا إلى مصير محترم. فكما أنَّ الذِّهن النَّشط قد يدفع بخروف إلى أن يكون علمًا، أو نجمًا، يتباهى به القطيع، فأيضًا قد ينتهي بصاحبه إلى ارتكاب أبشع أنواع الجريمة، تلك الَّتي يطلقون عليها: الخيانة العظمى. عندما يخون الخروف النَّشط ذِهنيًّا قطيعه، فيُحبّ الكلاب؛ بل ويعمل لصالح الكلب ضِدّ الخروف.

لكن مهما نُظِر للخراف الأعلام بعين الاحترام والتَّقدير، فإنَّ نَوعيَّة الخراف، الشَّبيهة بالكلاب، دائمًا ما تتساءل، وبسُخريَّة لاذعة:

- ماذا يعني الخروف العَلَم!

وإذا كانت تسأل هذا السُّؤال الاستهجَانيّ، فإنَّها لا تسأله لأجل

الحصول على تعريف رصين لمَاهيَّة الخروف العَلَم، بقدر ما تقصد طرح السُّؤال بهذه الصِّيغة التَّهكُّميَّة:

- ما الَّذي يكسبه الخروف العَلَم في حياته!

تقصد تقول:

- أي نعم؛ لا يمكن إنكار أنَّ الخروف العَلَم خروف عَبقريٌّ، قد يكون مُنظِّرًا، قد يكون أديبًا، قد يكون مُفكِّرًا، لكن إلى أيّ وضع اجتمَاعيّ يؤول في النِّهاية؟ هل ارتقى خروف عَلَمٌ يومًا إلى مستوى موازٍ لمستوى وضع أَقلّ كلب، من كلاب الحراسة والتَّنظيم، رتبة؟

إنَّ أدنى كلاب الحراسة رتبة يحصل على احترام القطيع مهما نبح خرافه، أو عَضَّها، أو خمشها، في حين أنَّ ألمع الخرفان الأعلام عَبقريَّة قد يموت جوعًا، أو إهمالًا، أو كمدًا، لأنَّ أحدًا من القطيع لا يُثمِّن عَبقريَّته بمعشار ما يُثمِّن جهامة كلب حراسة.

ثُمَّ إنَّ الخروف العَلَم ليس في مأمن من، ولا بعيد عن، حقارة ووضاعة أدنى كلب حراسة رتبة؛ الَّذي قد ينبحه، ويَعضّه، ويخمشه، لا لشيء غير لفت انتباه القطيع إلى أن: لا خروف في القطيع يعلو قيمة على الكلب، مهما كان خروفًا عَبقريًّا، ومهما كان الكلب غَبيًّا.

فإذا كان المصير الأسوأ ينتظر معظم الأعلام العباقرة، والمصير الأفضل في متناول الكلاب الغَبيَّة، فهل هناك أغبى من خروف يُصرّ على الطُّموح إلى أن يكون عَلَمًا عَبقريًّا؟

هكذا ترى الخراف، ذات الوجوه الشَّبيهة بوجوه الكلاب، أنَّها مهما كُرِهت ونُبِذت تبقى هي الخراف الأذكى لُبًّا، الأكفأ نباهة، المُفكِّرة بأَصحّ وأسلم منطق خِرفانيّ عَقلانيّ.

لذلك، عندما وضعت زوجة طنفس، زعيم الخراف الأشباه، حَمَله الأَوَّل، أخذه ليُعمِّده. كان الوقت باكرًا عندما مضيا إلى أن اقتربا من صخرة الرَّعويَّة، وهنالك همس في أذنَي حَمَله بنبرة إعجاب:

- أنظر يا بُنيّ لهذا السَّيِّد المهاب، الكلب المُمجَّد زمجور، حامي حمى القطيع. أنظر إليه يا بُنيّ، واملأ قلبك بمَحبَّته، عَلَّ ملامح وجهك تتَحوَّل إلى ملامح وجه كلب، فتصير واحدًا من الأشباه أسياد الخراف، إذ بمُجرَّد أن تصير خروفًا شبه كلب ستنال ما تتَمنَّاه من مهابة، وتقدير، واحترام.

وكما أنَّ نتائج تعميد الحملان لا تكون في مجملها على ما يروم الآباء، الخراف الأصيلون، فيخرج من أصلابها أشباه الكلاب، كذلك لا تكون النَّتائج في مجملها على ما يروم الآباء، أشباه الكلاب، فيخرج من أصلابها خراف أصيلون، يكرهون الكلاب كرهًا حَقيقيًّا.

ومع أنَّ الكلاب تحتقر تلك الخراف الشَّبيهة بها، بأكثر مِمَّا تحتقر بقية خراف القطيع، فقد كانت تتَعمَّد معاملتها بشكل مُميَّز، فتُظهِر لها مزيدًا من الاحترام، وتمنحها استقطاعات أوسع للرَّعي، وأوقات أطول للشُّرب، وأماكن ظليلة أفضل للنَّوم والاستراحة.

وعلَّلت هذا التَّمييز بأنه: مهما كانت تلك النَّوعيَّة من الخراف تَستحقّ أحقر أنواع الازدراء، لكن تُكرَم لطموحاتها في التَّعامل مع الكلاب، ولفائدتها لها. إنَّها الخراف المُستعدَّة لعمل جميع ما يروق الكلاب، تقربًا لها وزلفى.

وكان لهذه المحاباة أثرها الواضح في أن يهاب القطيعُ الخرافَ، أشباه الكلاب، مهابته للكلاب نفسها.

وها هي الأيَّام تدور، والأوضاع تَتطوَّر، لتحظى الخراف الأشباه بزمانها الذَّهبيّ. عندما انحدر الحال بالكلاب إلى العمل حُرَّاسًا تحت إمرة راع خروف، ما دفع بها إلى التَّحرُّك، سِرًّا، لتغيير وضعها المشين، ما اضطرَّها إلى الاتِّصال بالخراف الأشباه، وتوظيفها للقيام بأعمال رأتها الكلاب ضَروريَّة للتَّخلُّص من رَعويَّة الخروف تغبير، ثُمَّ إكرامها منتهى الكرم بسبب دورها البارز في تمكين الكلب زمجور من الإقعاء على صخرة الرَّعويَّة.

وقد ابتهج طنفس بالرِّسالة الشَّفاهيَّة.

وطنفس خروف شبه كلب، مُتطرِّف في مَحبَّته للكلاب، مُتطرِّف في كرهه للخراف الأصيلة؛ حتَّى أنَّه يَقصّ صوفه عن جسمه، مبقيًا على طبقة رهيفة منه، كي يبدو ناعمًا أملسًا ككلب؛ ويعقد حول أنفه بخيط، حتَّى يتَكوَّر كأنف الكلب؛ وقد حرص على دَقّ أصل قرنَيه بالصَّخر فأماته، بحيث لم يعد لقرنَيه فرصة في البزوغ؛ هكذا كاد رأس طنفس أن يصبح رأس كلب بالضَّبط، خصوصًا وقد شَدّ أذنَيه أسابيع لتشرعا منتصبتَين. ولو لا حوافره،

الَّتي استحال عليه تحويلها لمخالب، ولِيَّته، الَّتي لم يجد حَلًّا للخلاص من ثقلها، لأشكل على ناظره فاعتبره كلبًا. أمَّا إذا سمع صوته، فقط، فلن يَشكّ في أنَّه كلب قُحّ، ولدته أمُّه ينبح.

وقد ابتهج طنفس بالرِّسالة الشَّفاهيَّة، المحمولة إليه سِرًّا من الكلب الكبير زمجور. إذ فهم أنَّ مُجرَّد حمل هذه الرِّسالة إليه هو أمر له دلالات ثلاث، غاية في الأَهميَّة.

- إنَّ الكلاب بدأت تنظر إلى الخراف الأشباه على أنَّها خراف مُهمَّة في تحديد مصائرها.
- إنَّ زمجور، عندما يختاره من بين جميع كبار الخراف الأشباه، يُكرِّسه زعيمًا لها.
- قد بدأ العمل الفِعليّ في إزاحة هذا الخروف المُتخلِّف، الَّذي يؤمن بالتَّفاهة المُسمَّاة: الخراف الأعلام العباقرة؛ ويُجلّ التَّفاهة المُسمَّاة: المَحكيَّات المُقدَّسة؛ الَّتي لا هي مُقدَّسة ولا يحزنون، وإنَّما مفاهيم مُتخلِّفة، مُجرَّد الإصرار على اعتناقها يعرقل القطيع عن التَّقدُّم والتَّطوُّر.

ومع ابتهاج طنفس بدلالة حمل الرِّسالة السِّريَّة إليه، دون غيره من الأشباه، فإنَّه فوجئ مفاجأة غير سَارَّة بفحوى الرِّسالة.

همس الكلب المُوفَد في أذنه قائلًا:

- إنَّ كبير الحُرَّاس يرسل إليك بأرقّ تَحيَّاته، ويخبرك بأنَّ

الخروف المُعظَّم تغبير قد التقى به الليلة سِرًّا، وأفاده بأنَّ ما جاء في خطابه، بخصوص التَّخلُّص من الكلاب، ليس غير أمر دِعائيّ، لا يمكن تحقيقه على أرض الواقع؛ هو كلام قصد بقوله الحصول على أكبر قدر من الزَّعامة المطلوبة إذا كان مُضطرًّا لقيادة قطيع من الخراف. ولو الأمر انتهى عند هذا الحَدّ لما كان ضَروريًّا نقل هذه الرِّسالة إليك، أيُّها السَّيِّد الخروف طنفس، وإنَّما كبير الحُرَّاس، الكلب زمجور، فهم من كلام الخروف المُعظَّم تغبير ما رآه يُمثِّل خطرًا شديدًا عليكم أنتم معشر الخراف الأشباه. فقد قال تغبير له نَصًّا: أفهم أنَّ لوجود الكلاب ضرورة كبرى، كونها تحرس القطيع، لكن ما ضرورة وجود تلك الخراف الأشباه؟ الَّتي لا هي خراف أصيلة فتعمل لمصلحة الخراف، ولا هي كلاب أصيلة فتشارك في مَهامّ الحراسة والتَّنظيم.

ونظر الكلب المُوفَد في عيني طنفس المتأرجحتَين سخطًا، وقال:

- المُعظَّم تغبير قَرَّر طردكم من القطيع، وتشريدكم في الصَّحراء.

هكذا سارت الأمور؛ إذا كان أحدهم يطمع في الرَّعويَّة، ولا يملك أدوات الوصول إليها، فليعمل على تنشيط المؤامرات؛ والمؤامرات لا تؤتي ثمارها إلَّا إذا بدأ الطَّامع في الرَّعويَّة بشَقِّ لحُمة القطيع. أي تحويله من كيان واحد متماسك، مُتوحِّد، إلى كيانَين مُشتَّتين، متنافرَين، أو أكثر. ثمَّ ينتقي أشبه الكيانات به، فيُلحّ عليه بفكرته إلى أن يقتنع بها، ثم يعمل على ترسيخ هذه القناعة داخله حتَّى

يؤمن بها إيمانًا لا يَقلّ عن إيمانه هو شَخصيًّا؛ وقتها سينجح هذا الطَّامع في القبض على مقاليد الرَّعويَّة، وبمساعدة القطيع نفسه.

وكان، بعد مغادرة المُعظَّم تغبير لكهف اللقاءات السِّريَّة، أن تَحدَّث زمجور مع رفاق مجلسه التَّآمريّ بما سبق، ثُمَّ أضاف بتؤدة، وبنبرة نباح عميقة:

- على أنَّ التَّنظير سهل والكلام أسهل. والعمل صعب والمراد أصعب. وصدق الإرادة هو الميزان. وأنا أريد، والخروف تغبير يريد، والله يفعل ما أريد.

كان لتلك الكلمات الأخيرة وقعًا مهيبًا في نفوس رفاق مجلس التَّآمر، وقد شعروا بأنَّهم إزاء كلب مختلف؛ كأنَّه ليس ذلك الكلب عديم الشَّخصيَّة الَّذي عمل طوال الوقت في خدمة الحَاجّ يونس، فلم يبلغهم أنَّ أداءه، وقتها، يختلف عن أدائهم قيد أنملة.

لقد بزغت عَبقريَّته مؤخَّرًا، وها هي آخذة في التَّجلّي يومًا بعد يوم.

أذهلهم هذا الكلام الكبير، وأدركوا أنَّهم في مَعيَّة قائد عظيم؛ إذ ليس بمكنة كلب أن يقول كلامًا كبيرًا لو لم يكن يتَحلَّى بروح وقلب قائد عظيم.

وانتشى زمجور بنظرات الإجلال الَّتي بدأت تَشعّ من عيون الكلاب، فأضاف:

- أنا قضيت خمس سنوات أتَعلَّم الرَّعويَّة على أصولها من

الحَاجّ يونس. هل تعلمون؟ لم يكن للحَاجّ يونس أن يسيطر على القطيع لو لم يَشقّ لُحمته إلى كيانَين: الكلب، والخراف.

انظروا جَيِّدًا إلى الخراف، وانظروا جَيِّدًا إلى أنفسكم، لو فعلتم ستلاحظون أنَّ نقاط التَّشابه والتَّلاقي، بيننا والخراف، أكثر بكثير من نقاط الاختلاف والافتراق.

فكلانا مخلوقات تمشي على أربع قوائم، وكلانا له ذيل، وكلانا له أذنان طويلتان، وكلانا نأكل ونشرب بنفس الطَّريقة تقريبًا، فماذا لو كُنَّا نظرنا باعتبار لجميع نقاط الاتِّفاق العديدة هذه، وعملنا على موافقة نقاط الاختلاف القليلة؟

لم تُقدِّم الكلاب إجابة على السؤال، فواصل زمجور:

- الإجابة بسيطة: لو كُنَّا اتَّحدنا لما كان لدينا راعٍ بَشريّ يجمع كُلَّ خيرات القطيع، ويسطو عليها لنفسه، فيما يلهي الخراف بالرَّعي، ويلقي لنا بالفتات.

أصغى مجلس الكلاب التَّآمريّ تمامًا لحديث زمجور، موليًا إيَّاه كامل الانتباه، حتَّى أن كُلَّ كلب منها أغلق فمه تمامًا، لا يلهث. ونصب أذنيه تمامًا، لا يرخيهما.

حَكَم الخسيس شوفو عمل إيه
أَوَّل مـا سـاد راح مِـفـرِّق.
خـرفان شمال وخرفان يمين
خرفان مِغرِّب وخرفان مِشرِّق.
جـبَّار وحـالف مـِيت يمين

يـتـيـطاطـو يُـومًـن أحرّق.
روسانـهم يُحطُّـوهـا في الطّين
أو اقـطّـعـها لـيهـم واغَرّق.

أُخبِر المُعظَّم تغبير بأنَّ طنفس التقى زمجور سِرًّا، في كهف الجبل البعيد، فابتسم ابتسامة ساخرة، رغم أنَّ كلب السِّفارة، نقفور، أخبره بمضمون اللقاء، وكان خطيرًا للغاية:

لقد كشف طنفس لزمجور عن رغبة الخراف الأشباه، الأكيدة، في التَّخلُّص من المُعظَّم تغبير، الَّذي لا يتَوقَّف عن العمل على شَقِّ لُحمة القطيع إلى شِقَّين: خراف أَصيلون أعلام عباقرة، وخراف أشباه كلاب خونة وسفلة. هذا غير زعمه أنَّ تغبير يُبَيِّت النِّيَّة لطردها، وتشتيتها في الصَّحراء.

ابتسم تغبير ابتسامة ساخرة، ومريرة، في ذات الوقت، إذ لم يتَخيَّل أنَّ خرافًا من قطيعه، هو منها، وهي منه، مهما كانت أشباه كلاب، تخونه إلى درجة الاستعانة بالكلاب ضِدَّه، والعمل معها في الظَّلام ضِدَّه.

وهاله أن تثق تلك الخراف بكلاب يرى أنَّها لن تكون يومًا مَحلّ ثقة أَيّ مخلوق، فضلًا عن أن يكون هذا المخلوق خروفًا.

مع ذلك فقد نظر تغبير إلى نقفور بعينَين حائرتين، قبل أن يسأله بنبرة من ينتظر النَّصيحة من صديق مخلص:

- وما العمل؟ هل أستدعي طنفس، وأوَضِّح له الأمر لتذهب عنه تَخوُّفاته؟

هَزَّ نقفور رأسه، وقد بعج بين شفتيه كما يفعل اليائس، وقال:

- وهل تعتقد أنَّ كلبك الوَفيّ زمجور لم يحاول طويلًا إزالة تَخوُّفات طنفس! لكن ما طنفس هذا حتَّى تَهتمّ عظمتكم بتوضيح الأمر له، وإذهاب تَخوُّفاته عنه! كما تعلم، أيُّها المُعظَّم تغبير، إنَّه ليس غير خروف لعين يعشق المؤامرات والدَّسائس. ولعلَّ من المناسب الآن أن أخبرك بمعلومة سِرِيَّة جديدة: إنَّ الخروف طنفس يحسدك على منصب الرَّعويَّة، ويتَمنَّى لو يؤول إليه.

اتَّسعت عينا المُعظَّم تغبير تَعجُّبًا. وقال بمأمأة متشككة:

- ألم يكن تفسير هو من..

قاطعه نقفور بنبحة مُهذَّبة، قائلًا:

نعم. لكنَّنا اكتشفنا الحقيقة؛ لم يكن طرح اسم الخروف تفسير سوى محاولة لذَرّ الرَّماد في العيون، حتَّى لا نرى الهدف الحَقيقيّ.

كَرَّر المُعظَّم تغبير سؤاله، وقد صارت الحيرة تعصف به عصفًا:

- فما العمل؟

- خادمك المطيع زمجور أبلغني بأن أحمل إليك نصيحته المخلصة: اضرب بقُوَّة يا سَيِّدي؛ اضرب بقرنَين غير مرتعشتَين؛ فتلك الخراف الأشباه الخائنة تستَحقّ السَّحق، لا مُجرَّد التَّشتيت في الصَّحراء.

وعلى نفس المسار التَّآمريّ أظهر زمجور لطنفس تَفهُّمه التَّامّ لتخوُّفاته، وتعاطفه الكامل معها. كما أخبره، في ذلك اللقاء السِّريّ، بأنَّ الخراف الأشباه لطالما كانت مَحلّ احترام الكلاب، وموضع عنايتها. وطمأنه بأنَّ الخروف تغبير، مهما بذل من محاولات لتعكير صفو ما بين الكلاب وأشباهها الأَعزَّاء من علاقات صداقة متينة، لن ينجح في ذلك. ثُمَّ أشار عليه بضرورة العمل معًا لإقصاء هذا الخروف الغَبيّ عن سُدَّة الرَّعويَّة، اليوم قبل الغد، أو الغد قبل بعد غد، بأسرع ما يمكن، لأنَّ كُلّ يوم يَمرّ، بل كُلّ ساعة تَمرّ، دون زعزعة سلطة تغبير النَّاشئة، فإنَّها تُمنَح فرصة كي تَضرب بجذورها عميقًا، بحيث لا يمكن خلعه مستقبلًا.

ووَجَّه زمجور لطنفس سؤالًا مباغتًا، بنبرة هادئة وادعة:

- لكن؛ هل تُحبّ فعلًا أن يتَولَّى الخروف تفسير الرَّعويَّة بدلًا من الخروف تغبير؟

واستطرد بنبرة مصطنعة بالتَّعجُّب:

- أنا مندهش لخيارك هذا! كنت أعتقد أنَّك تُفضِّلها لنفسك، أو لأحد الخراف الأشباه، لا لخروف أصيل!

بدوره أبدى الخروف طنفس استغرابًا، وحرص على إظهار اندهاشه واسعًا جِدًّا، ومأمأ:

- لكن من أخبرك يا سَيِّد زمجور بأنِّي أرغب في استبدال الخروف تفسير بالخروف تغبير؟ عجبًا والله! دعني أقول لك

كما يقول الرُّعاة البشر: أحمد زَيّ الحَاجّ أحمد. وما أدهى من سيدي إلَّا سِتِّي! هل يفرق تفسير عن تغبير؟ كلاهما ينتميان لتلك النَّوعيَّة المُتكلِّسة من الخراف الأصيلة، المهووسة بتمجيد الماضي بأكثر مِمَّا تعمل للمستقبل.

وواصل بمأمأة مُحتدَّة:

- لكن من أخبرك بهذه الترَّهات يا سَيِّد زمجور؟

- كنت نقلت إليك أنَّ تغبير التقى بي، قبل أَيَّام، لقاءً حرص على أن يكون سِرِّيًا، هنا في هذا الكهف، وهو من أخبرني بما تزعم أنَّه ترَّهات. وقد طلب مِنِّي يد العون للتَّخلُّص منكم مُبكِّرًا؛ بل أَكَّد لي أنَّ هذا الأمر على رأس أَولويَّاته، درجة أنَّه هَدَّدني، تهديدًا مباشرًا، بأنَّني لو لم أعمل معه لإجلائكم فسَيضطرّ للعمل مع الذِّئاب.

فتح طنفس فمه وشهق، ونفر، وبَعَّر، وقال:

- إذن لقد بدأ هذا التغبير العمل الوسخ بأسرع مِمَّا تَوقَّعت!

وكأَيّ خروف شبه كلب، يجيد المسايسة، فيقرأ الرَّغبات في عيون مُحدِّثيه، ويجيد التَّمييز بين رَّغبة لو حَقَّقها لصاحبها تعود عليه بالنَّفع، وأخرى لو لم يُحقِّقها تعود عليه بالنَّفع؛ قرأ طنفس في عيني زمجور رغبته بوضوح، فقال بمأمأة جازمة:

- إنَّ جميع الخراف، الأصلاء منها والأشباه، بما فيها أنا، ليست الأكفأ لتَولِّي الرَّعويَّة؛ إنَّها جميعًا مُجرَّد قطيع يجيد الانقياد، لا القيادة.

ابتسم زمجور ابتسامة خفيفة، نَمَّت عن رضاه لما سمع، وهَزَّ رأسه مُؤيِّدًا وجهة نظر طنفس، الَّذي واصل بثقة:

- الكلاب هي الأكفأ للرَّعويَّة، وأنت أكفأ كلب.

انـت قـائدنـا وزعـيمنا
انت الـرَّاعي وحـاميـنا.
كُلّ المخاليـق تـبـيـعنا
وانت الرَّيس شـارينـا.
راعى كـلب مـا لُه نديـد
فِ مـرعـانا وحـوالينا.

ما الذي يدفع بأحدهم، أو بمجموعة، أو بفصيل، أو بطائفة، إلى العمل بدأب على شَقِّ الصَّف، وتمزيق لحُمة القطيع؟

يتَذكَّر زمجور كيف أحكم الحَاجّ يونس قياده بوصفه كلب حراسة، وأحكم قياد الخراف باعتبارهم قطيعًا.

في كُلِّ مَرَّة كان الكلب زمجور ينجح بأداء مَهامّه الأَمنيَّة يمنحه الحَاجّ يونس عظمة دسمة، مُلبَّسة بفتات اللحم، أو يُقدِّم له قعبًا مملوءًا باللبن الطَّازج؛ وكُلَّما جَدَّ أكثر في أداء مَهامّه، حتَّى أنَّ أداءه ربما تَطوَّر إلى حَدِّ استخدام القُوَّة المفرطة، ازداد تَودُّد الحَاجّ يونس إليه، وزاده من الأعطيات، وقَرَّبه إليه حتَّى لكَأنَّه صديق حميم.

وقد فَكَّر الكلب زمجور طويلًا في أنَّ نفور مخلوق، له أربع قوائم وذيل، من مخلوق مثله، له أربع قوائم وذيل، أمر مؤسف.

بل يَتعدَّى الأمرُ النُّفورَ إلى الاعتداء. بالعَضّ مَرَّة. بالخمش مَرَّة. بالنُّباح المخيف مَرَّة. أو بكُلّ تلك الوسائل مجتمعة مَرَّة، في حين يتَقرَّب حُبًّا، وشغفًا، لمخلوق مختلف عنه تمامًا؛ بقائمَتين اثنتين فقط، وبدون ذيل.

ولم يجد تفسيرًا لهذا الأمر العجيب سوى أنَّ هذا المخلوق، عديم الذَّيل، ناقص القوائم، قد قَدَّم له من المكتسبات المغرية ما لم، ولن، تستطيع ذوات القوائم الأربع والذّيول تقديم أقَلّ القليل منها؛ وحتَّى لا يُفوِّت تلك المكتسبات، عليه الاستمرار بأداء مَهامّه الأَمنيَّة المُشدَّدة تجاه القطيع.

ويُقرّ الكلب زمجور لنفسه، دون خجل أو مِثاليَّة مُدَّعاة، بأنَّه كان، وسيَظلّ، على استعداد دائم لممارسة ما هو أَشدّ من إجراءات القمع، لو أنَّ ذلك يضمن بقاء مكتسباته كاملة في حوزته، والاستحواذ على المزيد منها.

بيد أنَّ زمجور، فيما يُخطِّط للتَّخلُّص من الخروف تغبير، الَّذي اختاره الحَاجّ يونس للرَّعويَّة دونه، شعر بقلبه يدفُق دمه ممزوجًا بالحزن والأسى، كونه خُدِع، وكونه اُستغِلّ. فقد اعتقد، لطول عشرته بالإنسان، أَنَّ حُبًّا حَقيقيًّا يُكنّه الرُّعاة البشر للكلاب، غير أنَّ الزَّمن كشف له عن خلاف ذلك: لا حُبّ، أو صداقة حَقيقيَّة، يمكن أن يمنحهما الرَّاعي للعاملين في خدمته، وإن أخلصوا له إخلاص الكلاب.

ويدرك أنَّ مَهامَّه، المنوط به إنجازها، كان سَيؤدِّيها على أكمل وجه، وإن بدون حُبٍّ أو إخلاص متبادلَين، إذا كان لا سبيل إلى الاحتفاظ بمكتسباته غير إنجاز ما أنيط به، مع ذلك وَدَّ لو لم يعش مخدوعًا.

لكن، هل يلتمس العذر الآن تحديدًا للحَاجّ يونس، وها هو بدوره يمارس ذات الخداع نفسه، والتَّملُّق نفسه، والاستغلال نفسه، مستخدمًا الخراف الأشبه بالكلاب، كأفضل الوسائل لتنفيذ مؤامرته؟

حَكَّ بمخلبه الأيمن حشرة تقرص رقبته حَكًّا عنيفًا، ثُمَّ نظر بعيدًا، ناصبًا أذنيه، وهمس لنفسه همسًا لائمًا:

- يا له من أمر مشين.

وعطس، وأقعى، وسمع دخيلته تسخر منه:

- كأنَّ المؤامرات لا تُنجَز بدون الكلاب، أو أشباه الكلاب.

وإن كان الحفاظ على المكتسبات يستلزم شَقّ الصَّف، وتمزيق لحُمَة القطيع، فإن حفظ الحقوق يستلزم ما هو عكس ذلك: توحيد الصَّف، ولأم لحُمَة القطيع.

وإذا كان القطيع على الحقيقة هو المئات من الخراف، والنِّعاج، والحملان، فإنَّه لن يسعى مطلقًا إلى شَقّ صَفّ نفسه، أو تمزيق لحُمته، خَاصَّة وأنَّ الخراف لا تُعنَى بهذا الأمر من الأساس، ولا تفهمه بالمجمل، ولا بالتَّفصيل.

ما يفهمه القطيع مجملًا وتفصيلًا هو حَقّ الرَّعي، وحَقّ المبيت. فإذا ما تَوفَّرا فقد حصل الخروف على حقوقه كاملة، ونام قرير العين.

لكن؛ ماذا عن المضايقات الأَمنيَّة الَّتي تُهدِر بها الكلاب كرامة الخراف؟ أليس من حقوق الخروف، الَّتي يكفلها القطيع لأفراده، أن يعيش بكرامة مُصانة، إذا كانت الكرامة المُصانة ضَروريَّة لحياة حُرَّة؟

لسبب غير مفهوم، إلَّا أن يكون طبيعة خِلقيَّة، أو محض نشاط بَيولوجيّ، اتَّفقت الخراف على أنَّ الاهتمام بالكرامة شأن المُرفَّهين، لا شأن الكادحين أمثالها.

واتَّفقت على أنَّ الشَّيء اللازم لاستمرَاريَّة الحياة، بحيث إذا فُقِد حَلَّ الموت، هو الشَّيء الَّذي يمكن رؤيته بالعين، ولمسه بالحافر، عدا ذلك أمور مَعنويَّة، وملحقات، ليست ذات ضرورة مُلحَّة!

هكذا، وعلى هذا المقياس الخِرفانيّ، ليس من شيء يمكن وصفه بالحَقِّ سوى الطَّعام، والشَّراب، والمبيت؛ فهذه الثَّلاثة حقوق تُرَى وتُلمَس، وإن فُقِدت حَلَّ الموت. أَمَّا الكرامة والحُريَّة، وأمثالها من المُسمَّيات المغرية للمُرفَّهين، فليست بحَقٍّ أصيل، وإنَّما ملحقات مَعنويَّة، مهما فُقِدت تَظلّ حياة الخروف مُستمرَّة، خصوصًا وأنَّ الخراف دائمًا ما تستطيع الاستمتاع بحياتها، مهما كانت حياة فقيرة ومضغوطة؛ إنَّها قادرة على ابتكار ما يُحقِّق لها العِزَّ والشَّمم مهما تَعرَّضت لمحاولات الإذلال.

فعلام تتناطح كباشها، فيما بينها، إن لم يكن من أجل الحصول على العِزّ والشَّمم؟

إنَّ الكبش الَّذي يُجبِر نديده على الاستسلام يحوذ صيت الشَّجاعة والفُتوَّة، ويمشي في القطيع يتبختر، يُنقِّل قوائمه الأربع على الأرض بتؤدة راعٍ مهيمن، تترجرج لِيَّته بتثاقل فخيم؛ ومهما هاجمته الكلاب بعد ذلك، وأذَلَّته بالعَضّ والخمش، وأسقطته على الثَّرى، ومَرَّغته في التُّراب، وهزَّأته، فإنَّ الخراف تظَلّ تنظر إليه بإكبار وإعظام لأنَّه، بدوره، هَزَّأ كبشًا قَويًّا، وفي هذا عِزٌّ، وشمم، يُعوِّضانه عن إذلال الكلاب له.

هذا غير انتصارات الكباش في مواقعاتها الحميمة للشِّياه والنِّعاج.

إنَّها الانتصارات العظيمة بحَقّ، فبحكم الخبرة المكتسبة بمرور الزَّمن وتكرار التَّجارب، تعرف الكباش أنَّ مواجهة شاة، أو نعجة، بممارسة عَاطفيَّة، أشَدّ شراسة من مواجهة كلب بمناطحة تقَاتليَّة. فالأنثى تناور دون تعب، تتَهرَّب من اشتباكات الحُبّ، ويظَلّ الكبش يطاردها أوقاتًا طويلة، بصبر وبنفاد صبر، يحمحم، ويمأمئ، وينطح، ويرفس؛ في حين مواجهة الكلب لا تستلزم أكثر من إشراع القرنَين، والمناطحة على الفور. لكن إن انسجمت النَّعجة، أو الشَّاة، بتواصلها الحميم مع الكبش، فإنَّها تنظر إليه نظرة رضا مكسورة بخضوع مائس؛ وهي النَّظرات الَّتي ينتظرها بشغف، لأنَّها تمنحه كُلّ العِزّ، وكُلّ الشَّمم، مهما تعَرَّض لإذلال الكلاب.

كما تواجه الخراف عسف الكلاب بالمرح، وإن كانت طرقه مسدودة.

ومرح الخراف في الطَّعام والشَّراب، وإن افتقدت أطعمتها الأسَاسيَّة، الطَّريَّة، اللذيذة، المُغذِّية، كالبرسيم وحبوب الذُّرة، إنَّها لا تتَأزَّم، وتحاول الإبقاء على روح المرح، فتتَفنَّن في أكل ما لا يمكن أكله، ومهما ضَلَّت الطَّريق إلى الشَّبع والرواء، فإنَّها تستلقي لتَجترّ بهدوء وتَنعُّم، رغم أنَّها جائعة.

والأعجب أنَّ في قلب مأساة الجوع، أو في قلب مخاطر هجوم الذِّئاب، يمكن للمراقب رؤية خروفَين يلعبان لعبة المناطحة، أو شاة تحنو على حملانها وهي تحمحم في آذانها، تُغنِّي لها أغنية سعيدة.

في قلب مأساة ظلم الكلاب للخراف، تجد الأخيرة راغبة عن التَّكلُّم فيما تتَعرَّض له من ظلم، وراغبة في سماع المَحكيَّات الطَّريفة، المبهجة، والمضحكة.

ومعظم الخراف على هذه القناعة، غير أنَّ الخراف الأشباه ليست على نفس القناعة، إذ تعتبر تلك السُّلوكيَّات مسالك هرب من واقع أليم. إنَّ الخراف الأشباه، ولتَمتُّعها بسمة الذَّكاء، تعرف أنَّ الحُريَّة حَقٌّ، والكرامة حَقٌّ، والرَّفاهية حَقٌ؛ وجميعها حقوق أصيلة، لا ملحقات، ليست أَقلّ أَهميَّة من الحقوق الثَّلاثة الأولى، إن لم تكن أعظم منها.

ولو أنَّ الخراف الأشباه عملت على توعية مجمل الخراف ببَقيَّة حقوقها، وبذلت الجهد والصَّبر في سبيل هذا الهدف الخِرفانيّ النَّبيل، لا أن تلقي بنفسها في أحضان الكلاب، كي تستأثر بتلك الحقوق لنفسها دون سائر القطيع، وبطرق مشينة، لكانت هي الخراف الأنبل على الإطلاق. لكنَّها، ولفرط خِسَّتها ووضاعتها، كُلَّما رأت خروفًا أصيلًا، يستلقي على جنبه وقت الاستراحة، وينظر إلى الأفق ببلادة، فيما لا يتَوقَّف فَكَّاه عن الاجترار، تهامست فيما بينها برغاء ساخر:

- هل لمثل هذا الخروف، المُعتزّ بحَقّ المعدة في الامتلاء بالطَّعام والشَّراب، وحَقّ الفم في الاجترار الهانئ، وحَقّ الإست في التَّبعير، أن يفهم حقوق الحُريَّة، والكرامة، والتَّرفيه؟

صاح أبيض الهِلِّي:

- كان تعسير يستمع لحديث تعذير بعقل صغير، وكُلّ صغير ناقص؛ والعقل الناقص يتعاطف مع المغلوب والسَّلام، خصوصًا إذا كان المغلوب خروف من جنسه؛ لكن يا إخواننا منذ متى يدوم الحال! منذ متى يظَلّ الصَّغير صغيرًا؟ دوام الحال من المحال، والصَّغير يكبر، وجميع شيء يبدأ صغيرًا ويكبر، عدا الحزن على الأموات، من رحمة الله يبدأ الحزن كبيرًا ويصغر.

وقولي يا ربابة.

صاح خفاجة:

- قولي يا ربابة، يا بنت دين الكلب.

أخذت النِّهاية المريعة لتعسير في التَّشكُّل حين اكتمل نضجه العَقليّ، وصار ينتبه لما لم يكن ينتبه إليه من قبل.

بدأ الأمر عندما شعر يومًا بالظَّمأ، فذهب إلى النَّهر ليشرب، وصادف أن كانت الرِّيح ساكنة، والماء راكد، فظهر سطح النَّهر أملسًا، صقيلًا، كأفضل مرآة.

قَرَّب تعسير فمه من الماء، فرأى انعكاس وجهه؛ لا شيء جديد، لقد اعتاد رؤية وجهه واضحًا حين ركود النَّهر، ومواصلة الشُّرب دون اهتمام، فيُهيِّج مِشفرا فمه مويجات صغيرة، على صغرها تداهم صورة وجهه، فتربكها، وتُشوِّهها.

هذه المَرَّة، وفي لحظة من تلك اللحظات الفارقة الَّتي تَعرِض لأَيّ مخلوق، قَرَّب تعسير فمه ليشرب، فلم يشرب، بل خنس للوراء مفزوعًا، كأنَّه فوجئ بتمساح يُوشِك على قنصه، أو أفعى تُوشِك على عَضِّه.

ولأنَّ الأمر ليس كذلك عاد يقترب بحذر، ونظر في صفحة الماء.

كان مأخوذًا، يُمعِن نظره فيما يراه مذهولًا. إنَّه يطالع وجهه! مع ذلك لم يكن ذات الوجه الَّذي طالعه لمئات المَرَّات السَّابقة، وإن احتفظ بنفس سماته: الأنف المستطيل. مِشفرا الفم العريضان. العينان المنزاحتان إلى المنطقة الخَلفيَّة من جانبَي رأسه. والأذنان الطَّويلتان.

لقد انحرفت ملامح وجهه، فلم تعد هي الملامح نفسها الَّتي اعتاد مطالعتها، صارت أقرب إلى ملامح وجه كلب منها إلى ملامح وجه خروف.

فها هو أنفه، والمفترض به أن يكون منبسطًا واسعًا، ينتهي مُكوَّرًا قاتمًا. مِشفرا فمه ليسا عريضَين، بل ضَيِّقين. عيناه ماكرتان، في حين أن عينَي أَيّ خروف وديعتان ساذجتان. كما أنَّ أذنيه لا ترتخيان إلى جانبَي رأسه في دعة وتكاسل، بل تنتصبان نصف انتصاب أذنَي كلب.

أمعن تعسير النَّظر في صورة وجهه المنعكسة على سطح ماء النَّهر، فتَأكَّد من أنَّه ليس واهمًا.

إنَّ وجهه ورأسه يشبهان وجه ورأس كلب!

وللتَّوّ أدرك مغزى تلك النَّظرات القلقة، المُتشكِّكة، الَّتي ما فتئت سميرة تُحدِّجه بها كُلَّما رأته؛ كما أدرك سبب السُّؤال الَّذي لا تني تُوجِّهه إليه كُلَّما التقته:

- هل تجالس الكلاب أو أشباهها من الخراف يا ولدي؟

يا لها سميرة من شاة أصيلة، تعشق خِرفانيَّتها، صادقة الانتماء لها؛ غيرها من الشِّياه الأُمَّهات، ومهما أبدت من كره ومقت للكلاب، كانت ستقيم الأفراح، وتُحيي الليالي الملاح، لو اكتشفت أنَّ ملامح وجه ابنها تنحرف عن ملامح وجه خروف إلى ملامح وجه كلب.

لم لا؟ وهو الانحراف الَّذي يُغيِّر المصائر تغييرًا جِذريًّا، من خروف فقير، ذليل، مُستغَلٍّ، إلى خروف غَنيٍّ، مهيمن، مُستغِلٍّ؛ من خروف ينتمي لقطيع كبير من الخراف المُستحقَرة، إلى خروف ينتمي لطبقة صغيرة بحوافرها مجريات أمور الرَّعويَّة والسُّلطة؛ من خروف مُستعبَد، إلى خروف مُستعبِد.

لكن سميرة تعشق خِرفانيَّتها، لدرجة إيمانها بأن السِّيادة للخراف لا للكلاب؛ لأنَّ السَّيد هو من يمكنه الاعتماد على نفسه كي يعيش، لا من يعتدي على الآخرين كي يعيش. والخروف هو من يعيش دون اعتداء على الكلب، بينما الكلب لا يستطيع العيش لو لم يعتدِ على الخروف. الخروف لا يسرق الكلب، أمَّا الكلب فإنَّه يسرق الخروف.

ولم يعرف تعسير إن كان يفرح لانحراف ملامح وجهه إلى مَلامح وجه كلب أم يحزن.

ففَكَّر:

- ربما الأحرى بي أن أفرح.

لكن سرعان ما لام نفسه:

- كيف أفرح وقد عرفت السَّبب الَّذي جعل معظم الخراف، والنِّعاج، والحملان، لا توليني ثقة الأصدقاء، ولا تمنحني مَحبَّة الأقارب الحميمين.

ثُمَّ فَكَّر:

- بل ربما الأحرى بي أن أحزن.

لكن سرعان ما لام نفسه:

- لِمَ أحزن وقد عرفت السِّرَّ في أنّ معظم القطيع، وإن لم يولني ثقة الأصدقاء، أو يمنحني حَميميَّة الأقارب، يُظهِر لي قدرًا عظيمًا من المهابة والخضوع؛ ما إن يروني حتَّى تتَلبَّسهم أرواحهم الذَّليلة، الخاضعة للكلاب.

وفيما تعسير يَشمّ رمال الإقطاع المُعيَّن له كمرعى، باحثًا عن نبتة شجيرة، أو شذر عشب، فَكَّر في أنَّ الموضوع لا يَستحقّ الحيرة، الموضوع على أوضح ما يكون، وليس عليه سوى الاختيار.

إذا أراد ثقة الخراف، وحَميميَّتها، فليحزن لهذا الشَّبه.

إذا أراد تَهيُّب الخراف، وخضوعها، فليفرح.

وذات مَرَّة طالع صورته على سطح النَّهر، فسألها بمنتهى الحيرة:

- يا تعسير، يا تعسير: الثِّقة والحَميميَّة، أم المهابة والخضوع؟

الثِّقة والحَميميَّة جَدّ شعوران رائعان؛ فما أجمل أن يستحوذ الخروف على ثقة خروف صديق، أو يُكنّ له مشاعر حميمة، مع ذلك، لطالما أثبتت الأحداث أنَّ الثِّقة والحَميميَّة، على روعتهما،

شعوران هَشَّان، سريعا التَّحطُّم والانهيار، حتَّى أنَّ الخروف يفقد ثقته في صديقه بسهولة وسرعة! وبالسهولة والسُّرعة نفسهما تزول الحَميميَّة عن عِشرة عمر ربطت بينهما، ولأتفه الأسباب.

وليت الأمر يقف عند حَدّ قطع العلاقات؛ لا. للأسف، إنَّ كثيرًا من هؤلاء يتَحوَّلون إلى أعداء! يتبادلون الشَّك، والبغض، والأعمال المسيئة، بغِلِّ الكارهين الحاقدين.

أَمَّا المهابة والخضوع، على ما يكتنفهما من غموض، فهما للكلب، مهما ضؤلت قيمة هذا الكلب أم عظمت. مهما كره كلبٌ كلبًا مثله أو أَحبّه. وثق به أو شَكّ فيه. مهما جرى بين الكلاب من مناوشات وخصومات فإنَّها تَظلّ تُقدِّر بعضها.

لهذا، ما على تعسير لو أنَّه فرح لشبه وجهه بوجه كلب؛ ما عليه لو تَمنَّى أن يشبه قلبه قلبَ كلب، أو يشبه عقله عقل كلب.

صاح الشَّيخ أبيض الهِلِّي:

- وما عليه الخروف تعسير لو تَمنَّى أن يكون كُلّه مثل كُلّ الكلب؟

أجابه خفاجة بصوت الإوزة:

- كله يبيع ولا يشتري. أولاد قحايب.

قبل أن يغادر طنفس كهف المؤامرات اقتنص وعدًا بالحصول

على أهمّ مكتسب، إذا قامت الخراف الأشباه بمساعدة الكلاب في إزاحة الخروف تغبير عن صخرة الرَّعويَّة، وتمكين الكلب زمجور منها.

ولم يكن مُتصوَّرًا أنَّ يطالب طنفس بأيّ مقابل تلقاء ما وعد بتقديمه من خدمات؛ فهل لمقابل، مهما بلغت قيمته، أن يساوي الشَّرف العظيم الَّذي اشتمله بمشاركة الكلاب في تنفيذ خُطَّة عمل مشتركة؟ أيّ مكانة معتبرة، قد صارت للخراف الأشباه، حين تُكلّفها الكلاب بإنجاز الجزء الأهمّ من خُطَّة تحرير عظيمة، لن يمكن للمَحكيَّات تجاوزها مستقبلًا؟

وكان «بهنس» خروفًا شبه كلب مُنظِّرًا، أشتهر عنه النَّظر في العلاقات بين الخراف والخراف، وبين الخراف والكلاب، منشؤها، وحاضرها، ومستقبلها، وانتهى نظره فيها إلى أنَّ أبناء العمومة فُطِروا على معاداة بعضهم بعضًا بأشَدّ ما يعادون الغرباء. فالخراف، مع إحساسها الرَّاسخ بتعاليها على الكلاب، إلَّا أنَّها لا تناطحها لإنفاذ هذا التَّعالي، في الوقت ذاته لا تكُفّ عن التَّناطح فيما بينها لإنفاذ هذا التَّعالي، والحصول على الفخار.

لهذا قَرَّر الخروف المُنظِّر، شبه الكلب، المدعو بهنس، أنَّ سيادة الخراف الأشباه، على جميع الخراف، مرهونة بتحالفها مع أعداء لا يناطحونها، لا مع أبناء عمومة يناطحونها طوال الوقت؛ سيَّما وأنَّ أبناء العمومة دهماء، غوغاء، جهلاء، فيما الأعداء نبهاء، أذكياء، عقلاء.

وكان بهنس قد سمع كلمة عظيمة من الحَاجّ يونس، قالها ذات يوم لزوجته سعدى، قبل أن تغادره إلى الأبد:

- عَدوّ عاقل خير من ابن عَمّ جاهل.

هكذا؛ الكلب أفضل للخروف الشَّبه من الخروف الأصيل.

وقد سمع بهنس، من الحَاجّ يونس، كلمة أخرى عظيمة، قالها لسعدى:

- الطُّيور على أشكالها تقع.

فإذا صح ذلك، فللخراف أشباه الكلاب أن تقع على الكلاب، وتتحالف معها ضد الخراف الأصيلة التي لا تشبهها.

وقد سمع بهنس كلمة أخرى عظيمة، قالها الحَاجّ يونس لسعدى أيضًا:

- من جاور السَّعيد يسعد.

والكلاب هي الكائنات السَّعيدة الَّتي لا تعمل، مع ذلك يسقط حصاد عمل غيرها في حجرها؛ على هذا تكون الخراف الأشباه أغبى المخلوقات لو ذهبت تجاور خرافًا فقيرة، شَقيَّة، وتترك مجاورة السُّعداء.

واستنادًا لتنظير بهنس الدَّقيق، قرَّر طنفس العمل مع الكلاب بضمير مرتاح، وبمنتهى الجِدّ.

وكان زمجور محتاجًا بشِدَّة لمساعدة طنفس وعشيرته من الأشباه؛ يحتاجها لدرجة أصابته بقلق غير مُبرَّر، وتَخوُّفات من

أن يرفض هذا الشَّبه الحقير العرضَ لو بقي عرضًا مَجَّانيًّا؛ ولم لا يرفض العمل التَّطوُّعي وهو بالأساس خروف أشبه بكلب؛ أي: لن يعمل جَيِّدًا إلَّا إذا لُوِّح له بعظْمة.

لَوَّح زمجور لطنفس بالعَظْمة، حين ابتسم قبل إنهاء اللقاء، وقال:

- أنتم مِنَّا أيُّها الخراف الأشباه الأَعزَّاء، ونحن منكم؛ وكما ترى فإنَّ القطيع يتجاوز عدده بضع مئات، ونحن ككلاب حراسة أَقلّ عددًا من أن نُحكِم السَّيطرة على أمن القطيع خَارجيًّا ودَاخليًّا، ما يعني أنَّنا سنحتاج إلى مُستخدَمين كبار لوظائف الحراسة والتَّنظيم، ولا أَظنّ أنَّ هناك من يقوم بهذه المُهمَّة أفضل منكم.

على هذا، في ترتيبات الخُطَّة التَّآمريَّة، المُستهدِفة لإسقاط رَعويَّة المُعظَّم تغبير، أُوكِلت إلى الخراف الأشباه مُهمَّة جسيمة: إثارة القلاقل.

وما إن غادر طنفس كهف المؤامرات، يكاد يطير فرحًا، يهرول على قوائمه الأربع كأنَّه يرقص، تتأرجح لِيَّته كبندول ساعة منفلت، تتدحرج بعراته خلفه، يتَمنَّى لو كان له جناحان مثل الصُّقور، فيطير بهما إلى فصيلته، ويخبرها بالمجد العظيم الَّذي حظيت به، حتَّى نظر طغفور إلى زمجور نظرة حيرى، وقال بنبحة ضيق:

- كأنَّك ترى الكلاب عاجزة عن إثارة القلاقل، فتستعين بتلك الخراف الأشباه الحقيرة!

بالطَّبع ليس أقدر من الكلاب على إثارة القلاقل وتكدير أمن القطيع، فهي تملك جميع قوى التَّخويف والإرعاب: أنياب عَاضَّة قاطعة. مخالب جارحة خامشة. حنجرة نباح مزمجر مزعج. هذا غير أنَّ نظام تشغيل عقولها تَآمريّ بالفطرة، إن كانت خُلِقت للحراسة والتَّأمين.

مع ذلك، لو أنَّ الكلاب تملك ذكاءً بَنَّاءً، لا ذكاءً هدَّامًا، لكان طغفور أدرك أنَّ إثارة القلاقل عمل دقيق، أهَمّ خطواته وضع وتخطيط الأفكار الدَّنيئة، ومن أهمّ أسس وضع وتخطيط الأفكار الدَّنيئة ألَّا يكون التَّنفيذ بيد واضع الخطط نفسه.

وقبل قليل كان الكلب زمجور قد بَيَّن لرفاقه عِلَّة رفضه قيام الكلاب بأيّ أعمال عنيفة في هذا التَّوقيت الصَّعب. في هذا المنعطف الزَّمنيّ الخطر. في هذا المنحنى الزَّلق. فأخبار قطيع: أوسط ما وراء النَّهر؛ وإن كان قطيعًا بعيدًا عن أقرب عمران، تصل بشكل أو بآخر، بعمد أو بدون عمد، استخبَاراتيًّا أو اعتبَاطيًّا، إلى رعاة القطعان المحيطة من البشر.

ويُتوقَّع أنَّ أولئك الرُّعاة، ما إن تصلهم الأخبار عن كلاب ذلك القطيع البعيد، وكيف أنَّها مارست أعمال عنف، قصدت بها إثارة القلاقل، وتكدير أمن القطيع، أُزِيـح على إثرها الخروف الَّذي نصَّبه الرَّاحل الحَاجّ يونس راعي الرَّعويَّة، ليستولي عليها أحد الكلاب، حتَّى يسارعون بطرد جميع كلاب حراسة قطعانهم، لتهيم جوعًا في الصَّحراء، ما قد يدفع بها إلى الزَّحف نحو أراضي:

أوسط ما وراء النَّهر؛ وغزو قطيعها البائس.

وها هو زمجور يضيف سببًا آخر، لا يَقلّ أَهميَّة، إلى أسباب رغبته في قيام الخراف الأشباه بالمَهامّ القذرة، لا الكلاب.

قال مُحدِّقًا بعينَين نَاريَّتَين في عينَي طغفور:

- إذا قامت الكلاب بإثارة القلاقل، وتكدير أمن القطيع، فهذا يتنافى مع الواجب المنوط بها؛ لأنَّ واجبها يُحتَّم عليها تأدية دورها النَّبيل لصالح استقرار القطيع وتنميته، ويجب أن تَظلّ هذه الصُّورة الوجيهة قائمة طوال الوقت. لكن، إذا كُنَّا نؤمن بأنَّ خلاصنا من الخروف تغبير هو من صميم أداء واجبنا، فإنَّ الغَالبيَّة العظمى من خراف القطيع لن تقتنع بإخلاصنا لواجبنا إذا قمنا نحن بالأعمال القذرة، إنَّها خراف غبيَّة، مهما أحدث خروفها البليد تغبير، فإنَّها ستتعاطف معه في حال انتبهت إلى أنَّنا نعمل ضِدَّه، وربما يتَحوَّل في أنظارها من راعٍ فاشل إلى زعيم مناضل، حينها ستصعُب مُهمَّتنا، لتمسي مُهمَّة مستحيلة التَّحقُّق، ما قد يُؤدِّي بنا إلى خسارة ليس معلومًا درجة فداحتها.

ونظر زمجور إلى خارج فُوَّهة مدخل الكهف، فرأى الرِّمال تَمتدّ بلا حَدّ، والشَّمس ترتفع في شروقها زاهية ذَهبيَّة؛ واستطرد مبتسمًا بخبث:

- لكن، إن قامت الخراف الأشباه بالعمل، فهي أَوَّلًا وأخيرًا خراف؛ من جنسها وعليه، فلتقم بالعمل القذر إذن، ولننتظر

القطيع وهو يصرخ ألمًا، يرجونا الخلاص من خروفه المُعظَّم.

ولم تلبث أن تَفجَّرت القلاقل بالفعل.

وسَيضيف حكماء خراف قطيع: أوسط ما وراء النَّهر؛ إلى مَحكيَّاتهم أنَّه على طول الزَّمان لم تَمرّ بهم أيَّام سوداء كأيَّام الأسابيع الثَّلاثة الأولى من رَعويَّة الخروف المُعظَّم تغبير.

لقد عاشت خراف، هذا القطيع، سنين طويلة، في مراعٍ عديدة، لم يقع خلالها غير حادث، أو حادثَين، صغيرَين، دَمويَّين، طارئَين، لم يزد عدد ضحاياهما على خروفين، أو ثلاثة، بيد أنَّ أكثر من عشرين حادثًا دَمويًّا، كبيرًا، ترادفت وقائعها الفظيعة في تلك الثَّلاثة أسابيع المشؤومة.

كُلّ يوم حادث مفجع.

وها إشارات لبعض منها، على سبيل المثال، لا الحصر:

- العثور على جُثَّة خروف من الأشباه مُمزَّقة الأطراف أسفل صخرة الرَّعويَّة. ولم تتَوصَّل التَّحقيقات إلى أسباب الجريمة. كما لم تستطع الكلاب القبض على الجاني.
- نشوب مناطحة مهولة بين مجموعة من الخراف الأصيلة، بسبب صراع افتُعِل افتعالًا على حقوق الرَّعي، ما أَدَّى إلى دهس ثلاثة حملان رضيعة ومصرعها. ولوحظ أنَّ الكلاب لم تتَدخَّل في الوقت المناسب من المشاجرة لتَحدّ من

تفاقم المناطحة.

- مجموعة من الخراف المُؤيِّدة للمُعظَّم تغبير هاجمت مجموعة من الخراف الأشباه؛ بعد أن ورد للأولى ما يفيد بأنَّ الأخيرة تقوم بأعمال قذرة تستهدف زعزعة الرَّعويَّة، ما كان نتيجته بقر بطون ثلاثة خراف من الجانبين؛ وقد انطرحت الخراف المبقورة تحت أغصان شجر المرعى بين الحياة والموت. وبَرَّرت الكلاب عدم تَدخُّلها لفَضّ المشاجرة بأنَّها اعتبرت الأمر خلافًا عَائليّا، ولم تشأ التَّدخُّل حتَّى لا يتَطوَّر الأمر إلى ما هو أفدح.

- إعدام خمسة خراف، وشاة واحدة، بعد إخضاعها جميعًا لمساءلات عاجلة وإدانتها. وكانت السِّتَّة خراف اتُّهمَت بجلب الرَّمل السَّامّ من سفح الجبل، ونثره في أراضي المرعي الخَاصَّة بالخراف الأشباه، بقصد تسميمها، ومن ثَمَّ القضاء عليها، لتصفو الرَّعويَّة للخروف تغبير، دون معارضة حَقيقيَّة وبَنَّاءة، ما أَدَّى إلى تَسمُّم سِتَّة وأربعين خروفًا، مات منها عشرون. ولوحظ أنَّ الكلاب سارعت بتنفيذ الحكم المُتعجِّل، وبطريقة إعدام بشعة.

- محاولة اغتيال المُعظَّم تغبير. عندما فوجئ، في فجر اليوم التَّاسع من رَعويَّته، بأربع أفاعٍ سوداء، تتَسلَّل إليه بِخفَّة، إلَّا أنَّ العناية الإلَهيَّة أدركته في الثَّواني الخمس الأخيرة، عندما استفاق من نومه على نباح متناوم لكلب حراسة

كسول. حينها قفز تغبير مغادرًا مكانه بسرعة البرق، لكن الأفاعي الَّتي لم تكن تعلم أنَّها أُطلِقت لاغتيال تغبير، تحديدًا، ظَنَّت أنَّها موكلة باغتيال أَيّ خروف غيره، فعَضَّت سبعة خراف، ما أَدَّى إلى وفاتها في التَّوّ والحال. ورَجَّحت تحقيقات كلاب التَّنظيم أن يكون الحادث قضاءً وقدرًا، لا يد للإرعاب الأسود فيه.

وإذا كان العديد من الخراف قد سقط، ضَحيَّة للأحداث الدَّمويَّة المتتابعة، فقد سقط شرفها ضَحيَّة جرائم جِنسيَّة أَشدّ قهرًا وفتكًا؛ عندما تَكرَّرت حوادث خطف، واغتصاب، النِّعاج الصَّغيرة، والشِّياه الَّتي لم تزل محتفظة بجمالها وفتنتها، قبل العثور على بواقي جثثها، مُتفرِّقة في الأنحاء البعيدة من الصَّحراء.

كما خُطِفت حملان كثيرة، ولم يكن مصيرها بأفضل من مصير النِّعاج والشِّياه: اغتصاب، وقتل، وافتراس لأجزاء كبيرة من جثامينها.

من الَّذي نَفَّذ جميع تلك الحوادث، من افتعال مشاجرات، ومحاولات اغتيال، وتسميم، وخطف، واغتصاب، وقتل، إذا كانت الكلاب تعلن دائمًا أنَّ واجبها النَّبيل كحُرَّاس للقطيع ينأى بها عن ارتكاب مثل تلك الجرائم الخسيسة؟ وإذا كانت الخراف تمقت العنف، ولا تستطيع القتل؟

هل هي الخراف الأشباه؟

لا يمكن، لأنَّ عَقليَّة هذه النَّوعيَّة من الخراف أذكى من أن تُفكِّر في

القتل بشكل مباشر. وتُفضِّل سفك الدَّم بحوافر غيرها، لا بحوافرها.

هناك أمر ملغز!

واستمرارًا لتنفيذ ما ورد في الاتِّفاق السِّريّ، من تكدير لأمن القطيع، ونشر للقلاقل في ربوعه، أطلقت الخراف الأشباه العديد من الشَّائعات المغرضة، وأشاعت العديد من التَّوقُّعات الخبيثة، واستعرضت العديد من التَّحذيرات الماكرة. منها، وكانت أخطرها:

إنَّ المُعظَّم تغبير يدرس، جِدِّيًا، مقترحًا يهدف إلى إبادة جنس الخراف لصالح جنس الكلاب، بزعم العمل على نماء الخراف، وذلك بواسطة تنظيم النَّسل! وأن المقترح هو: حصر أعداد الخراف الذُّكور، والاقتراع فيما بينها على إخصاء تسعة خراف من كُلّ عشرة. والتَّوقُّعات تشير إلى أنَّ المقترح ستَتمّ الموافقة عليه في غضون أسابيع، ليبدأ التَّنفيذ فور الموافقة.

يا له من مقترح بائس؛ هل بقي للخراف، ذكورًا وإناثًا، من متعة، في هذه الأيَّام البئيسة، غير متعة التَّلاقح؟ حتَّى هذه المتعة الوحيدة تُخطِّط رَعويَّة ابن الوسخة تغبير لاجتثاثها من بين أفخاذنا.

ومشت الخراف، أشباه الكلاب، في القطيع تستنكر هذا المقترح؛ وقامت بإشعال مورة غضب جامح، عندما أكَّدت على أنَّ الأمر تجاوز مرحلة المقترح إلى مرحلة الدِّراسة الجادَّة، وأنَّ تسريبات سريَّة، وصلتها، تفيد بأنَّ الموضوع يُعدّ ليكون قرارًا رسميًّا يجب تنفيذه خلال شهرين على الأرجح، إن ليس طوعًا

فبالقوَّة الجبريَّة.

ولفتت الخراف الأشباه انتباه الجميع إلى أنَّ تطبيق هذا القرار لا يعني سوى هلاك قطيع: أوسط ما وراء النَّهر؛ فماذا يعني قطع الأيور غير إيقاف التَّناسل؟ وماذا يعني إيقاف التَّناسل غير الفناء؟ وما الهلاك إن لم يكن الفناء! ثُمَّ، ما الخيانة إن لم تكن مسايسات فاسدة، لراعٍ فاسد، يعمل ما يؤدِّي بقطيعه إلى الضياع والانزواء، لصالح الأعداء في القطعان المجاورة؟

وقالت بوضوح، دون خوف:

- تغبير خائن.

كما كثر الكلام بين الكباش في تسامرها الليليّ؛ بعضها يؤكِّد، ومعظمها يشكِّك في جديَّة الموضوع، معتبرينه شائعة من مئات الشائعات الَّتي لوَّثت الأجواء مؤخَّرًا.

ومثل هذه الأزمات القطعانيَّة، تُمثِّل حقلًا طَيِّبًا لعقول مُفكِّري الخراف، حيث تقوم بعملها الفكريّ في رصد الأفعال، وردود الأفعال؛ فكان أن رصد المُفكِّر تفسير هذا المقترح المشاع عن إخصاء الكباش، وردود أفعال الخراف حوله، فتوصَّل إلى أنَّ رمز عِزَّة وإباء الكبش ليس لِيَّته، ولا قرناه؛ بل أيره.

ورغم أنَّها شائعات غير ملموسة، فقد نجحت في نشر اليأس بين الخراف، ما كان نتيجته، رويدًا رويدًا، وتحت ضغط الإحباط المتنامي، أن تَبدَّل طبع الخراف، من الهدوء إلى الثورة؛ من

البلادة المستكينة إلى التَّوجُّس والحذر؛ من اللامبالاة إلى التَّرقُّب والتَّخوُّف؛ من الرِّقَّة إلى العنف؛ ولم يعد ينقصها، بعد هذا الكَمّ المهول من الانقباض النَّفسيّ القاسي، إلَّا أن تنفجر، حتَّى وإن قضت، هي نفسها، كضحايا للانفجار.

بيد أنَّ الحقائق تُؤكِّد على أنَّ الخراف، مهما انفجرت، فإنَّ بعضها لا يقتل بعضًا. كما لا تقتل الآخرين أيضًا، فأسنانها بالكاد مُهيَّأة لقضم العشب والحشائش؛ وحوافرها بالكاد تصلح لتَحرُّكاتها؛ أمَّا عن قرونها فللمناطحة، لا للقتل. وليس بوسع خروف تَصوُّر أنَّ قرنيه قد يقتلان مخلوقًا. فكم ألف مليون مناطحة جرت بين الخراف، منذ أن ظهرت في هذا الكون، مع ذلك لم تُودِ نطحة واحدة بحياة أحدها؟

كما أنَّ لدى الخراف الأصيلة بَديهيَّات، منها:

إنَّها، حتَّى إذا كان بوسعها القتل، لا تقتل حملانها بعد اغتصابها، ولا تدهسها مهما تناطحت كباشها مناطحات عنيفة.

وأنَّ جميع خراف القطيع بلا استثناء لا تعرف الطَّريق إلى الجبل حتَّى تجلب منه الرِّمال المُسمِّمة؛ بل هي لا تعرف أنَّ جبلًا ما قد يكون في أيّ مكان.

ثُمَّ، ما الَّذي يدفع خروفًا إلى اغتصاب نعجة، أو شاة، بينما يستطيع ممارسة الحُبّ الحميم معها في أيّ لحظة، ودون إجبار؟ وحتَّى مع افتراض إنه قد قام باغتصابها، فما الَّذي يَضطرّه إلى

قتلها والشَّرف مشاع بين جميع ذكور الخراف، لا يُغضِب فقدانه أحدها؟

وقد ظَلَّت الخراف الأشباه حريصة على ترديد ما تُوقِن الخراف الأصيلة بأنَّه كذب، فتُصرّ على اتِّهام عصابات، تزعم أنَّها مُؤيِّدة للخروف تغبير، بارتكاب جميع تلك الجرائم الفظيعة؛ وقد وصفتها بجرائم إرعابيَّة.

ولم تفهم خراف القطيع، فورًا، ما المقصود بما تصفه الأشباه بـ: جرائم الإرعاب؛ لكنَّها، وبمرور الوقت، وكثرة الجرائم، وتَنوّع الكلام عنها، فهمت أن جرائم الإرعاب لا تستهدف خروفًا بعينه. ولا يكون دافع ارتكابها شَخصيًّا بحتًا، بل تستهدف زعزعة رَعويَّة الكلاب، عبر تهديد حياة واستقرار جميع مُكوِّنات القطيع، وبشكل مُنظَّم.

لما سبق، اعتُبِرت جرائم الإرعاب هي الجرائم الأخطر على الإطلاق.

ولم نكن نطالع الإرعاب، ولم يكن بيننا إرعَابيٌّ، على طول الزَّمن المديد للرُّعاة البشر؛ لكن اختلف الأمر باغتصاب الكلاب للرَّعوية.

وكان المفكِّر تفسير قد قال جملة عجيبة المفارقة:

- كان الكلب محافظًا على الأمن عندما كان حارسًا أمينًا، وضَيِّعه عندما صار راعيًا.

ومع أنَّ من النَّادر سقوط خراف أشباه ضحايا لتلك الجرائم، إلَّا أنَّ خروفها الذَّائع، لخمس، ظَلَّ يذيع في كُلِّ مناسبة وغير مناسبة، وفي السَّاقطة وفي اللاقطة، إنَّ جماعات إرعَابيَّة، من الخراف الأصيلة، تستهدف أمن وسلامة شيعته دون خراف القطيع، ما يُؤكِّد على صِحَّة اتّهام الزَّعيم طنفس للمُعظَّم تغبير بالعمل التَّآمريّ، مع الكلاب، لطرد الأشباه من القطيع.

وإزاء عدم تصديق الخراف الأصيلة لأكاذيب ومزاعم طنفس فقد قَرَّر تدبير الدَّليل الدَّامغ على صِحَّة اتِّهاماته للمُعظَّم تغبير، فأرسل للخروف الورع التَّقيّ تيسير، يطالبه بمنحه فرصة كاملة، ليثبت صِحَّة ادِّعاءاته.

ولأنَّ اللين، درجة التَّراخي، واحدٌ من صفات الخراف الأصيلة، ذات النيَّات الحسنة والقلوب البيضاء على الدَّوام، فإنَّ تيسير منح طنفس الفرصة دون أبسط محاولة لدراسة الطَّلب، ومعرفة أبعاده، وما قد يترتَّب على تلبيته من نتائج.

وفي صباحٍ مُبكِّر مشهود، في جمع خِرفانيٍّ محشود، حضره من كبار شَخصيَّات الخراف الأصيلة: المُعظَّم تغبير، والمُعلِّم تفسير، والمُفكِّر تعذير. ومن كبار شَخصيَّات الكلاب: كبير الحُرَّاس زمجور، والمستشار الأمنيّ طغفور، والسَّفير نقفور. ومن كبار شَخصيَّات الخراف الأشباه: الذَّائع لخمس، والمُنظِّر بهنس. وفي السَّاحة المُتصحِّرة، الواسعة، المحيطة بتَبَّة الرَّعوية، ناظر الخروفُ الشَّبه طنفسُ الخروفَ التَّقيَّ تيسيرَ علانية.

الرَّاهن.

ثُمَّ نظر إلى الخروف تيسير نظرة مستهينة، وبثغاء جَهوريّ تساءل بسخرية:

- من ذا الَّذي يزعم أنَّ الخراف لا تستطيع القتل والاغتصاب!

طَوَّح تيسير رأسه تطويحة ورعٍ تَقيّ، يثق في قُوَّة علمه، ورجاحة فهمه، وصواب منطقه، فضلًا عن هشاشة السُّؤال المُوجَّه إليه:

- إنَّها مَحكيَّاتنا الَّتي تزعم ذلك يا أخّ طنفس، وأنت واحد من أهرام القطيع، فهل شاهدت على طول حياتك خروفًا يقتل خروفًا، في قطيعنا، أو في غير قطيعنا؟ هل سمعت أنَّ هذه الجريمة النَّكراء ارتكبتها الخراف ضِدّ مخلوق، أيًّا كان هذا المخلوق، من قبل؟

- ابتسم طنفس ابتسامة المُتيقِّن من قُوَّة براهينه، وقال بهدوء:

- لم أشاهد، ولم أسمع....

وهنا قوطِع بمأمآت التَّهليل، وقد أطلقتها المئات من حناجر الخراف الأصيلة، فرحة باعتراف هذا الخروف الكلب، السَّاعي بكُلّ نذالة، وخِسَّة، ووضاعة، إلى إلصاق أفعال العنف، والقتل،

والإرعاب، بالمخلوقات الخِرفانيَّة بالغة الرِّقَّة والوداعة.

كما أنَّ وجه المُعظَّم تغبير استبشر، وابتسم له زمجور ابتسامة لاهثة، وكأنَّه راضٍ كُلّ الرِّضا عن قُوَّة منطق التَّقيّ الورع تيسير. بيد أنَّ صخب القطيع انقطع فجأة، عندما سُمِع طنفس يصيح بثقة، وقد رفع قائمة من قائمتيه الأماميتين، مطالبًا بالصَّمت:

- هِرْيَا.. هِرْيَا.

يا لدهاء الخراف الشَّبيهة بالكلاب! إنَّ دهاءها يشبه دهاء الكلاب.

إذ لم ينطق طنفس بكلمة: هِرْيَا؛ اعتباطًا. لم يقلها جزافًا. وإنما لعلمه بما لها من تأثير قَويّ على قلوب وأرواح الخراف الأصيلة. لقد مضت أيَّام طويلة على رحيل الحَاجّ يونس، الَّذي لم يكن يَكلّ، أو يَملّ، من ترديد صيحة: هِرْيَا. على مسامع خرافه لزمن طويل، قبل استيلاء زمجور على العمل التَّنظيميّ داخل القطيع.

وقد عاشت الخراف الأصيلة، بليدة الفهم، ضحلة الذَّكاء، تعتقد أنَّ صيحة: هِرْيَا؛ صيحة مُعبِّرة عن الحُبّ الَّذي يُكنّه الرَّاعي البَشريّ لها، لا صيحة زجر، ونهر، مُعبِّرة عن زهقه وقرفه منها؛ يزعق بها بعد أن يبلغ به الغضب مبلغ نفاد الصَّبر.

إنَّها: هِرْيَا؛ تُعشِّش في وجدان الخراف الأصيلة، الَّتي تملأ الآن ساحة صخرة الرَّعويَّة؛ صيحة حُبّ لا يشُكّ طنفس فيما إن

تسمعها حتَّى تلين عريكتها، ويُحقِّق هدفه المنشود.

وبالفعل؛ ما إن سمعت الخراف الأصيلة طنفس ينطق بكلمة: هِرْيَا؛ حتَّى لانت ملامح وجوهها، واختفت نظرات تَحدِّيها، وبدت مُستعدَّة لسماع براهينه باحترام أكبر، وبصدر أرحب؛ فلم يُفوِّت الفرصة، وانطلق يمأمئ بصخب حَماسيّ، وبنبرة ودودة للنِّهاية، يقول:

- رجاءً أهلي، وأحبابي، وأصدقائي؛ دعوني أكمل كلامي دون مقاطعة. لقد أجبت على سؤال أخي الورع، التَّقيّ تيسير، بأنَّني لم أشاهد خروفًا قتل خروفًا، ولم أسمع بذلك، لكن متى كانت إجابتي تعني أنَّ الخراف غير قادرة على القتل لو أرادته، أو دُفِعت إليه؟

واستطرد يقول بأعلى مأمأة:

- مهما كان فَكُّ الخروف مِنَّا محكومًا بفتحة فم ضَيِّقة، ما يجعله فَكًّا لا يستطيع القتل بسهولة، فإنَّ هذا لا ينفي استطاعته، وبنطحة واحدة، طرح خصمه أرضًا، قبل الهجوم عليه، وعَضّ أعضائه الحَسَّاسة، كالرَّقبة، أو أسفل البطن، أو الخصيتَين، عَضًّا شنيعًا حتَّى الموت. ولا يخفى عليكم أنَّ معاينات جثث الضَّحايا أظهرت أنَّ جميع العَضَّات القاتلة كانت تلك الَّتي أصابت الأعضاء الحَسَّاسة المذكورة.

وانبرى يقول:

ـ أعرف ما يدور في عقول الخراف الآن؛ إنَّها تستنكر كلامي، ولا تُصدِّقه، فهي تَحتجّ بأنَّها لا تملك تلك الفكوك المُزوَّدة بأنياب قاتلة، فإذا كانت لا تملك مثل تلك الفكوك المُزوَّدة بالأنياب القاتلة، فكيف لها أن تقتل؟ لكنِّي أقول بكُلّ ثقة: إنَّ هذا اعتراض ليس له مَحلّ من الوجاهة، فإن لم تكن للخراف فكاك مُزوَّدة بأنياب قاتلة، فإنَّها مُزوَّدة بأقوى أسنان قاطعة، رهيفة، حَادَّة، كأنَّها شفرات مسنونة، تقطع جذور الشُّجيرات ببساطة، فإذا كانت قادرة على قطع الجذور الخَشبيَّة الصَّلبة ببساطة، فأولى بها أن تكون قادرة على قطع اللحم الطَّريّ، وتمزيقه بنفس البساطة؛ وجميعنا كخراف نعرف أنَّ الرَّقبة، وأسفل البطن، والخصيتين، أطرى لحمًا من لحمنا.

وعندما لم ير طنفس في العيون غير الاندهاش، المُطعَّم بالتَّكذيب، طالب بأمر فظيع: إجراء تجربة عَمليَّة يُؤكِّد بها على صدق ادِّعائه، وذلك بإجبار خروفَين أصيلَين على المقاتلة عَضًّا في قلب السَّاحة، على ألَّا تنتهي المقاتلة إلَّا بموت أحدهما.

يا لها من شِرِّيرة قريحة هذا الخروف طنفس! لكن علام العجب إذا كان خروفًا شبه كلب، والكلاب قرائح الشَّرّ.

لم يكن بإمكان الخراف تَخيُّل أنَّ خروفًا يقاتل خروفًا إلى أن يُجهِز عليه، أقصى تَخيُّلاتها هي المناطحة حتَّى انسحاب أحدهما منهكًا، أو خائفًا. مع ذلك ها هو الأمر المريع يوشك على أن يقع!

اقشَعرَّت جلود الخراف، ورغم رعبها انتبهت إلى أنَّ طنفس

يطالب بمقاتلة مميتة بين خروفَين أصيلَين.

زعق المُفكِّر تفسير، من مكانه على مِنصَّة صخرة الرَّعويَّة، مخاطبًا طنفس بمأمأة استهجانيَّة:

- ولم لا تكون المقاتلة بين خروفَين من الأشباه، أم أنك تنأى بخراف فصيلتك عن الموت؟

فَرَّج طنفس بين مِشْفَريه بابتسامة باردة، وقال بنبرة أَشدّ برودًا:

- ها هي مشكلة الخراف الأزَليَّة تعود إلى الظُّهور؛ لطالما عانت من إحساس دفين بالاضطهاد، حتَّى وهي تُقدَّم لمُهمَّة نبيلة تظُنّ أنَّها تُقدَّم لمُهمَّة دنيئة! اعلم أيُّها الأخ الكريم، أيُّها المُفكِّر الكبير تفسير، أنَّني لو أعلم أنَّ للخراف الأشباه قلوبًا مُعبَّأة بالشَّجاعة، كقلوب خرافك الأصيلة، لما حِدت بشرف هذا التَّقاتل عنها إلى غيرها.

أعلى طنفس من شأن تفسير عندما خاطبه بالخروف المُفكِّر الكبير، فكان أن هَزّ تفسير جزعه، ورقَّص لِيَّته، سعيدًا بالتَّقدير، وسكت عن الاعتراض. لكن الورع التَّقيّ تيسير هو من ارتفعت عقيرته بالمأمأة اعتراضًا؛ قال:

- إذن لتكن المقاتلة بين خروف أصيل وخروف شبه كلب.

رفع طنفس صوته بمأمأة مُحمَّلة بانكسار الرَّجاء وقال:

- والله لو ينفع ما أتأخَّر؛ لكنَّ مقاتلة بين نوعين مختلفين من

الخراف لن تعطينا النَّتيجة الدَّقيقة المَرجوَّة؛ نحن نريد معرفة إن كان الخروف قادرًا على قتل خروف مثله أم لا، لا نريد من المقاتلة شيئًا آخر، ولن نحصل على نتيجة دقيقة إلَّا بمقاتلة متكافئة بين خروفين لا يتقاتلان لأغراض أخرى. ولا يخفى عليك، أيُّها الأخ الورع، أيُّها الأخ التَّقيّ، أيُّها الأخ النَّجيّ، أيُّها الأخ الصَّفيّ، أنَّ مقاتلة بين خروف أصيل وخروف شبه كلب ستغلب عليها الحمية حتمًا، دعك من أنَّ هذا لن يعطينا النَّتيجة الدَّقيقة المَرجوَّة، المشكلة أنَّه سيُشعِل الكراهية أكثر بين الخراف الأصيلة والخراف الأشباه.

ونظر في عينَي تيسير نظرة مستضعفة، فيما تساءل بنبرة ذليلة:

- فهل يُرضي ورعَكم وتقواكم أن نَحضّ الخراف على التَّقاتل فيما بينها؟

أتت التَّزكية الَّتي بادر بها طنفسُ تيسيرَ أكلها على الفور، فوجد الأخير أنَّ حجج الأوَّل ماضية القُوَّة، وأنْ ليس عليه، وهو الورع التَّقيّ النَّجيّ الصَّفيّ، أن يكون مُحرِّضًا على التَّقاتل بين الخراف، فلم يجد بُدًّا من السُّكوت، ما عني موافقته على المقاتلة حتَّى الموت بين خروفَين أصيلَين!

ولم لا يوافق إنَّ كانت التَّجربة العَمليَّة ستُسفر، بما لا يدع مجالًا للشَّكّ، عن عدم استطاعة خروف قتل خروف عَضًّا، أو بغير عَضّ.

زعق أبيض الهِلّي:

ـ كُلّنا عندنا خرفان، فينا من يملك الكثير منها، وفينا من يملك الخروف أو الخروفين؛ وسواء كثرت الخرفان أو قَلَّت، عمرنا ما رأينا خروفًا قتل خروفًا، لكن رأينا الخروف المُشابه، الخروف أبو وجهَين، الَّذي يخالف سلو الخرفان في البعد عن الرُّعاة والكلاب، وعدم تَملُّقهم، ويتَقرَّب للواحد مِنَّا ويتَملَّقه؛ بماذا نصف مثل هذا الخروف المداهن؟ نحن نصفه بأنَّه خروف فاهم وشاطر، يعرف كيف يتَودَّد لنا، فنطعمه أزيد مِمَّا نطعم باقي الخراف؛ وهذا الخروف يصاحب الكلب، فيَعضّ الكلب جميع الخرفان، ولا يَعضّه؛ هذا الخروف يبيع أباه وأمَّه بعود برسيم، أو بحفنة علف؛ ذَكيٌّ وشاطر، لكنَّه واطي ونذل.

شوفوا طنفس أَبصَرْ عمل إيه
رمى الفتنة ونَتَر الوقيعة.
وَعَد كلبَا والوعد دين عليه
لأُعمِلنَّ فيهم الخديعة.
واشَتِّت عقولهم فما ترى الحق
وقلوبهم في صدورهم خليعة.
لَيَاكُل الخروف منهم لحم اخوه
أكلة واعرة وشنيعة.
ويقوموا على تغبير ينهبوه
ولَبُو زمجور حياتهم وديعة.

لكن يا إخواننا كُلّ شَرّ له نهاية، مهما طال هو قصير؛ ليلتنا الثَّانية خلصت، ونشوفكم على خير في ليلة غَدّ، الليلة الثَّالثة،

وكـمـا بـدأنا بـحـمـد الله
نـخـتم بـحـمـده بـاريـنا.
وبالصّـلا عَ الـزين محـمّـد
أبـو سـيرة عَـطِـرة نبينا.
رسول حَقْ ما يقبل الضِّيم
مَن يِـعـادِيه كَـنُّه عـادِينا.
ليلة تانية خِلصِت بفضله
وتـالـت لـيلـة نرجع نادينا.
نقول لناس لِهَا عقول تفهم
حِكـَم مبـدورة فْ حـكاوينا.

تي را را تي را تي را را تي ... تيرا را تي را تي را را را.

اللَّيلة الثَّالثة

وإنَّ الله حَرَّم الظُّلم على نفسه، وأمر عباده أن: لا تظالموا.

لكنَّ السَّلاطين لا يرون أنَّهم من جملة عباد الله المأمورين بعدم الظُّلم، بل يرون أنَّهم أرباب. الله في السَّماء، وهم في الأرض. لله الجلالة، ولهم السُّموَ. لله العباد، ولهم العبيد. ولم يخلق الله الدُّنيا إلَّا ليملكوها. وإذا كان الله حَرَّم الظُّلم على نفسه، فلأنَّه ليس ملكًا أرضِيًّا يعاني غباء الشُّعوب، فيما الظُّلم أداة لملوك الأرض، يضبطون بها حال العبيد، وإلَّا أفلتت أَعنَّتهم.

ولأنَّ الله يأخذ الظَّالم أخذ عزيز مقتدر، إذا أخذه لم يُفلِته، فإنَّه يُحقِّق فيه العدل أَوَّلا؛ يظَلّ يمهله ربما يرتدع. ربما يقرأ التَّاريخ فيعتبر بعواقب الجائرين. ربما ينظر في النِّهايات البائسة للملوك الظَّالمين فيزدجر. فإذا أمهله ولم يرتدع، أو يعتبر، أو يزدجر، يأخذه أخذًا وبيلًا، ويقضى عليه بنهاية مريعة بديعة، على فظاعتها فإنَّها لا تردع من يليه من السَّلاطين، حتَّى أنَّهم يظَلُّون في طريق الظُّلم وفودًا، وعن طريق العدل قعودًا. فسبحان الَّذي يُضيِّق استيعابهم، فيسقطون نفس السَّقطة، ليشفي صدور قوم مظلومين.

وقد أمحلت البلاد بجور السُّلطان، فجَفَّ النَّهر، ويبست التُّرع. طَمَّ الغلاء. وساءت أخلاق النَّاس. كثر الهرج والمرج. سُفِكت الدِّماء في أباطيل تافهة، حتَّى أنَّ الرَّجل قد يقتل أخاه لمزحة لم ترقه. وفشا التَّبرُّج في نساء البلد، وسرى الفحش في البيوت سريان النَّار في الهشيم، فكثر الطَّلاق، وخربت البيوتات، وتدهورت حال الأبناء، بنين وبنات.

هكذا أوشك عذاب الله أن يقع، وليس من يدفع.

جاء الشَّيخ أبيض الهِلِّي إلى النَّجع على بغله، وجاء أناسٌ لا تُحصَى أعدادهم من النُّجوع المحيطة؛ السَّاحة أمام المسجد اكتَظَّت بالنَّاس الشَّغوفين، الأجساد متلاصقة، حتَّى أنَّ الشِّيش لم تعد تتَنقَّل بين الأيادي والأفواه بالرَّاحة، ولا صواني الشَّاي، بل بقلق وكبد ومعاناة، فالليلة هي الثَّالثة والأخيرة؛ ليلة نهاية القِصَّة. يتَرقَّبون هل تنتصر الخرفان على الكلِبان، أم لا سمح الله تبقى الكلِبان تقهر الخرفان؟ ولسان حالهم يلهج:

- يا رب امنحنا نهاية سعيدة.

ضُيِّف أبيض، فتَعشَّى لحمًا، ومرقًا، ورقاقًا، والمستمعون تَعشَّوا في بيوتهم قبل مجيئهم؛ تَعشَّوا عيش البَتَّاو اليابس، مثلهم مثل كلابهم.

اعتلى المُغنِّي دِكَّة المَغنَى، ظهره للجامع، تتَأجَّج المشاعل المغروسة مقابضها في شقوق جدرانه الطِينيَّة، وجهه للنَّاس، تَتألَّق أعينهم بالشَّوق إلى الاستماع.

تَنحَّم يُسلِّك حنجرته، أجرى القوس على الأوتار، عزفت الرَّبابة، وأنشد يقول:

وأوَّل القول نِبديه
بحمد رَبِّ البَرِيَّة.
والحُبّ والشَّوق نِبديه
لمُحمَّد قائد السَّرِيَّة.

أُصـلّي وأُسلـّم عـلـيـه
سِيدِ العـُجْم والـعَرابيَّة.

أطلقت الحناجر الصَّلوات والتَّسليمات، على رسول الله محمَّد، بأصوات مُتهلِّلة مبتهجة:

صاح خفاجة بصوت باكٍ:

- حبيبي يا محمَّد، بحَقِّ سِتّنا فاطمة تشفع لي عند رَبّنا، أنا سَبَّاب، وشَتَّام، وابن كلب، لكن أحبّك.

ثُمَّ زعق في الشَّيخ:

- امدح حبيبنا النَّبي بزيادة، أو أَسبّ لك مئة دين.

صاح أبيض الهِلّي يجيبه:

- ما في داعي تَسبّ الدِّين ولو مَرَّة واحدة، يا أخي مدح الحبيب بزيادة شفاء بزيادة.

رسـول كـريـم نـبـي زين
جـانـا بـأكـمـل رسـالـة.
عشـقه كل من في العالمين
واسـألـوا عنّـه لـغزالة.
شـفيـع أُمَّة الـمسـلـمين
يوم تصعب فيه القوالة.

- مدد يا رسول الله، مدد.

- الله، الله، الله.

- اللهم صَلّ عليه.

نبي عـربي عـزيـز شُمْ
دحـر الفـُرس والرُّومي.
وقـف فـوق تَلّ الـحرم
وصـاح قـال: يـا قُـومي.
قولوا مافيش غيره حكم
كلـمة غيرهـا مـا أرومي.

- لا إله إلا الله، محمَّد رسول الله.

والقول نقوله لناس تفهم
زينـه وعـايقـه تِبـاهَى.
ولـو جـرعوا كـوس الهَمّ
رجـال رامـيـه بـلاهـا.
تُـنـضُر سـحـايـب الـغـَمّ
وتـطـلـب من الله جِلاها.

خُد مِنّي واسمع يا إنسان
قِـصّـة خـروفٍ مـلـيح.
لم يِرضَ بالظُّـلم يِنـعـان
وإن كـان يـصـبح دبيح.
خُد مِنّي واسمع يا وَد عَمّي
كـلامي مـافـِيهْشي قـبيح.

قِصّة خروف واعي ومعقول
في المراعى اسمه تعسير.
هانعيد ونزيد فيهِ القول
مِقدامٍ ما يخشى التَّعاسير.
خروف راسي وله عزم
كاسر من جملة الاكاسير.

يا له من ساذج، هذا الرَّاعي المدعو المُعظَّم تغبير، عندما لم ينتبه للمؤامرة وهي تجري تحت عينيه، بل أسهم بنفسه في إنجاح الشَّطر الأكبر منها.

وكان قد حُذِّر، في كهف المؤامرات، من أنَّ الخراف الأشباه تعمل على التَّخلُّص منه لصالح خروف آخر. ومهما كانت تحذيرات الكلاب مُلفَّقة، تقصد الوقيعة، فإنَّ الفطنة تُلزِم الرَّاعي الذَّكيّ بأخذ مثل تلك التَّحذيرات على محمل الجِدّ، والعمل عليها لمعرفة مدى وَاقعيَّتها.

أما وأنَّ المُعظَّم تغبير لم يفعل ذلك، فهذا يعني أنَّه يثق في صِحَّة ما حَذَّرته منه استخبارات الكلاب، ما يعني أنَّه سيجتهد لإفشال مُخطَّط الأشباه.

كان عليه ألَّا يثق في أيّ مطلب يرفعه هؤلاء المتآمرون؛ خَاصَّة تلك النَّوعية من الطَّلبات الَّتي لو لُبِّيت فإنَّها تَشقّ لُحمَة الطَّبقة الأوسع من طبقات قطيعه، الطَّبقة الَّتي هو منها، وهي منه: الخراف الأصيلة.

لكن مذ متى كان تغبير يفهم في المُسايسات؟

وإن كان يفهم، فمذ متى كان راعيًا، ليكتسب خبرات الرَّعويَّة؟

وإن كان اكتسب شيئًا من خبرات الرَّعويَّة، فمن أين له القُوَّة الَّتي تُمكِّنه من الاستفادة بخبراته؟

لقد كان المُعظَّم تغبير وحيدًا في رَعويَّته، مُجرَّدًا من جميع قواها إلَّا المظهر، رغم انتمائه لأكبر طبقات القطيع، لا لشيء سوى أنَّ الخراف الأصيلة لا تُحبّ المُسايسات إذا كانت تجد الكلأ، وإن شحيحًا، تجد الماء، وإن غائضًا؛ ولأنَّ المُسايسات من وجهة نظرها لعبة قذرة، تعتمد الغموض والغدر، فيما الخراف مخلوقات واضحة، نبيلة، شَفَّافة، إلى حَدِّ السَّذاجة والنَّطاعة.

فإذا كان المُعظَّم تغبير قد شعر، في أثناء رَعويَّته، بكُلِّ هذه الوحدة، وبكل هذا الضَّعف، فما عليه لومٌ لو حاول استمالة من يجيدون فنون المُسايسات، ويملكون القُوَّة، إليه.

ولا يمكن فهم السَّبب الَّذي جعل المُعظَّم تغبير يرتكب أكبر حماقاته، عندما وافق على إجراء مقاتلة العَضّ حتَّى الموت بين خروفَين أصيلَين، إلَّا في ضوء النَّظر لهذا الدَّافع: استمالة من يملكون فنون وقوى الرَّعويَّة إليه.

ولن تنسى الخراف ذكرى أوَّل خطاب ألقاه المُعظَّم تغبير؛ أوَّل راعٍ من جلدتها، يُفكِّر بأفكارها، ويمأمئ مأمآتها. وقت كان كُلّ شيء، في تلك الليلة البعيدة، جميلًا حَدّ المهابة. فلأوَّل مَرَّة تشعر

بأنّها، وإن اعتزّت بخرفَانيَّتها منذ الأزل، قد صارت مخلوقات أسمى من جميع مخلوقات الكون؛ إذ كُلّ خراف قطعان العالم يرعاها بشر فيما قطيع: أوسط ما وراء النَّهر؛ يرعاه واحد منها: خروف ابن خروف ابن خروف.

ألا يبعث هذا في النَّفس شَتَّى أحاسيس الفخر والاعتزاز؟

وكان أَهمّ ما ورد في ذلك الخطاب الأَوَّل، وما أثار فرحة الخراف درجة أنَّها هاجت، وماجت، بالمأمأة الصَّاخبة، والتَّناطح المرح، وترقيص المُؤخِّرات ذوات الليَّات الثَّقيلة، هو إشارته إلى أنَّه سيعمل على عزل زمجور، وعصابته الكلاب، من مَهامّ الحراسة والتَّنظيم؛ وإعادة القطيع إلى المراعي القَرويَّة، حيث الرَّعي في الأراضي الخضراء، والمبيت في الحظيرة الآمنة.

لكن، وبدلًا من أن يَتمّ الاستغناء كُلِّيًا، أو حتَّى تَدريجيًّا، عن خدمات زمجور وكلابه، لوحظ ازدياد عددها، وتنامي عنفها، بشكل مُطَّرد.

وقد حَيَّر التَّناقض بين وعود تغبير وأفعاله عقول الخراف، حتَّى قام أحد الكلاب، أو أحد الخراف الأشباه، بتسريب خبر اجتماع تغبير بالكلب زمجور، سِرًّا، في مكان غير معروف؛ وأنَّ اتفاقًا قد تَمَّ بينهما على التَّمسُّك ببقاء الكلاب في مَهامِّها الأَمنيَّة دَاخليًّا وحُدوديًّا، بل وزيادة أعدادها، بزعم رفع كفاءة الحراسة والتأمين.

لم يكن التَّسريب عَفويًّا.

وقد شعر المُعظَّم تغبير بدبيب تَذمُّر يسري في قلوب معظم خراف القطيع، فدعاها للتَّجمُّع بساحة صخرة الرَّعويَّة، وألقى فيها خطابًا لَشدَّ ما كان حميمًا، حتَّى أنَّه تَخلَّى عن الشَّكليَّات الرَسميَّة المُتكلِّفة، فخاطبها باعتبارها الأحباب والأصدقاء، لا باعتبارها الرَّسميّ كرعَويِّين. وأكَّد لها بمأمأة صادقة على رغبته الجَيَّاشة في أن تتَحوَّل مَهامّ الحراسة والتَّنظيم إلى الخراف، وألَّا تبقى بيد غيرها.

واستدرك بأسى:

- لكن مُذ متى تتَحقَّق الأمنيات لمُجرَّد توافر الرَّغبة في تحقيقها !

وقال:

- إنَّ خطوات عديدة، وصعبة، يجب أن تُقطَع لتُصبِح هذه الرَّغبة المُلحَّة قيد التَّنفيذ، أَهمُّها: التَّدريب. يجب أن تَتدرَّب الخراف على أداء المَهامّ الأَمنيَّة الشَّاقَّة، وهو عمل لا يُنجَز في يوم وليلة، وإنَّما يحتاج لأسابيع وشهور، وربما يحتاج إلى سنين.

وأضاف بنبرة تعكس قلقًا شديدًا:

- هذا غير أنَّ الاستخبارات أبلغتني بتَمكُّنها من رصد مجموعة ذئاب كبيرة العدد تتَجهَّز لمهاجمة القطيع، مُستغلَّة ما تَظنُّه

ارتباكًا ناجمًا عن موت الحَاجّ يونس، فكان ضَروريًّا تزويد قدرات الحراسة بالمزيد من الكلاب ذات الكفاءة القِتاليَّة العالية، لتحمي القطيع من هجمات الذِّئاب المُتوقَّعة، ولنرسل لتلك الذِّئاب رسالة تُؤكِّد على أنَّ خراف قطيع: أوسط ما وراء النَّهر؛ تثق في قدرة، وكفاءة، ونزاهة كلابها.

وقتها، تقَبَّلت الخراف تبرير المُعظَّم تغبير على مضض، لكن الآن بَأيّ حُجَّة واهية يمكنه تبرير إصدار أوامره بتنظيم مقاتلة فَوريَّة، عضًّا حتَّى الموت، بين خروفَين أصيلَين؟

هكذا، وإن كان تغبير فقد جزءًا من شَعبيَّته، بعد انكشاف أمر اجتماعه السِّريّ بالكلاب، وتسريب اتِّفاقه معها على زيادة أعدادها، فإنَّ شَعبيَّته الجارفة انهارت انهيارًا فادحًا فور إصداره أمر هذه المقاتلة البغيضة.

أيا هذا الزَّمن الشَّغوف
خروفٌ يأكل خروف.
زمن ابن كلب حَلُوف
له عينين لكن ما يشوف.
تغبير أمر، وأمره علقم
مَرَّر حلوق الألوف.

لم يَتقدَّم أَيّ خروف طواعية للمقاتلة عَضًّا حتَّى الموت. ولم تُزِد تهديدات كلاب التَّنظيم الخرافَ إلَّا تصميمًا على رفض ما اعتبرته مهزلة أخلاقيَّة لا حَيوانيَّة؛ وهو الرَّفض الَّذي سارع

زمجور بتفسيره للمُعظَّم تغبير، فيما يجلسان متجاورَين، أعلى التَّبَّة، يتابعان المناظرة، ويشاهدان العرض، على أنَّه تَمرُّد خِرفانيٌّ ينال من هيبة الرَّعويَّة، ويكسر عصا الطَّاعة، إن لم يُجابَه بالقُوَّة الطَّائشة سيُؤدِّي إلى إسقاط عظمته عن الصَّخرة، وإعلاء الخروف تفسير، أو الخروف طنفس، بدلًا منه.

كما أَكَّد زمجور لتغبير على أنَّه يَشمّ رائحة مؤامرة، تُدبِّرها الخراف الأشباه.

وأضاف:

- إنَّ طنفس الخائن يثق في أنَّك لن توافق على طلب المقاتلة بين خروفين أصيلين عَضَّا حتَّى الموت، وما إن تُعلِن عدم موافقتك حتَّى يرفع عقيرته القذرة قائلًا، لهذه الجماهير الخِرفانيَّة البليدة، إنَّ الرَّاعي تغبير لا يوافق على طلبه، لعلمه بأنَّ الخراف يمكنها القتل بالفعل؛ وليتك لا تندم أيُّها المُعظَّم تغبير، عندما ترى خرافك الأصيلة تنتصر لدعوى طنفس! لكن لُم نفسك، لأنَّك لم تفهم الخراف، وظللت تعمل لصالح من لا، ولن، يعمل لصالحك.

فسأله تغبير حائرًا، وبنبرة من ينتظر النُّصح من صديق مخلص :

- فما العمل؟

- توافق على طلب طنفس فورًا، فهذه هي الطَّريقة الوحيدة الَّتي تضعه بها في مأزق، وثِقْ في أنَّه سيخسر المناظرة، فجميعنا

يعرف أنَّ الخراف ليست قادرة على القتل عَضًّا، ولا حتَّى على القتل نطحًا.

فكان أن سمع تغبير، كعادته، لنصح من يراهم هو نفسه خونة لا عهد لهم!

لقد خشي من العواقب الوخيمة للمؤامرة، لو أنَّها نجحت، فأصدر أمرًا أَقلّ ما يُوصَف به أنَّه أرعن: الدَّفع بكبشَين أصيلين إلى ساحة الرَّعويَّة بالقُوَّة، وإجبارهما على النِّزال المميت.

وفي الوقت الَّذي وقف فيه طنفس مواجهًا لتيسير، ملامح وجهه منبسطة بإحساس الظَّفر، كانت زمرة من كلاب التَّنظيم مهيبة الهيئة، تخترق القطيع، فيما تزمجر زمجرة أشبه ما تكون بزئير الأسود؛ وبينما تنطلق إلى هدفها كانت تَعضّ خروفًا، أو تخمش نعجة، أو تدهس حملًا؛ لقد أشاعت الرُّعب والفوضى، حتَّى أنَّ الخراف، والشِّياه، والنِّعاج، والحملان، انطلقت تركض إلى كُلّ مكان، لا تلوي على شيء، تمأمئ بفزع، كأنَّ قطعانًا من الذِّئاب، أو أسرابًا من الأفاعيّ، تهاجمها، إلى أن تَوقَّفت زمرة الكلاب قبالة كبشَين أملحَين شَابَّين، كانا يتحاوران بمأمأة حميمة، فهما صديقان مشهوران بين الخراف بالمَحبَّة المخلصة، المتبادلة فيما بينهما بصدق.

إنّهما «تعبير»، و«تصبير».

وقد امتنعا عن تنفيذ أوامر كلاب التَّنظيم بالبروز للمقاتلة،

فهاجمتهما الأخيرة بقُوَّة طائشة، لم تُجدِ معها مناطحتهما السَّريعة لها نفعًا.

حدث هرج ومرج شديدان في ذلك الصَّباح الكئيب، تعالت المأمآت الفزعة من حناجر الخراف الأصيلة، فيما لزمت الخراف الأشباه صمتًا متواطئًا.

واقتيد الكبشَان الصَّديقَان إلى ساحة صخرة الرَّعويَّة بعنف مُذلّ؛ فقد كانت كلاب التَّنظيم تنهش لِيَّتَيهما مَرَّة، وعراقيب قوائمهما مَرَّة، وتخمش صفحات وجهيهما مَرَّة، وتعَضّ آذانهما مَرَّة.

وكانت مأمأة أُمّ تصبير تتعالى فيما تقطر دمًا، تتبعه بقلبها المنفطر. ومأمأة زوجة تعبير تتعالى فيما تقطر دمًا، تتبعه بقلبها المنفطر. حتَّى أُبرِزا إلى قلب السَّاحة المنفطر.

يا صاحبي يا حبيبي يا خوي
كيف اعضَّك أو كيف تعضَّني.
اللقمة كلناها سوا وشرينا الموي
كيف اهزَّك ولَّا كيف تهزَّني.
حكم الكلاب قاسي يا ابوي
وحِزن الولايا واعر يِهدَّني.
أقتل بيَدِّي اللي روحي فيه
أموت وراه روحي إليه تِشدَّني.

ولم يكن بُدٌّ من تقاتل تصبير وتعبير.

فمهما كانا صديقَين مخلصَين فإنَّ المواجهة بين خروفَين، تحت أنظار قطيع، ويا للعجب، لا بُدَّ لها من أن تُطلِق لديهما رغبة مُلحَّة في التَّناطح!

وقد استُهِلَّت المناطحة بفتور، مُجرَّد اشتباك بالقرون، دون قتال، طال لدقائق، قبل أن يصيح طنفس بمأمأة حَماسيَّة:

- اجمد يا تصبير.

بينما القرون متشابكة همس تعبير مخاطبًا صديقه تصبير بنبرة غاضبة:

- يا لك من خروف خبيث! أكنت تخدعني طوال الوقت؟ لِمَ يُشجِّعك طنفس الكلب، بهذه الحماسة، لو لم تكن أنت من خرافه القذرة الشَّبيهة بالكلاب؟

ومع أنَّ تصبير عاش عمره يكره الأشباه، وربما كان هذا الكره أحد أسباب إنشاء علاقة الصَّداقة الوطيدة بتعبير، إلَّا أنَّه أجاب بنبرة لا تَقلّ غضبًا عن نبرة مُصارِعه:

- بل أنت من خدعني طوال الوقت؛ إذا كنتُ أحمل وجهًا يشبه وجه كلب فلماذا لم تُلفِت انتباهي؟ لا شيء سوى أنَّك حقود حسود، لا تريد لفت انتباهي حتَّى لا أرتقي تاركًا إيَّاك في وضعك الخسيس كخروف أصيل.

- ولمَ أُلفِت انتباهك! ألا تشرب طوال الوقت من النَّهر؟ كان عليك ملاحظة هذا الشَّبه المقيت دون مساعدة مِنِّي؛ يا لك من خروف غَبيّ.

- لكنِّي لم أصادف صفحة النَّهر رائقة قط لأستطيع اكتشاف هذا الأمر؛ فمن الغَبيّ على الحقيقة؟ ألست تراني طوال الوقت! كيف لم يُلفِت انتباهك هذا الشَّبه، وظللت مخلصًا لصداقتي؟

فَكَّ تعبير اشتباك القرون، وعاد إلى الوراء خطوتَين، حملق في وجه صديقه فلم ير أَيَّ شبه بين وجهه ووجوه الكلاب، مع ذلك قفز بصدره إلى أعلى، وقبل أن يهوي بقُوَّة، مُوجِّهًا نطحة نجلاء لرأس تصبير، قال له:

- إنَّ وجهك لا يشبه وجوه الكلاب، لكن إذا كان طنفس يُشجِّعك فأنت لا بُدّ خروف شبه كلب، تتَنكَّر في هيئة خروف أصيل. أنت جاسوس.

في هذه اللحظة ارتفعت مأمأة الورع التَّقيّ، تيسير حَماسيَّة جِدًّا:

- اجمد يا تعبير.

قال تعبير لتصبير مفتخرًا:

- ها هي الخراف الأصيلة تُشجِّعني أنا، ما يُؤكِّد على أنَّها قد كشفت أمرك.

هتف تصبير فيما يتَهيَّأ لتوجيه نطحة عاصفة:

- إذا كان الأمر كذلك فلأناطِحنَّك كأفضل ما يمكن لخروف شبه كلب.

- بل أنا من سيناطحك كما يليق بخروف أصيل.

هكذا حمي وطيس التَّناطح بين صديقَين كانا حميمَين! يدوران حول بعضهما البعض، يحاول كُلٌّ منهما فتح ثغرة لتوجيه نطحة قَويَّة تفتك بجسد الآخر، يرفعان صدريهما بعنفوان الخيول، ويهبطان برأسيهما كبرق العواصف، يتبعه رعد اصطكاك القرون.

تَحوَّل الخروفان الثَّقيلان إلى ذَكرَي أيل رشيقَين، يهدران بالثُّغاء المشحون بالوعيد، وقد نثرت حوافرهما، المتنقلة في الرَّمل خبط عشواء، سحائب تراب تتصاعد إلى السَّماء كثيفة.

تـصـبـير اتـفـرد كـالـفـهودي
نـطَّـاح كـفـرسـان أصـايل.
وصاح قال ياك ما تعرفشي جدودي
اسـأل عـني الـقـبـايـل.
أنـا في النـزال صـخرة وحطت
لي قـرنـين ضـربهـم هـايل.

تـعـبـير اتـفـرد كـالأسودي.
كـبـش الـنزال صـايل وجايل.
صاح قال يا تصبير أصلك قرودي.

معـــروف بـــيـــن الـــعـــوايـــل.
وانـا حـــربي ريـــح الـهـوايـج
لي قـــرنـــيـــن ضـــربـــهـــا رزايل.

ولم يعد طنفس وتيسير فقط هما من يُشجِّعان خروفيهما، بل صخبت الأجواء بتشجيع جميع الخراف؛ الأشباه تُشجِّع تصبير، فيما باقي القطيع يُشجِّع تعبير بمنتهى الحرارة، والكلاب تنظر للواقعة بحياد بارد، بينما تقعي لاهثة.

تـــصـــبـــير نـــطـــح تعبير
نطحة تتكتب بـالـحروفي.
أراه بـــيـــهـــا نجوم الضَّهير
وســـمَّـــعـــه ضرب الدُّفوفي.
زعق تصبير وقال يا غرير
خـــد مـــنِّي نـــطحة زعـوفي.

تعبير قـــال حـــربه هوايج
وكان قولـــه أمين وصادق.
عدل نفسه بـــجسم هايج
أبـــو قـــلـــب مُر وحادق.
بـــقـــرنـــيه نـــطـــح تـــصبير
جـــابه أرضا من الـــحوالق.

إثر إصابته بنطحة جانبية مهولة سقط تصبير على ظهره، وقبل أن يَهمّ بالنُّهوض كان تعبير قد نكت رأسه بين وركي مصارعه المنفرجتين وقضم خصيتَيه، فقطفهما كما تُقطَف ثمار الأشجار.

تدفَّق الدَّم من بين ساقي تصبير، فانسدح ساقطًا على جنبه، لم يقدر على النهوض؛ انطلقت إليه أُمُّه هلوعة، تتَشمَّمه جزوعة، وتصرخ نحيبًا؛ لكن مذ متى كان بكاء الأَعزَّاء قادرًا على استرجاع الأَعزَّاء من سِكَّة الموتى!

رفس تصبير الهواء بقوائمه الأربع، قبل أن يشهق، وتجحظ عيناه، ويلفظ نفسه الأخير. وتعبير ينظر إليه نظرة منتصر مُنتشفٍّ، كأن لم يكن تعارف بينه وبين غريمه! فضلًا عن علاقة صداقة طويلة، لطالما وُصِفت بالمخلصة، وكانت مضرب الأمثال في الأُخوَّة والإيثار.

هكذا قتل خروفٌ خروفًا عَضًّا، فتَأكَّدت مزاعم طنفس حول قدرة الخراف الأصيلة على القتل، وإنَّها من ارتكب جميع الجرائم السَّابقة، المزعزعة لأمن القطيع وسلامته.

ما إن انقشع هياج الاحتفاء بانتصار تعبير عن بصائر خراف القطيع حتَّى غشيها وجوم ثقيل، كسحب شتاء طاغٍ، فتساءلت مندهشة:

- هل قتل تعبير صديق عمره عَضًّا بالفعل؟ أين الصَّداقة إذن؟ أين وشائج الإخلاص؟

يا للعار! لقد أظهر الحادث أن صداقات الخراف ليست علاقة آمنة مُؤمَّنة، بل مثلها مثل أيام المراعي، مُتحوِّلة، كُلّ يوم هي في شأن، لا يُركَن إليها، ولا يُعتدّ بها.

كما أظهر الحادث أنَّ على الخراف ألَّا تباهي بوداعتها وسِلميَّتها، فهي مخلوقات قاتلة بدورها، فرق بسيط بينها والكلاب.

كان ذلك الحادث هو الحادث الفصل؛ ففيما سبقه من حوادث، ورغم بشاعتها، كانت خراف القطيع قادرة على التماس عذرٍ ما للمُعظَّم تغبير: مَرَّة تقول: مُحدَث سياسة؛ ومَرَّة تقول: ضَحيَّة تدابير لَيليَّة عميقة؛ وهكذا. لكن أيّ عذر يمكن التماسه له وهو من أصدر، بوعي كامل، في صباح مشهود، وحشد محشود، أمر المقاتلة بين خروفَين عَضًّا حتَّى الموت؟

يا حيف الكلب لو سلطان
ما يحب بين الخرافِ سلامة.
مكره أشد من مكر الشِّيطان
إبليس وما يخشى ملامة.
أجرى الدِما بين لِخوان
ولا أنَّبه ضميره ولا ندامة.

بعد حادث المقاتلة، بين تصبير وتعبير، ساء وضع القطيع إلى أبعد الحدود، إذ تَمّ القبض على الكثير من الخراف الأصيلة بتهم غير مفهومة، مثل:

- الإعداد لارتكاب جرائم شغب.
- التَّجهيز لاعتداءات تهدف إلى القضاء على رَعويَّة المُعظَّم تغبير.
- الإساءة لهيبة الرَّعويَّة.

وقد وصفت الكلاب عمليات الاعتقال بأنَّها عَمليَّات أَمنيَّة استبَاقيَّة، المقصود بها الحفاظ على أمن، وسلامة، واستقرار، القطيع.

فكانت الشَّاة ترى خروفها الشَّاب، المسالم بطبعه، المنكفئ على العشب يأكل، المنكفئ على حافة النَّهر يشرب، المنكفئ في الظِّلّ يَجترّ، وقد هجمت عليه زمرة من كلاب التَّنظيم، تقبض عليه بعنف بشع، وتقتاده إلى مكان بعيد، لا تعرف الخراف طريقًا إليه.

ثُمّ تسمع الأُمّ المسكينة أنَّ خروفها الصَّغير إرعابيّ خطير.

فصارت الشِّياه الأُمَّهات، والنِّعاج الحبيبات، والزَّوجات، تعيش بقلوب مُتوجِّسة، بعضها قُبِض على أولادها وأزواجها، وبعضها ينتظر القبض عليهم.

أَمَّا أعجب ما أدهش الخراف فهو صدور أمر بالقبض على تعبير، لضلوعه في جريمة قتل صديقه تصبير، عمدًا مع سبق الإصرار والتَّرصُّد!

وأخطر ما أفزعها هو انتشار الآفات في المرعى بشكل غير طَبيعيّ، ما أَدَّى إلى انتشار حالة من الرُّعب والخوف القاتلين، فقدت معهما الخراف حالة الأمن فقدًا تَامًّا، فلم تعد تهنأ بقضمة عشب واحدة؛ إذ كيف تهنأ وأسفل أصل كُلّ عشبة، أو شجيرة، تلبد عقرب، أو تختبئ أفعى؟

ثُمَّ، وفي كُلِّ الأجواء المُحبِطة تلك، تسمع الخراف أنَّ المُعظَّم تغبير يسعى إلى تقسيم المرعى إلى إقطاعات، بحيث لا ترعى الخراف على المشاع، وإنَّما يُحدَّد لكُلِّ خروف إقطاعٌ يَخصُّه وحده، لا يتجاوزه إلى غيره، ولا غيره يتجاوز إليه، بزعم ترشيد الاستهلاك، والمحافظة على مُقدَّرات المرعى.

وتهيج الخراف الأشباه، تُحرِّض الجميع ضدّ المُعظَّم تغبير، تقول إنَّه يتَصرَّف بسذاجة وغباء لا يليقان براعي رَعويَّة؛ فكيف يُقسِّم المرعى إلى إقطاعات، ولم يوصَف المرعى بالمرعى إلَّا لأنَّه مشاع؟ وكيف للخراف الالتزام بالإقطاعات وهي قطعان، ما يعني أنَّها تعيش بشكل جماعيّ، لا تعرف الخاصَّ ولا الشَّخصيّ؟

إنَّه تَعسُّف في استخدام السُّلطة، الغرض منه تشتيت القطيع، أي إبادته، ما يعني أن تغبير يُنفِّذ خُطَّة وضعتها جهة ما، تسعى إلى التَّخلُّص تمامًا من قطيع: أوسط ما وراء النَّهر.

وقالت بوضوح، دون خوف:

- تغبير خائن.

وبهذا التَّعسُّف تأكَّد للخراف أنَّ تغبير أخذ يُضيِّق الواسع، ويُعسِّر الرَّحب، يُضيِّع كُلَّ شيء جميل كما ضَيَّع الأمن، وضَيَّع الاستقرار؛ حتَّى الصَّداقة بين الخروفين ضَيَّعها.

ومأمأت الخراف بحسرة:

- أهذا الَّذي عقدنا الآمال عليه في إعادتنا إلى مرعانا القَرويّ وحظيرتنا الآمنة؟

- لبئس الرَّاعي هو.

- والله راعٍ كلب أفضل منه.

هكذا انفصلت الخراف عن تغبير؛ وفعلت إزاء خروفها الأثير ما فعله تعبير إزاء صديقه تصبير؛ فبعد السَّعادة الغامرة برَعويَّته، والآمال الكبرى الَّتي عقدتها عليه، سرعان ما تَمنَّت لو يزول، أو يُزَال؛ سلمًا، أو عَضًّا، في أقرب وقت، وأحيَن فرصة، دون أن تبذل أَيَّ محاولة لفهم الأسباب الحَقيقيَّة لما داهم القطيع من قلق بالغ وارتباك ساحق.

لقد اقتيدت الخراف إلى أداء دورها المرسوم في خُطَّة الكلاب؛ وقد انقادت بسلاسة.

أوقف أبيض الهِلِّي عزف الرَّبابة، ودَلَّى ذراعيه بقطعتَيها جانبًا، الأسى يعصف بوجهه، ونظرات اللوم والعتاب تطيح بحدقتَيه، كانتا سوداوَين واسعتَين كأحداق البقر، فيهما الأسف يركض مذعورًا؛ لهب المشاعل رسمة مضيئة في لوحة، كأنَّ النَّسيم قد سقط ساكنًا وركد.

قال أبيض:

- شوفوا كيف الإخوة صَدَّقوا كيد الأعداء؛ وكيف أنَّ

الصَّديقَين الحميمَين صَدَّقا الفتنة الطَّارئة؛ شوفوا كيف الخرفان صَدَّقت الكِلبان؛ يعني يا إخواننا لا نلقي اللوم كُلّه على طمع الكِلبان والعَدوِّين، يلزمنا نلقي اللوم علينا؛ ونسأل أنفسنا: هل كان السُّلطان ليطغى لو لم يجد شعبًا يُصدِّق أكاذيبه وحججه الباطلة، وأشباهَ كلابٍ يُروِّجون لها؟

الخرفان صَدَّقت الكِلبان، وصَدَّقت الأشباه، وناصرتها على المُعظَّم تغبير، الخروف الَّذي منها.

صاح خفاجة بالنَّبرة الحزينة:

- غباوتنا مِنَّا فينا، لكن زمجور كلب، وابن كلب.

رفع أبيض الهِلِّي الرَّبابة، أجرى القوس على أوتارها، وأنشأ يُغنِّي غناءً كالبكاء...

المُسايساتي الدَّاهية لا يعتمد على الأكاذيب طوال الوقت، بل يَستغلّ الحقائق المتاحة إذا كان استغلالها يُؤدِّي إلى تحقيق ما يطمح إليه.

وكان انفصال الخراف الوِجدانيّ عن تغبير حقيقة ناصعة، سعى زمجور بمساعدة طنفس إلى إيجادها على أرض الواقع، وقد نجحت مساعيه. وحتَّى يكتمل النَّجاح فإنَّ عليه استغلال تلك الحقيقة أفضل استغلال.

كانت صخرة الرَّعويَّة مُؤمَّنة بفرقة من كلاب الحراسة القَويَّة؛ وقد وقف زمجور، بين يدَي المُعظَّم تغبير، متصاغرًا، مُحنيًا

ظهره، مفرجًا بين قائمتيه الخلفيَّتين، وقد زرق ذيله بينهما، يُرقِّص طرفه كرأس أفعى مستثارة، يقول بنباح خاضع:

- سَيِّدي المُعظَّم تغبير، يجب عَليّ، بصفتي كبير حُرَّاس الرَّعويَّة، أن أصدقك القول، ولو لا هذا الواجب ما كنت أخبرتك بما سأخبرك به الآن.

نفر تغبير الهواء بزهق، وقال:

- أخبرني يا زمجور الكلب.

تغاضي زمجور عن التَّعريض المهين، كأيّ داهية يعلم أنَّ النِّهاية المُنتَظرة قد أزفت، ووقتها سيثأر لنفسه عن أيّ إهانة لحقته، وقال بنبرة هادئة، لوَّنها بطعم التَّعاطف:

- إنَّ القطيع لا يرغب في استمرارك، ويطالبك بترك الرَّعويَّة للخروف طنفس. يقولون إنَّك شققت صَفَّ الخراف الأصلاء، في حين نجح طنفس في لَمِّ شمل خرافه الأشباه أكثر وأكثر. وإنَّ طنفس، على ما أبداه من حصافة مسايساتيَّة، يمكنه رأب الصَّدع بين الخراف الأصيلة والأشباه، ما سيكون فيه مصلحة القطيع بالكامل.

نظر تغبير في عينَي زمجور نظرة حيرى، تتَلمَّس الطَّريق إلى قلب سليم، يرجوه النُّصح بإخلاص، وتساءل:

- وما العمل؟

أجاب زمجور:

- أرى أن تسارع بإلقاء خطاب، تعلن فيه تَمسُّكك التَّام بحَقِّك في الزَّعويَّة. نعم، يجب ألَّا تُحقِّق لطنفس أمنيته.

صَدَّق تغبير نصيحة زمجور وأنفذها.

ولأنَّه كان ناقمًا على الخراف، لم يبدأ خطابه إليهم بوصفهم الأحباب والأصدقاء؛ فكيف لا ينقم عليهم وقد شعر بخذلانهم له؟ وهو من ظَنَّ أنَّهم منه، وهو منهم.

فَكَّر في أنَّهم كان عليهم التماس الأعذار له؛ إن أخطأ في تَصرُّف، أو قرار، فلن يكون أبدًا الخطأ المقصود، وإنَّما الخطأ النَّاتج عن اجتهاد بنِيَّة حسنة.

أليس في القطيع خروف رشيد يُوضِّح لهم أنَّ تغبير هو أَوَّل خروف يتَولَّى الزَّعويَّة، ما يعني أنَّ أخطاءً، قد تكون فادحة، ربما تقع، وعلى الخراف تَحمُّل نتائجها بصدر رحب، لا أن تتَخلَّى عنه بهذه الطَّريقة المخجلة لصالح الأشباه.

يقولون: تغبير هو من أصدر قرارًا بتقاتل الخروفَين، تعبير وتصبير، عَضًّا حتَّى الموت.

وهو لا ينكر أنَّه قد أصدر هذا القرار بالفعل، مع ذلك لم يكن يتَصوَّر أنَّ خروفًا يمكنه عَضَّ خروف حتَّى الموت! كان يعتقد، كأَيّ خروف، أنَّ هذا لن يَتمّ، ما يعني انتصار الورع التَّقيّ، تيسير،

على طنفس شبه الكلب، في المناظرة. أي: انتصار الأصلاء على الأشباه. لكن للأسف! انتهى الأمر بمفاجأة غير مُتوقَّعة؛ لم تفاجئه وحده، بل فاجأت جميع خراف القطيع؛ فما ذنبه؟

يقولون: تغبير سيُقسِّم المرعى إلى إقطاعات.

إنَّها واحدة من آلاف الشَّائعات الَّتي لا يَكفّ المغرضون عن إطلاقها منذ تَولِّيه مَسئوليَّة الرَّعويَّة. فإن كانت الخراف لا تُعمِل عقولها، كي تُميِّز بين الشَّائعة والخبر الصَّحيح، فهل عليه ترك جميع مَهامَّه الجسيمة، والتَّفرُّغ للرَّدّ على الشَّائعات؟

يقولون: تغبير لن يتَخلَّص من الكلاب.

كيف يتَخلَّص منها وهي من تقوم بالحراسة! هل أقدمت الخراف على التَّدريب فنهاها تغبير؟ حتَّى هل أقدمت على الحراسة دون تدريب فرفضها تغبير؟ لم يحدث؛ فكيف إذن يتَخلَّص من الكلاب؟ وهل يأمن على نفسه غدرَ الكلاب إن أصدر قرارًا بالتَّخلُّص منها إرضاءً للخراف؟ لن تتوانى الكلاب عن اغتياله سِرًّا، أو جهرًا، خُلسَة، أو علانية.

وكيف لا يزيد من أعدادها فيما أعداد المؤامرات، والقلاقل، لا تني تزداد، والكلاب لا تني تزيد من إخلاصها، حتَّى يكاد يجزم بأنَّها ليست كلابًا خُلِقت من لحم ودم، وإنَّما خُلِقت من ذهب.

وقد زعق تغبير، في جزء من أحد خطاباته المواكبة لبعض الأزمات، بمنتهى الحماسة، وهو يشير بحافره إلى الكلب زمجور:

- معنا كلاب من ذهب.

وفي زَمـانــَـا الأغـبر الـرَّدِي
كُلّ النَّفايـس مــغـشـوشة.
الذَّهب أتاريه حصَى الرَّضِي
كُلّ الطُّـــرق بُــه مرشوشة.
دهــب أبـصــر طِـلِــع تَرَا
كُـــلّ الزَّرايب بُه مفروشة.

ليس كُلّ ما يَتمّ على السَّاحة من نجاحات للخُطَّة السِّريَّة يَتلقَّاه الكلب زمجور بسعادة؛ كان هناك ما يثير قلقه.

قطعًا هو سعيد بهذا الارتباك الَّذي زعزع استقرار القطيع وأمنه، لدرجة ارتفعت معها مأمآت الخراف مطالبة بالتَّخلُّص من رَعويَّة تغبير. وأثلج صدره أنَّ الخراف، رغم الدَّلائل البَيِّنة على الدُّور القذر للكلاب في التَّخطيط لإشاعة الفوضى، لا زالت تثق في نزاهة الكلاب وقدرتها على إعادة الأمور إلى نصابها.

وقطعًا هو سعيد كون مُخطَّطه أضحى على مسافة رمية حجر من أن يطرح ثماره كحقيقة راسخة على أرض الواقع؛ مع ذلك فإنَّه لم يستطع، رغم مرور أكثر من أسبوع على مشهد مقاتلة خروفَين عَضًّا حتَّى الموت، التَّخلُّص من تلك الرَّجفة الَّتي لطشته وهو يرى قواطع فَكّ تعبير تقضم خصيَتي تصبير، فتقطفهما قطف الثِّمار من أغصان الأشجار.

فلوهلة خاطفة هُيّئ له أنَّ فَكَّ تعبير قد انطبق على خصيتَيه، وانتزعهما نزعًا. وكُلَّما استعاد هذا المشهد داهمته تلك الرَّجفة؛ وبعد حين لم يعد يستعيده، بل أخذ المشهد يفرض نفسه عليه في معظم الأوقات! ولم يعد يرتجف فقط، بل أخذ يتساءل في نفسه عمَّا إذا كانت المقاتلة، عَضًّا حتَّى الموت، قد لفتت انتباه الخراف إلى قدرتها على القتل؟ وماذا لو أنَّها انتبهت لهذا الأمر؟ ألن تجرؤ مستقبلًا على قضم خصيّ الكلاب؟

وفَكَّر في إن كان أخطأ عندما خَطَّط لتلك المقاتلة، وعمل على تنفيذها؟

اشتعلت شائعات جديدة.

شائعات انتشرت في القطيع انتشار النَّار في الهشيم؛ منها ما تناقلته الخراف قائلة إنَّ تغبير قَرَّر اللعب بآمالها، ومشاعرها، درجة عدم احترام عقولها، ومن ثَمَّ إعلانه عن مشاريع إنشَائيَّة خُرافيَّة لا يمكن أن يكون لها وجود على أرض الواقع. وإنَّه، حين يُعلن عن مشاريع مستحيلة التَّحقُّق، يقصد تسكين غضب القطيع وتهدئته، كي لا يتَقدَّم خطوات إضَافيَّة على طريق التَّذمُّر.

أشيع أن تغبير سيعلن عن تجهيز مرعى جديد للقطيع، أكبر من هذا المرعى بِعَشْر مرات، ويبعد في العمق الصحراوي عَشْر سنوات. الغرض منه تهيئة مرعى مستقبلي يمكنه استيعاب الأجيال الجديدة من الخراف.

اعترضت الخراف على الفكرة اعتراضًا ساخرًا، وقالت إن تغبير يفتقد للمستشارين الصالحين، كان أحدهم قال له إن ما ينفق لإعداد هذا المرعى المزعوم جدير بأن يضيف إلى مساحة المرعى الحالي عشرات الأضعاف، وبأقل مجهود وإرباك للقطيع.

أمَّا الخراف من أشباه الكلاب، فقد صعَّدت من استهجانها درجة إهانة المُعظَّم تغبير، واتِّهامه بالغباء؛ فكيف لراعٍ ذكيٍّ أن يترك مرعى على نهر، مهما كان مصابًا بالتصحُّر، ويسوق قطيعه إلى قلب الصَّحراء، إلَّا إذا كان عميلًا لجهة تسعى إلى إبادة القطيع بالجوع والعطش!

وقالت بوضوح، ودون خوف:

- تغبير خائن.

كما أشيع أنَّ تغبير سيُعلِن، في خطابه القادم، عن إنشاء حظيرة مُتطوِّرة، غاية في الاتِّساع، لا يمكن لخروف مهما بلغ بصره من حِدَّة رؤية جدرانها، كما أنَّ سقفها أعلى من مستوى الشَّمس، ما يمنح الخراف إحساسًا حَقيقيًّا بالحُريَّة، وهي المخلوقات عاشقة الحُريَّة بطبعها.

لكن إذا كان تغبير قد وصل إلى هذا الحَدّ من «استعباط» خراف قطيعه، فإنَّها لن تتَدنَّى إلى أحطّ مستوى من «الاستعباط».

حظيرة سقفها أعلى من مستوى الشَّمس، ولا يمكن رؤية جدرانها!

صرخت الخراف، من أشباه الكلاب، تستهجن هذا المشروع الخياليّ؛ قالت إنَّه مشروع مستحيل وجوده في مرعى حقيقيٍّ، لكن يُوجَد في عقول الرُّعاة النصَّابين، المشعوذين، من أمثال الخروف تغبير. فكيف لحظيرة أن تتَّسع درجة ألَّا تُرَى جدرانها، علام ستُبنَى إذن! وسقفها أعلى من مستوى الشَّمس! إنَّه الهذر، والاستخفاف بعقول شعب القطيع.

وقالت بوضوح، دون خوف:

- تغبير خائن.

كان تسريب هذه الشائعة الهَزليَّة بمثابة القَشَّة الَّتي قصمت ظهر البعير، فانتفضت الخراف في هوجة جَماعيَّة، وتَوجَّهت إلى السَّاحة المحيطة بصخرة الرَّعويَّة، وهناك تعالت مأمآتها المضغوطة بالغضب وخيبة الأمل، وأخذت تهتف، في ظِلِّ تواجد عدد كبير من كلاب حراسة صخرة الرَّعويَّة لم يُحرَّك ساكنًا:

- يا تغبير، يا تغبير.. يا راضع لبن الحمير.
- امشي ورَقَّص الليَّة.. تغبير خروف مالوش دِيَّة.
- يا تغبير حاول تفهم.. إحنا بسببك عشنا في هم.
- انطح، ارفس، عَلّي الصوت.. تغبير مجرم حَقُّه الموت.
- يا أهالينا يا خرفان.. دم اخواتنا عَ- البيبان.

كان حشد الخراف الغاضبة يزداد كثافة، والهتاف يزداد حماسة، وكلاب الحرس الرَّعويّ لا تبدي أيّ رَدّ فعل، في تواطؤ فاضح لصالح الهوجة الخِرفانيَّة، ما دفع بالخراف إلى التَّقدُّم أكثر ناحية صخرة الرَّعويَّة، تستهدف تَسلُّقها لمحاصرة تغبير، وإجباره على إعلان تَنحِّيه.

لكن، وبينما الحشد الخِرفانيّ يوشك على تَسلُّق الصَّخرة، فوجئ بالكلب زمجور يخرج من خيمة الرَّعويَّة، تلك الموروثة عن الحَاجّ عَليّ، وكان تغبير قد اتَّخذها سكنًا له، فارتفعت أصوات الهائجين بأقوى شحنة حماسة، وبأقوى شحنة حَميميَّة، تهتف:

- خروف، وكلب.. ذراع واحدة.
- يا زمجور، يا زمجور.. إحنا الشَّمس وإنت النُّور.
- يا زمجور يا ابن الكلب.. بنحبَّك من كُلّ قلب.
- يا بلدينا، يا بلدينا.. زمجور الكلب هو راعينا.
- مهما تلف ومهما تدور.. الرَّعويَّة لزمجور.

ولم تهدأ الخراف إلَّا بعد أن لُبِّيت رغبتها في إزاحة تغبير بالقُوَّة الجَبريَّة.

أبيض الهِلّي يقول:

الخرفان زاحت اللي ليها
وبيديها جابت الكلابي.

نطحت بروسها حاديها
ونشبت قلوبها ف- الكلابي.
قَنَت الرَّخيص شَرَته بغاليها
يا شؤم حظها، اشترت العذابي.

يا له من تعس هذا الخروف المُستبدّ؛ الَّذي لم يضع في قلوب الخراف ولو ذَرَّة أمل بأيّ عمل، ولا حتَّى ابتسم في وجوهها، أو قال لها كلمة لَيِّنة. شَتَّان الفارق بينه والكلب زمجور، الَّذي لا يَكفّ عن الابتسام والضَّحك في وجوهها كُلَّما أَطلَّ عليها، لا يفتأ يطمئنها، ويعدها بأنَّه لن يترك فرصة إلَّا وسيعمل لها جميع ما يستطيع؛ وإذا كانت الخراف، على طول الزَّمن، لم تجد الرَّاعي الَّذي يرفق بها، ويشفق عليها، فإنَّها قد وجدته أخيرًا.

كيف لا؟ وقد صَرَّح الكلب زمجور، في أَوَّل ظهوراته القُطعانيَّة كمسؤول رَعويّ، بأنَّ الخراف قَضيَّة وجوده؛ وأنَّه صريح، وشَفَّاف، يمقت الأسرار، ولا يحبّ المؤامرات. وأن ليس غيره من كشف للخراف، بالدَّليل المَاديّ الملموس، عن أنَّ ما كانت تَظنُّه شائعات، تطلقها الكلاب بقصد الإساءة للرُّعاة البشر، ليست إلَّا حقائق صادمة.

لقد قَدَّم الأدِلَّة المَاديَّة على أنَّ الرَّاعي البَشريّ كان سَفَّاحًا يذبح الخراف بلا شفقة.

هذا الحَاجّ يونس الميت، وآباؤه، وأجداده، سَفَّاحون، أكلة خراف. كانوا طوال الوقت يذبحونها ويأكلونها. وقد خُبِّئت أدوات

ارتكاب تلك الجرائم داخل خيمة الرَّعويَّة، قبل أن يكشف زمجور عنها لجماهير الخراف الغاضبة، في أثناء حصارها للصَّخرة مطالبة بزوال تغبير؛ سِكِّين، وساطور، ومبرد، وكلاليب!

أدوات تعذيب وقتل مرعبة.

ويا للهول، ويا للأسى؛ لقد شاهدت الخراف، بأُمّهات أعينها، الجلد وقد نُزِع عن جثث رفاقها، وجُفِّف، ليستخدمه الرَّاعي بُسُطًا وثيرة، وستائر فخمة داخل خيمته.

يا لتغبير، يا للمجرم التَّعس!

إذا كان قد أمكن للحَاجّ يونس، وهو راعٍ بَشريّ في النِّهاية، العيش في خيمة مفروشة، بأجزاء من أجساد الخراف، فكيف أمكن لتغبير ذلك والخراف أهله وأصدقاؤه؟

- يا زمجور يا خبير.. الخرفان عايزاك أمير.

وقد اجتمع قادة الكلاب في كهف المؤامرات؛ دلائل الفرح والسَّعادة تتراقص على وجوه كبارها، فالخُطَّة الموضوعة أوشكت على أن تؤتي أكلها.

والخروف تغبير حبيس مغارة صغيرة، مَخفيَّة جَيِّدًا في قلب الجبل، مضروبة حولها الحراسة المُشدَّدة، قابع في الظَّلام يَجترّ خيبته الثَّقيلة، ينتظر الهجوم عليه في كُلّ لحظة، وقتله، ومن ثَمَّ أكله. والخراف سعيدة بالخلاص من خروفها المُعظَّم،

قال الكلب نقفور للكلب زمجور مُهنِّئًا:

- مبروك؛ صخرة الرَّعويَّة تنتظرك.

قال زمجور بثبات انفعَاليّ لا يستطيعه غير داهية:

- ليس الآن؛ لن أقبل الأمر بخِفَّة المشتاقين، سيثير هذا فضول رعاة القطعان من حولنا، أولئك المُتربِّصون بنا، وقد يربطون بين قبولي الرَّعويَّة ومؤامرة ما.

نبح طغفور غاضبًا:

- أرجوك يا سيد زمجور، لا تتَردَّد فتمنح الفرصة لأمثال الخروف طنفس، فمهما كان شبه كلب إلَّا أنَّه خروف، والخروف يميل إلى الخروف. والَّراعي شبه الكلب لن يمكن نزعه بنفس سهولة نزع الرَّاعي الخروف الأصيل؛ فلو تَمكَّن طنفس من الأمر لن يُخلَع بسهولة كما خُلِع تغبير؛ طنفس يجيد ألعاب المُسايسات، ويؤدِّيها بمهارة، يفهم أساليبنا مهما كانت ملتوية.

ابتسم زمجور بثقة، وقال:

- انس طنفس، أو غير طنفس. القطيع يعشقني أنا، ولن يتنازل عنِّي أنا، أنا البطل الَّذي خَلَّصهم من طغيان الخروف تغبير، فكيف يتعدُّوني إلى غيري؟ الحقيقة أنَّهم هم من يتَمنَّون لو أتنازل وأقبل الرَّعويَّة، وأنا لن أخذلهم، سأُحقِّق أَمانيَّهم، لكن

سأل نقفور وقد وضح عليه الاقتناع بكلام زمجور:

- هذا جَيِّد، لكن إلى متى؟

- لن يطول الأمر؛ إذا كانت الخراف تريدني راعيًا فعليها أن تطلب ذلك بصوت عال تسمعه جميع القطعان، حينها لن يكون بوسع الرُّعاة البشر، ولا بوسع الخراف المعارضة، غير الرُّضوخ للمُستجدَّات.

الـكـلــب عَ الــخروف انقلب
وصاحب الحَقْ صار مَحقوق.
وابــو مــِلْـك مِـلْكه انسَلَب
زمــن ضــاعت فــيه الحقوق.
زمــجــور دَبَّر وغــَلَـب
وتـغـبـير اتسجـن في الحقوق.

ومن المُستجدَّات أنَّ مجموعة من الخراف الأصلاء لا يستهان بعددها رفضت ما اعتبرته اغتصابًا لرَعويَّة المُعظَّم تغبير، وهي الرَعويَّة الَّتي اكتسبها بأمر الرَّاحل الحَاجّ يونس، وباركها الجميع دون استثناء؛ حتَّى الكلاب.

أما وإنَّ خططًا دنيئة حيكت بليل، ودسائس قذرة دُبِّرت سِرًّا، بحيث يظهر المُعظَّم تغبير راعيًا ضعيفًا، لا يستطيع تقلد أمور

الرَّعويَّة، بزعزعة الأرض تحت حوافره إلى أن أفلتت الأمور منه، فهذا ما لن تقبله، وما لن تُمرّره.

وعليه؛ استلقت أفراد هذه المجموعة في ساحة الرَّعويَّة، عاقدة النِّيَّة على عدم مغادرتها إلى أن تُذعِن الكلاب لرغبتها، الَّتي هي الحَقّ الواجب إقراره، فتُطلِق سراح المُعظَّم تغبير، وتعيده إلى رَعويَّته.

شَكَّل الأمر مأزقًا للكلب زمجور، خصوصًا وأنَّه يحرص على استمرار الوضع في التَّقدُّم بسلاسة؛ فهو لا يَشكّ في أنَّ الأخبار تترى إلى قطعان الجوار، تنقل لرعاتها البشر أنَّ خراف قطيع: أوسط ما وراء النَّهر؛ ليس غيرها، وبنفسها، تطالب كلب الحراسة الكبير بتَولّي أمر الرَّعويَّة، فكيف إذا وصلتهم الأخبار بأنَّ طائفة من الخراف تربض في ساحة الرَّعويَّة للمطالبة بعودة راعيها تغبير، فيما تُعلِن بجرأة أنَّه ضَحيَّة تدبير مؤامراتي خَطَّط له، ونَفَّذه، الكلاب؟

هذا غير شعوره بإحساس يتنامى داخله بطيئًا، وئيدًا. يسمع سريانه الهامس كفحيح أفعى. فزمجور داهية؛ والدَّاهية يصيخ السَّمع لأصوات الأحداث فيعرف طبيعتها، وإلى أيّ الآفات أو المفترسات تنتمي؛ وماذا تريد أن تقول.

وإزاء مرابطة خراف تغبير في ساحة الرَّعويَّة، وهو الحدث ذو الصَّوت المشابه لفحيح حَيَّة الكوبرا، أدرك أنَّ هذه المرابطة

ليست سوى تَطوُّر مخيف لذلك الحادث المشؤوم، الَّذي جرت وقائعه قبل أَيَّام؛ حادث قتل الخروف تعبير للخروف تصبير عَضًّا حتَّى الموت.

بدا له أنَّ بعض الخراف ربما أدركت أنَّها قادرة على القتل عَضًّا؛ وها هي تَعضّه بشكل ما! وإن لم يبادر بحماية خصيتَيه من القطف فلا يلومَنَّ إلَّا نفسه. لذلك فكر في أنَّ التَّرَيُّث لوقت أطول لم يعد أمرًا مناسبًا، وأنَّ عليه الجلوس على صخرة الرَّعويَّة بأسرع ما يمكن.

اجتمع زمجور بكلب السِّفارة نقفور في كهف المؤامرات.

قال له:

- يا صديقي نقفور، الوقت ينفد، ونحن في مأزق، علينا أن نكون فعلًا، لا رَدَّ فعل، وإلَّا سنخسر كُلّ شيء؛ سأكلِّفك بمُهمَّة غاية في السِّريَّة، وعليك إنجازها بمنتهى السُّرعة، وبنجاح تَامّ. هل أنت مستعد؟

- مستعد أيُّها المُعظَّم زمجور.

ولأنَّ الوقت ينفد أراد نقفور الاستفادة بأكبر قدر منه، ففَضَّل عبور النَّهر مباشرة على أن يُضيِّع وقتًا طويلًا بالمشي حتَّى الجسر البعيد؛ يعرف أنَّ في النَّهر تماسيح فَتَّاكة، وأنَّ من أسهل فرائسها كلبًا يسبح برأس طافٍ لاهث، لا يمكن لحَاسَّة شَمِّه أن تغوص إلى أعماق النَّهر، فينتبه إلى التَّماسيح المُتربِّصة. لكن إن كان في النَّهر

بضعة تماسيح، فإنَّ في ساحة الرَّعويَّة العشرات منها، اتَّخذت هيئة خراف مرابطة، لو نجحت خططها، فستلتهم خصى جميع الكلاب، بأبشع مِمَّا قد تفعل التَّماسيح.

وقد أراد الله أن تعمى عنه تماسيح النَّهر، فنجح في العبور بسلام؛ ثُمَّ بعد مسيرة يوم طويل، وشمس تُوشِك على الغروب، لاحت مراع خضراء على مشارف القرية، الَّتي كانت الوطن القديم لقطيع: أوسط ما وراء النَّهر؛ حيث كان يرعى الحَاجّ يونس، رحمه الله، وحيث الحظيرة الآمنة.

وأخيرًا أشرف على حدود مرعى القطيع المقصود؛ قطيع «الحَاجّ الدَّكروريّ».

ما إن شعرت كلاب حراسة هذا القطيع بوجود كلب غريب يقترب حتَّى انطلقت تعدو تجاهه، تزمجر بعِدوانيَّة، وقد شرعت أنيابها المعقوفة مؤذنة بالشَّرّ، فتَوقَّف نقفور مكانه؛ أرخى ذيله بين فخذيه، طأطأ رأسه، ودَلَّى أذنيه، معلنًا قدومه مسالمًا، لا محاربًا؛ ضيفًا، لا مُتسلِّلًا؛ فشَمَّته الكلاب، وشَمَّها، وبعد أن اطمأنَّت إليه دارت حوله تُرقِّص ذيولها ترحيبًا به، ودار حولها يُرقِّص ذيله امتنانًا لحفاوة استقبالها له، قبل أن يفصح لها عن سبب مجيئه: عقد لقاء فَوريّ بكبير كلاب حراسة قطيع الحَاجّ الدَّكروريّ؛ الكلب «جمران».

استقبله الكلب جمران بترحيب حَقيقيّ، وإن كان حذرًا؛ فهو يعلم أنَّ من يقعي أمامه وديعًا هو رسول الكلب زمجور؛ ذلك

الكلب الخطير، الَّذي لا تستبعد استخباراته قيامه بدور خَفيّ لإقصاء المُعظَّم تغبير عن الرَّعويَّة، رغم أنَّه خليفة الحَاجّ يونس، بقرار منه.

بينما يلعق نقفور لبنًا من قعب قُدِّم له بمقتضى الضِّيافة، سمع جمران ينبح قائلًا:

- هل تعلم أنَّ الحَاجّ يونس كان صديقًا حميمًا للحَاجّ الدَّكروريّ، وأنَّ مصالح كثيرة كانت متبادلة فيما بينهما؟

رفع نقفور رأسه عن القعب وأجاب:

- كان الحَاجّ يونس، رحمه الله، حبيبًا لجميع الرُّعاة، خصوصًا كبيرهم وعظيمهم الحَاجّ الدَّكروريّ؛ وربما لمتانة تلك العلاقة، التي كانت بينهما، جئتُ أسعى إليه برسالة من كبيرنا زمجور.

بدا جمران كما لو كان لم يسمع إجابة ضيفه وهو يقول:

- لقد أسِف المُعظَّم الحَاجّ الدَّكروريّ، أشَدّ الأسف، لما تعَرَّض له قطيع صديقه العزيز بعد موته؛ أقصد هذا الَّذي يبلغنا، بشكل يَوميّ، من قلاقل لا نفهم دوافعها، ولا نعرف مقاصدها.

كان اللبن طازجًا، لذيذًا، درجة أنَّ نقفور وَدَّ لو يصمت جمران حتَّى يأتي على ما في القعب، لكن كان عليه أن يتَكلَّم:

- هذا ما أوفدني الكبير زمجور من أجل توضيحه لكم أيُّها الكبير جمران، لتُوضِّحه بدورك للراعي المُعظَّم الحَاجّ الدَّكروريّ.

للمَرَّة الثَّانية بدا جمران وكأنَّه لم يسمع شيئًا من نقفور، إذ قال بنبرة تحمل تهديدًا في طَيَّاتها الخبيثة:

- فهمت من الحَاجّ الدَّكروريّ أنَّه بصدد اتِّخاذ إجراءات لضَمّ قطيع صديقه الرَّاحل إلى قطيعه، إذا كانت الأمور هناك ليست على الاستقرار الَّذي ينشده روح صديقه العزيز الحَاجّ يونس.

فزع نقفور، فترك قعب اللبن، وأقبل بكُلّ كيانه على جمران، ونبح نباحًا مُتقطِّعًا يشي عن قلق حَادّ داهمه فجأة، وقال مستعطفًا:

- لا داعي مطلقًا لأن يُجهِد المُعظَّم الحَاجّ الدَّكروريّ نفسه، وكذلك كلابه الغَرَّاء الشَّمَّاء، بأداء ما نستطيع نحن القيام به على خير ما يرام؛ لقد أزعجنا ما أزعجه، فرُوح الحَاجّ يونس زار رُوح كبيرنا زمجور في منامه ليلة أمس، وأمره بالقيام على ما يصلح حال القطيع؛ وما أن استيقظ من نومه حتَّى قَرَّر أن يفعل ما يطمئن روح الحَاجّ يونس، خصوصًا وأنَّ خراف قطيعنا تلحّ عليه كي يتقلَّد مَهامّ رَعويَّتها، لكن ما كان له أن يُقدِم على هذه الخطوة الخطيرة قبل استئذان المُعظَّم الحَاجّ الدَّكروريّ.

ولهث نقفور لهاثا حميمًا، أظهر به تصاغرًا أشدّ، وهو يستطرد قائلًا:

- كبيرنا زمجور يطمح إلى الحصول على مباركة الحَاجّ الدَّكروريّ ليزيل أيّة مخاوف، قد تخطر على باله، من أنَّ الكلاب،

أيّة كلاب، ربما تعمل على الخروج عن طوعه، يومًا ما، مهما تَولّت من رَعويّات.

وطرح نقفور على جمران عرض زمجور المغري.

بإمكان الحَاجّ الدَّكروريّ، ما إن يسمح لزمجور بتَولّي الرَّعويّة، الحصول على كُلّ خمسة خراف عَفيّة من قطيع: أوسط ما وراء النَّهر؛ بمقابل زهيد، يساوي خروف واحد هذيل من قطيعه العظيم، وحتَّى إذا تَعسَّر عليه دفع هذا المقابل الزَّهيد، فلا حرج عليه إن لم يدفع شيئًا؛ هذا غير كِميّات وفيرة من أفخر الألبان، وشحنات ثقيلة من أجود الأصواف، ودفعات خراف مَجانيّة، ستصله دائمًا على سبيل المنح والهدايا، يُقصَد بها توطيد علاقات الصَّداقة بين قطيع الحَاجّ الدَّكروريّ وقطيع كلبه الوفيّ زمجور، بما يصُبّ في مصلحة خراف القطيعَين.

وكل قوي فوقِ مِنُّه أقوى
مسألة مفهومة وبسيطة.
والقوي مع القوي حُلَفا
والضّعيف ماله خريطة.
دكرور وزمجور مساعير
والخرافِ هيِّا اللهيطة.

استفحل شأن المرابطة في ساحة الرَّعويّة؛ أعداد الخراف ترتفع بمضيّ السَّاعة، انضَمَّت إليها أسر كاملة، الخروف مع أُمّه وأبيه، ونعجته وبنيه. الزِّحام شَلّ حركة التَّنقُّل والرَّعي، ضجيج

وصخب المأمآت الحَماسيَّة لا ينقطع ليلًا أو نهارًا، تطالب بعودة المُعظَّم تغبير. وشعارات ساخنة تُوجِّه الاتِّهام للكلاب، وأشباهها، بتدبير مؤامرة كبرى؛ كما هتفت تتَوعَّد بقضم خُصى جميع من تسَبَّبوا بأذى لخروفها المُعظَّم تغبير.

- ولا نقفور ولا زمجور.. تغبير هو المنصور.
- يا زمجور يا ابن الحراميَّه.. تغبير هو الرعويَّه.
- ارجع، ارجع يا تغبير.. الكلاب أولاد حمير.
- يا تغبير، يا تغبير .. ارجع هات حق تصبير.
- الكلاب فاشخين رجليهم.. وبأسنانا راح نخصيهم.

وكان أن عاد نقفور إلى زمجور بمباركة الحَاجّ الدَّكروريّ، وبموافقته على تَولِّيه الرَّعويَّة، فدعا كلابه المُقرَّبة لاجتماع فَوريّ بكهف المؤامرات.

قال لهم بنبرة من حسم قراره، وقَرَّر الإنجاز:

- هل تعلمون أنَّ الدمِّل المُتقيِّح لو لم يَتمّ تفريغه في الوقت المناسب تَسمَّم؟

قَلَّب ناظريه في عيون تلهث بالتَّرقُّب، ثُمَّ تساءل بمكر، بينما يضغط أنيابه:

- هل تعلمون أنَّ تفريغه يستلزم عصره بقُوَّة؟

نبحت الكلاب نباحًا عَشوائيًّا، فاستطرد زمجور:

- هل تعلمون أن الدَّم هو علامة التَّخلُّص من القيح وتطهير الدمّل؟

هَزَّت الكلاب رؤوسها هَزَّات بلهاء، فواصل زمجور:

- نوشك على إنهاء العمل بنسبة نجاح تقترب من التِّسعة والتِّسعين في المائة، أي اقترب نجاحنا من حَدَّ الكمال، غير أنَّ خطأً تَمَّ ارتكابه سهوًا يجب تصحيحه الآن، وبسرعة، مهما كانت إجراءات التَّصحيح قاسية.

قال الكلب طغفور بضجر:

- لماذا لا تَكفّ عن مُقدِّماتك الطَّويلة! فلتَتكلَّم مباشرة.

رَدَّ زمجور بجهامة لم تتَوقَّعها الكلاب؛ الَّتي لم تكن أدركت بعد أنَّ زمجور قبل مباركة الحَاجّ الدَّكروريّ شيء، وزمجور بعد مباركة الحَاجّ الدَّكروريّ شيء آخر.

- أنت أيُّها الكلب طغفور: لا تخاطبني بهذه النَّبرة مُجدَّدًا، واعرف حدودك جَيِّدًا. أنا أصنع لكم مجدًا في حين يجب ألَّا يكون لمجموعة من البلهاء أمثالكم مجد؛ طبعًا، يجب أن أقول مُقدِّمات طويلة إذا كنت أخاطب سُذَّجًا وأغبياء.

واصلت الكلاب اندهاشها لهذه النَّبرة الاستعلَائيَّة المفاجئة، وتبادلت النَّظر فيما بينها، فرأى كُلُّ واحد منها في عيني الآخر رضوخًا.

خَفَّض طغفور نباحه، ضَمَّ ذيله إلى فخذيه فيما يُقلّب نظرات ذليلة في وجوه رفاقه، ويقول:

- لا أعتقد أنَّ كلبًا يمكنه إنكار ما يُقدِّمه المُعظَّم زمجور لنا، لذلك علينا احترامه بالشَّكل اللائق به كزعيم، فليتَكلَّم كما يحلو له، وليقل ما يريد، بما يريد.

واصل زمجور الكلام بجهامة، لتأكيد الزَّعامة:

- نحن ارتكبنا خطأً ما كان بمقدورنا تجاوزه دون السُّقوط فيه؛ لقد جعلنا الخراف تنتبه لألعاب المُسايسات. لقد أشركناها في تحديد مصيرنا دون أن ننتبه لذلك؛ وها هي انفلت عيارها؛ تُنظِّم المرابطات، وترفع مطالب معاكِسة لمشروعنا.

واستطرد بنبرة ماكرة:

- وفي الأخير، وبعد جميع ما فعلناه من أجلها، تُهدِّدنا بقضم خُصى كُلّ من تسَبَّب في أذى لخروفها السَّاذج! هل رأيتم أنكر للجميل من الخراف!

ثُمَّ غمز بعينيه وهو يقول:

- يبدو أنَّنا إزاء جماعة إرعابيَّة أيُّها السَّادة؛ لكن إذا كان انشغال الخراف بالمسايسات قد أدَّى بها إلى ممارسة الشَّغب، وإطلاق التَّهديدات، فعلينا مواجهة ذلك بقسوة بالغة، قسوة تجعلها تكره المسايسات، وتلفظها إلى الأبد.

في هذا التَّوقيت، من الليلة الثَّالثة، لم يعد القمر بدرًا يتَوسَّط

السَّماء، بل قمرًا ناقصًا يميل إلى الغرب، ما جعل الإنارة خافتة في ساحة الرَّحبة. بدت السَّماء أَشدّ رَماديَّة، كأنَّ كتلًا من الدُّخان تمور فيها، والمشاعل مع ذلك تعمل بصبر.

أبيض الهِلّي يُغنِّي بجسارة، والرَّبابة تَصبّ الشَّجن في قلوب المستمعين صَبًّا، والمستمعون يكتوون به مَرَّة، ويكتوون بالظُّلم الفاحش أثناء القِصَّة مَرَّة، ويشعرون بأنَّهم هم الخراف على الحقيقة.

ولو أنَّهم نظروا حولهم لربما تَأكَّد لهم هذا الشُّعور! فكلاب القرية تربض حولهم، تراقب حلقة المَغنى باهتمام كأنَّها تحرسهم! وكأنَّ زمجور الكلب أرسلها إليهم لتَجزّ أصوافهم، وتحلب ألبانهم، وتأكل لحومهم، وتمصمص عظامهم.

إذا سُئِل خروف عن أَيّ أماكن القطيع أكثر أمنًا، والَّذي ليس بمستطاع أحد الدُّخول إليه، أو التَّواجد فيه بسهولة، فستكون الإجابة: السَّاحة المحيطة بصخرة الرَّعويَّة؛ لأنَّها مُؤمَّنة بأكبر عدد من كلاب الحراسة والتَّنظيم، مع ذلك أمكن للخراف الدُّخول إليها، والمرابطة فيها. بل وسُمِح لها طوال الوقت بتزايد أعدادها!

وليس ثَمَّة أمر خطير تعكف عليه الخراف المرابطة في السَّاحة سوى إلقاء الخطب الرَّنَّانة، والمأمأة عن الخيانات المُتكرِّرة والمُتنوِّعة الَّتي تَعرَّض لها المُعظَّم تغبير، وقد وصفته بـ: الخيار الخِرفانيّ؛ الَّذي يجب احترامه؛ مع ذلك انتشرت شائعة مفادها أنَّ المرابطين داهموا خيمة الرَّعويَّة، وسرقوا سكاكين وسواطير

الحَاجّ يونس، الله يجحمه، وربما سيستعملونها في مهاجمة الخراف جميعًا، الأشباه، والأصلاء الَّتي تمرح في مرعاها متجاهلة حبس الكلاب لخروفها المُعظَّم تغبير.

وإذا كانت الخراف أشباه الكلاب مُتأكِّدة من أنَّ الحقيقة ليست على ما يُشاع. ومُتأكِّدة من أنَّ المرابطة مُسالِمة. ومُتأكِّدة من أنَّ الخراف مخلوقات لم تُجبَل على الميل إلى العنف والقتل، فإنَّ الخراف الأصيلة هي من صَدَّقت الشَّائعات على الفور!

كيف لا تُصدِّق، وقد رأت بأُمّهات عيونها الخروف الأصيل تعبير يقاتل الخروف الأصيل تصبير حتَّى قتله؟ وهي الَّتي ما كان لها أن تتَصوَّر وقوع هذه الجريمة بين خروفَين من قبل.

كيف لا تُصدِّق، وقد أدانت مجالس المحاكم جميع الخراف الأصيلة، المُتَّهمة بارتكاب ما سبق من حوادث القتل والشَّغب؟

هكذا، لا شَكّ في أنَّ الخراف الأصيلة جُبِلت على الميل إلى العنف والقتال، فما الَّذي يمنع خراف المرابطة، وهي فصيل من الخراف الأصيلة، عن مداهمة خيمة الرَّعويَّة، والاستيلاء على سكاكين وسواطير الحَاجّ يونس، الله يولع فيه بنار جَهنَّم، لارتكاب الشَّنائع بها؟

صَدَّقت الخراف الشَّائعات حتَّى آمنت بأنَّ فصيلًا منها فصيلٌ إرعَابيٌّ، وأنَّ القضاء عليه يَصبّ في مصلحة أمن، وسلامة، واستقرار، القطيع.

ما إن بدأ عصر الرُّعاة الكلاب، برَعويَّة الكلب زمجور، حتَّى نقلت المحاكم مجالسها إلى مكان قَصيٍّ؛ في منطقة معزولة بين قطيع: أوسط ما وراء النَّهر؛ والجبل البعيد، حيث تُوجَد شجرة قبيحة قبحًا غير معهود في الأشجار، لم تُرَ يومًا مُخضرَّة، أو مثمرة، إنَّما هي مجموعة من أغصان معروقة، مُتيبِّسة، متشابكة، تتَدلَّى إلى أرض صَخريَّة، فتصنع قفصَ اعتقالٍ طَبيعيًّا.

في هذا القفص القميء يُوضَع الخروف المُتَّهم وحيدًا، لا خراف تحضر محاكمته، وجميع الحاضرين إمَّا كلابًا، وإما أشباه كلاب؛ حتَّى الَّذي يُعيَّن لدفع التُّهمة عن الخروف المُتَّهم هو كلب، أو خروف شبه كلب!

وكان أن قُبِض على ضمادة الشَّكَّاك في أثناء بحثه عن جدران الحظيرة المُتطوِّرة، تلك الَّتي تَكلَّم عنها الكلب المُعظَّم زعبور في أحد خطاباته المُوجَّهة للقطيع؛ وقد زُجَّ به إلى داخل ذلك القفص القميء، قبل أن ينخرط أحد الكلاب، وكان رَماديّ الشَّعر، في نباح محموم، فيما يشير بمخلبه تجاه حبيس القفص قائلًا:

- إنَّ هذا الخروف المجرم، مُتَّهم بأشنع تهمة يمكن أن يُتَّهم بها خروف على وجه الأرض، إنَّه يشُكّ.

نظر الكلب «قضفور»، كبير مجلس المحاكمة، إلى ضمادة نظرة باردة، كأنَّه ينظر إلى ألم أمَضَّ كُليتيه، وسأله:

- لماذا تشُكّ أيُّها الخروف؟

أجاب ضمادة:

- ولماذا لا أشُكّ إذا كان يمكنني أن أشُكّ؟

نبح قضفور بصوت ثقيل، كأنَّه يتَوجَّع، وقال:

- أنا أسألك لأحصل على إجابة؛ وإجابة مفهومة، وإلَّا فإنَّ الكلاب الحاضرة ستفقد فرصة للضَّحك؛ كما ترى، إنَّها تعاني الملل.

قال ضمادة متجاوزًا سخرية الكلب القاضي:

- إذن أنا أشَكّ لأنِّي أُحبّ الشَّكّ.

- وهل الشَّكّ شيء ملموس حتَّى يمكن لخروف أن يُحبّه، كالطَّعام، أو الشَّراب، أو المبيت؟

- نعم، إنَّه شيء ملموس عَقليًّا، يشبه العظمة سَيِّدي الكلب؛ أنا أحبّ اجترار الشَّكّ بأكثر مِمَّا تُحبّ أنت لعق العظمة.

رَجَّ قضفور رأسه بعنف، فتَخبَّطت أذناه بصدغَيه، وطارت حشرتان من ذباب الكلاب المُصفَّحة، العَصيَّة على القتل، لكن سخرية ضمادة الشَّكاك كانت قد اخترقت أذنيه، والتصقت بطبلتيهما، فلم تَفرّ مع الحشرتَين؛ مع ذلك نبح قائلًا:

- لَعْق العظام لا يَهزّ ثقتنا فيما حولنا كما يفعل اجترار الشَّكّ.

ثُمّ نبح قضفور نبحة صارخة، بنبرة مخيفة:

- يقول السَّيد الكلب المُدَّعي إنَّك تشُكّ في وجود الشَّمس؛ هل هذا حَقيقيّ؟

- نعم، أشُكّ في وجود الشَّمس، وأشُكّ في وجود الصَّحراء؛ أشُكّ في وجود كُلّ شيء، حتَّى أنِّي أشُكّ في وجودك أنت، رغم أنَّك تقعي أمامي...

قطع ضمادة كلامه، وفوجئ الحاضرون به يحزق، ويقَوِّس ظهره، ويبعر، قبل أن يستطرد:

... أنظر يا سَيِّدي؛ أنا أشُكّ في وجودي شَخصيًّا. أليست هذه بعرات طازجة أخرجتها للتَّوّ من إستي، يتصاعد منها البخار أمام عينَي؟ مع ذلك فأنا أشُكّ في أنِّي بعرتها، وأشُكّ في وجود إستي، لكن فيم يضُرّكم شَكِّي إذا كنت في النِّهاية خروفًا مسالمًا، لا أفرض شكوكي على من حولي بالقُوَّة، أنا لست إرعَابيًّا.

قضفور كلب سمين، ضخم، سواد شعره يطغى على بياضه؛ تَميَّز بمظهره عن معظم الكلاب الَّتي أجسادها في الغالب أقَلّ حجمًا منه، ذات لون بُنِّي مُتدرِّج بين الفاتح والغامق. كان قضفور مهيبًا، يملأ مكانه بوصفه كلبًا قاضيًا.

نبح نبحة خاطفة، وهرش أسفل أذنه بضريتَي مخلب سريعتَين، ثُمَّ وَجَّه لضمادة سؤالًا خاطفًا:

- هل تشُكّ في وجود الله؟

- إذا كنت أشكّ في وجودي نفسه، فكيف لا أشُكّ في وجود الله!

- هل تشَكّ في وجود المُعظَّم زعبور؟

لوهلة تَردَّد ضمادة الشَّكَّاك في الإجابة، لكنَّه سرعان ما قال:

- أنا خروف شَكَّاك، أشُكّ في وجود كُلّ شيء، وكُلّ أحد.

نبح قضفور بصرامة، فيما يضع نظرتَين نافذتَين في عينَي مُعتقَل القفص، مُكرِّرًا سؤاله:

- هل تشُكّ في وجود المُعظَّم زعبور؟

بدا ضمادة مناورًا وهو يجيب:

- قد أخبرتك بأنِّي شَكَّاك بطبعي سَيِّدي الكلب القاضي! هل أقف الآن في القفص القميء؟ هل يُوجَد أنا؟ هل يُوجَد قفص قميء؟

نبح قضفور بفراغ صبر:

- أيُّها الخروف، لا تتعبني معك؛ هل تشُكّ في وجود المُعظَّم زعبور أم لا؟

أدرك ضمادة أنَّ الإجابة، عن هذا السُّؤال تحديدًا، بصدق، سوف تودي به إلى مصير أسود؛ وأنَّ الحصافة تقتضي منه المناورة.

لكنَّه حاور نفسه سريعًا:

- ما المناورة يا ضمادة؟ أجب يا ضمادة: إنّها نوع من أنواع الكذب؛ هكذا لا تليق المناورة بشَكَّاك قَضيَّته القضاء على المناورات. هذا بخلاف أنَّ هذا الكلب قضفور لا يفهم المناورات، إنَّه يريد إجابة واضحة كأيّ غَبيّ.

ثُمَّ هكذا فَكَّر ضمادة: أليس جميع ما يحدث ربما لا يحدث؟ ربما يحلم. ربما ما يجري ليس أكثر من كابوس. ربما هو الآن يستلقي في المرعى، يَجترّ فيما يرى وهمًا يُصوِّره له الوهم. فكيف به لو استفاق من الوهم فضبط نفسه مُتلبِّسًا بأداء مناورة؟ شيء مُخجِل.

مأمأ ضمادة مجيبًا قضفور بارتباك:

- أبقى كَذَّاب لو قلت: لا أَشُك.

تنَفَّس قضفور الصّعداء، ونطق بأريَحيَّة:

- وأنا أقول إنَّ الشَّكَّاكين أعباء على أنفسهم، قبل أن يكونوا أعباءً على مجتمعاتهم؛ ولا أشُكّ في أنَّ نفسك سترتاح منك عندما أحكم عليك بالإعدام تَردِّيًا من فوق الجبل.

ثغا ضمادة الشَّكَّاك بأعلى صوت مفزوع:

- لكنّي أشَكّ في أنَّ السَّيد الخروف شبه الكلب، المُعيَّن للدِّفاع عنّي، لم يتَكلَّم بعد.

وقد نبح الخروف شبه الكلب، المُعيَّن للدِّفاع عن ضمادة، نباحًا حَادًّا، كأفضل مِمَّا تنبح الكلاب نفسها! وكان غاضبًا جِدًّا: وقال:

- إذا كان هذا الخروف يشُكّ في وجود الله فهو وشأنه، فلا أحد مِنَّا رأى الله ليُؤكِّد وجوده، لكن كيف والمُعظَّم زعبور ماثل أمامنا بشحمه ولحمه! إنَّ من يُشكِّك في وجود راعي الرَّعوية خائن؛ ولا يمكن لمخلص مثلي أن يدافع عن خائن؛ من فضلك أيُّها السَّيد القاضي الكلب قضفور، احكم عليه بالإعدام وخَلِّصنا منه.

هكذا تصدر الأحكام
إذا كانت الملوك ظوالم.
لا يُسمَع من المتهوم كلام
مهما كان بَري وسالم.
قضفور حكم على ضمادة بالإعدام
ولا وجعه ضميره ولا تالم.
وعين المظلوم لا تنام
تسهر بالشَّكوى لربِّ العوالم.

وقد بعث زمجور رسوله نقفور إلى الكلب جمران برسالة أخرى يحملها إلى راعي قطيعه، الحَاجّ الدَّكروريّ، جاء فيها:

إنَّ خرافًا مجرمة من قطيع: أوسط ما وراء النَّهر؛ تمتلك سلاحًا أبيض، تنوي إشاعة نوع من الفوضى اسمه: «الرَّغبة في الحُريَّة»؛ وهي رغبة خبيثة لن تشيعها تلك الخراف المجرمة في قطيعها

فقط، بل ستسعى إلى إشاعتها في جميع قطعان الجوار، ما يعني أنَّ قطيعكم العظيم مُستَهدف بدوره، وعليكم ألَّا تستبعدوا إصابتكم بالأذى، أو برذاذ الأذى على أَقلّ تقدير؛ بناءً عليه فإنَّ خادمكم المطيع، الكلب زمجور، المُعظَّم بمباركتكم، يطلب فرصة كاملة في إنفاذ حَلٍّ جِذريّ قاسٍ للمسألة.

وقد عاد جمران إلى نقفور حاملًا تساؤلات الحَاجّ الدَّكروريّ عن طبيعة هذا الحَلّ الجِذريّ القاسي للمسألة، فلم يجبه نقفور على الفور، بل تَحدَّث عن خراف قطيع: «أوسط ما وراء النهر»؛ وكيف أنَّها استمرأت كلام المسايسات، ثُمَّ استمرأت العمل المسايساتي، ولو أنَّها لاقت نجاحًا فإنَّ الكلام والعمل المسايسَين ستنتقل عدواهما إلى خراف جميع القطعان المحيطة؛ ودحضًا لهذا الفساد، الآخذ في التَّمدُّد، فإنَّ المُعظَّم زمجور ينوي تفعيل خُطَّة: عصر الدِّمل حتَّى دفق الدَّم؛ أو ما يمكن تسميته بـ: «العلاج بترًا».

سيستعمِل القُوَّة المُهلِكة، لتفكيك مرابطة ساحة الرَّعويَّة.

وقد أضاف نقفور، مخاطبًا جمران:

- ولتتَفضَّل يا سَيِّدي بإخبار المُعظَّم على جميع الرُّعاة، الحَاجّ الدَّكروريّ، بأنَّ المقصود ليس تفكيك المرابطة فقط، وإنَّما تفكيك فكرة استمراء العمل المسايساتي لدى الخراف؛ المقصود اتِّخاذ إجراء عنيف يكون بمثابة خيال المقاتة، يُنصَب

في قلوب الخراف وعقولها إلى الأبد، ليَهشّ عن عقولهم أيّ فكرة مُسايساتيَّة قد ترد على بالها يومًا ما.

وقد عاد نقفور إلى زمجور بموافقة الحَاجّ الدَّكروريّ على تفعيل أيّ إجراءات أمنيَّة، مهما كانت عنيفة، إذا كانت الحَلّ الوحيد الَّذي يمنع انتقال عدوى الكلام والعمل المُسايسَين إلى قطيعه.

وفيما الظَّلام حلك؛ لا نجوم، لا أقمار، لا كواكب، جرت وقائع مذبحة ساحة الرَّعويَّة؛ كثير من الخراف تقسم على أنَّ وقائعها الدَّمويَّة جرت نهارًا، لا ليلًا؛ فإذا كان قولها صحيحًا، فإنَّ كثافة الموت الَّذي انبعث من ثنايا ذلك الوقت غَطَّت على شمسه بأكثف مِمَّا تَغطِّيها السُّحب قاتمة السَّواد.

إذا كانت الوقائع الدَّمويَّة جرت نهارًا، أو ليلًا، فقد أحاط الظَّلام بالمرعى.

بل بجميع الصَّحراء.

كان آخر ما انتهى إلى خراف المرابطة، من معلومات، يفيد بأنَّ ثَمَّة تفكيكًا بالقُوَّة المُهلكة يَتمّ الإعداد له، مع ذلك لم تضع تلك المعلومات قيد التَّصديق؛ فكيف تصَدِّق وهي منذ البداية لم تتَجمَّع في ساحة الرَّعويَّة، ولم تُزِد أعدادها هناك، إلَّا بموافقة كلاب الحراسة، الَّتي كان بإمكانها منع مرابطة الخراف، مع ذلك لم تفعل.

فإن كانت الكلاب سمحت للخراف الغاضبة بالمرابطة، فعلام تُفكّك مرابطتها بالقُوَّة المُهلِكة؟

هكذا فَكَّرت خراف المرابطة؛ وعلى هذا لم تقَرِّر المغادرة، فلن يكون تفكيكٌ في أَيّ وقت، وإنَّما قد تكون مناوشة، مثل مناوشات عديدة سابقة.

أسرفت الكلاب في توجيه الإنذارات للخراف بضرورة مغادرة السَّاحة، بيد أنَّ الخراف أَصرَّت على موقفها الرَّافض؛ فقد اعتبر حكماؤها توجيه الإنذارات العديدة ليس غير جعجعة دون طحن، فمن يرغب في الفعل لا يسرف في توجيه الإنذارات؛ إنَّ الكلاب تواصل ممارسة ألعابها المُسايساتيَّة الحقيرة، لا أكثر، ولا أَقلّ، تطمح لإنهاء الأمر بعَمليَّة تخويف ساذجة؛ عَمليَّة مَجانيَّة، مع ذلك تربح بها الكثير.

كما انتهى إلى خراف المرابطة أنَّ الرُّعاة البشر لقطعان الجوار، خصوصًا الحَاجّ الدَّكروريّ، وقد كانوا أصدقاءً للمرحوم الحَاجّ يونس، أمناءً على خرافه كأنَّها خرافهم، يتابعون تطَوُّرات أحداث المرابطة عن كثب، ما زادها إصرارًا على البقاء مُرابِطة في ساحة الرَّعويَّة.

القطعان المحيطة تتابع إذن؛ والخراف لا ترتكب جريمة إذا تَصدَّت لكلاب تسعى لإجهاض قَضيَّتها العادلة: استعادة رَعويَّة المُعظَّم تغبير؛ وعلى هذا فإنَّ الرُّعاة البشر لن يسمحوا بتنفيذ هذا التَّفكيك المُهلِك، الَّذي تتَوعَّدهم به الكلاب.

لكن؛ حدث غير المُتوقَّع.

كتائب عديدة من الكلاب هاجمت خراف المرابطة بالفعل. كلاب كثيرة العدد. من أين جاءت كُلُّ هذه الكلاب؟ بل من أين جاءت كُلُّ هذه الذِّئاب!

إنَّها ذئاب، لا كلاب.

أقسمت الخراف النَّاجية، من مذبحة ساحة الرَّعويَّة، على أنَّ ذئابًا هاجمتها، لا كلابًا. فعلى طول الزَّمن تهاجم الكلابُ الخرافَ؛ تنبح، تزمجر، تخمش، تعَضّ، قد تقتل خروفًا، أو اثنين؛ خطأً، أو عمدًا؛ لكنَّها لم تكن أبدًا تبادر بهذا القتل الفَوريّ؛ كأنَّها تقتل لتأكل! ولا يقتل ليأكل غير الذِّئاب. والذِّئاب إذا جاعت تقتل دون رحمة، دون اعتبار للدَّم، لا تَهتمّ لغير أن تأكل.

كانت الخمسة من الكلاب المذئوبة تنقَضّ على الخروف الواحد، تُنفِذ أنيابها في مقاتله: الرَّقبة، وأسفل البطن، والخصيتَين؛ وكان مؤلمًا أن يحاول الخروف النَّجاة، راغبًا في الهرب، وقد تَبيَّن له أنَّ التَّفكيك يُمارَس فعلًا بالقُوَّة المُهلِكة، فلا يُمنَح الفرصة، بل يُهَاجَم من كُلّ ناحية، ويُقتَل ببشاعة.

وكان مؤلمًا أن يرى الخروف الصَّريع حَمَله يُفتَرس، ويتَمزَّق أشلاءً بين الفكوك المفترسة؛ تلك الفكوك الَّتي طالما عُوِّل عليها أن تحرسهم!

هل أفلتت النِّعاج، أو الشِّياه؟

لم تفلت. كانت تلقى نفس المصير البائس.

وقبل أن يداهم ظلام الموت عينَي الخروف الصَّريع كان روحه النَّازف يلوذ بظلام تصنعه مُخيِّلته، كي لا يرى حَمَله، ولا نعجته، أو أُمَّه، أو أباه، وهو يُقتَل ببشاعة.

أظلمت؛ طفا الغبار مثل دخان الحرائق، كتل سواد تَصَّاعد إلى طبقات السَّماء بتثاقل، وعلى الأرض تناثرت الجثث مُقطَّعة؛ عطر الدَّم فَوَّاح، وسخونته تُبخِّر البرد. ومع أنَّ الظَّلام غَطَّى الجثث، فقد ظَلَّت عيونها جاحظة، تومض كالنُّجوم بسؤال واحد: فيم قُتِلنا؟

وبينما أرواح الخراف تُحلِّق إلى الأعالي كانت تتساءل باندهاش مُلطَّخ بدمائها:

- هل كُنَّا إلَّا خرافًا معارضة؟

انتهت مذبحة الرَّعويَّة إلى أبشع مِمَّا تَوقَّعته الكلاب نفسها. ونجحت الدَّمَويَّة المفرطة لهذه المذبحة في إلزام جميع الخراف الصَّمت التَّامّ، وتَجنُّب المسايسات نِهائيًّا، إلَّا بما يوافق اتِّجاهات صخرة الرَّعويَّة.

ونشط الخروف شبه الكلب، الذَّائع لخمس، يتَنقَّل في أنحاء المرعى، يتَودَّد إلى الخراف، ذاكرًا لها أنْ ليس كُلّ خروف، شبه كلب، بالضَّرورة يكره الخراف الأصيلة، بل إنَّ خرافًا من أشباه الكلاب قد تُحبّ الخراف الأصيلة بأقوى مِمَّا تُحبّ نفسها،

وتريد لها الخير بأشَدّ مِمَّا تريده لنفسها؛ وأنَّ الخير كُلّ الخير في ترك المسايسات كلامًا وأفعالًا، والاتِّجاه إلى المزيد من العمل، لأنَّ المزيد من العمل هو الشَّيء الوحيد النَّافع نفعًا أكيدًا لا ضرر فيه. أمَّا المسايسة!

ويُقطِّب لخمس جبينه، زارًّا عينيه، بملامح وجه تحمل أسفًا عميقًا، وبنبرة لائمة، يمأمئ:

- لعن الله المُسايسَة! بماذا أفادت المُسايسَة؟ من تحت رأسها، وبجرائرها، قَتَل الصَّديق صديقَه ظلمًا وعدوانًا. أم نسيتم ما فعله المجرم تعبير بالمسكين تصبير؟ وليتكم لا تنسوا كيف كانت خراف المرابطة تَستعدّ لذبحكم بسكاكين وسواطير الحَاجّ يونس، الله يرحمه، لولا أنَّ العناية الإلهيَّة دفعت بالكلاب إلى التَّدخُّل في اللحظة الأخيرة، وبما عُرِف عنها من نبل، وشهامة، وإقدام، وخوف على أمن الخراف، ورغبة في استقرار القطيع، تَمكَّنت من وأد المشروع الإرعابيّ المجرم.

واستَمّر الذَّائع لخمس يشيع بين الخراف، بمأمأة ذات نبرة تَحذيريَّة مُهدِّدة، أنَّها إن بقيت على اهتمامها بالشُّئون المسايساتيَّة، خصوصًا لو كان اهتمامًا على غير ما تريده الكلاب، فإنَّ قطيعها سيَظلّ مفرخًا إرعابيًّا نشطًا؛ في هذه الحالة فإنَّ الكلاب، والخراف أشباه الكلاب، وحتَّى الخراف الأصيلة، المُحبَّة للقطيع بإخلاص، لن تقبل بوجود مفرخ إرعابيّ. ما يجعل مستقبلًا أسود ينتظركم.

ذات مَرَّة وقف الذَّائع لخمس في وسط المرعى، وبمأمأة عالية كأنَّه يخطب قال:

- نمَى إلى علم العظمة الرَّعويَّة أنَّ بعض خراف قطيعنا على اتِّصال بمجرمي الخراف من قطعان الجوار، تُدبِّر لزعزعة الأمن والاستقرار، الَّذين تَوفَّرا بمجهودات وتوجيهات المُعظَّم زمجور.

وفي مَرَّة أخرى زعق لخمس بأعلى مأمأة:

- أيُّها الخراف الفضلاء؛ لعلَّكم تعرفون الحَاجّ الدَّكروريّ، إنَّه العَدوّ اللدود لراعيكم الرَّاحل، وربما هو من تسَبَّب في وفاته عندما ضبطه الحَاجّ يونس متلبِّسًا بممارسة الحُبّ مع زوجته سعدى، هذا الحَاجّ الدَّكروريّ، خائن الصَّداقة، يجتمع بخرافكم الإجرَاميَّة الأصيلة سِرًّا، ويتآمر معها كي يتَمكَّن من خطف قطيعنا، وضَمّه إلى قطيعه.

ومأمأ الذَّائع لخمس صاخبًا بمنتهى الحماسة، بحنجرة هادرة كحنجرة ناقة فقدت قاعودها:

- لكنَّه قطيعنا. هل يمكن لأحدنا أن يُفرِّط في قطيعه؟ طبعًا لا يمكن، سندافع عن قطيعنا حتَّى آخر جذر شجيرة؛ سندافع عنه حتَّى آخر سِحليَّة تتَنقَّل بين شقوق صخوره؛ سندافع عنه حتَّى آخر ذبابة مقرفة تطير في فضاءاته، بل نموت قبل أن يخطفه الأعداء؛ إنَّ تلك الخراف، الَّتي تتآمر مع الحَاجّ الدَّكروريّ ضِدّ قطيعها، ترتكب جريمة الخيانة العظمى.

وكان المُعظَّم زمجور برفقة نقفور وبعض كلابه، يقوم بجولة تَفقُّديَّة، عندما تناهى إلى سمعه صوت الخروف لخمس الحَماسيّ، فسمع ما قاله، وقد أثَّر فيه ما سمعه لدرجة جعلت شعره ينتصب مثل شوك القنفذ! فسأل زمجور نقفور بنبحة خافتة عميقة:

- هل اقشَعرَّ جلدك كما اقشَعرّ جلدي؟

هَزَّ نقفور رأسه، ولهث، وسَيَّل لعابًا، وأجاب:

- نعم، لقد اقشَعرّ جلدي.

وللحظة مُلهِمة، وهي لحظة لا بُدّ من أن تصادف توقيتها المناسب لدى الرُّعاة المُحدَثين، شعر زمجور بأنَّ القطيع كيان عظيم بالفعل! أعظم مِمَّا كان يظُنّ؛ إنَّه ليس مُجرَّد خراف تأكل، وتشرب، وتبعُر، وتنام؛ وحتَّى ليس كلابًا تحرس؛ وإنَّما سحالي في شقوق، وذباب طائر، ورمال، وكثبان، ونهر، وجذور شجيرات، وأغصان أشجار يابسة، وسماء، وشمس، وقمر، وليل، ونهار.

يا لها من لحظة عظيمة شعر زمجور معها بأنَّه قد اكتشف شيئًا أرقى من مُجرَّد تَجمُّع خِرفانيّ ترعاه الكلاب، لقد اكتشف كيانًا عظيمًا، ويمكن تسميته بـ ب بـ ب بـ المَقرّ.

وبدءًا من تلك اللحظة المُلهِمة سيعمل المُعظَّم زمجور على الارتقاء بمفهوم القطيع لدى الخراف، من تَجمُّع يترحَّل خلف الكلأ لمصلحة الخروف، إلى خراف تترحَّل خلف الكلأ لمصلحة

التَّجمُّع. فإذا عمل الكُلّ من أجل التَّجمُّع، فإنَّ هذا التَّجمُّع سيتَوقَّف عن الشَّتات ويصبح مقَرًّا.

وعلى هذا صارت أَهمّ تَوجُّهات صخرة الرَّعويَّة هي التَّأكيد المتواصل، غير المنقطع ليلًا أو نهارًا، على قيمة القطيع، مهما طغت قيمة القطيع على قيمة الخروف.

كان على جميع الخراف إدراك أنَّ القطيع هو الأَوَّل والآخر؛ هو من قبل ومن بعد؛ هو من فوق ومن تحت؛ هو من جُوَّة ومن بَرَّة.

وكان أن كَلَّف المُعظَّم زمجور الذَّائع لخمس، لما يملكه من فصاحة بيان، وقدرة تعبيرية خلاقة يقشَعرّ لهما الجلد، بكتابة شعر «مَقرِّيّ»، على الخراف أن تهتف به كُلّ صباح، قبل أن تَهمّ بأعمال الرَّعي، لتنمو قيمة المَقرّ في وجدانها أكثر وأكثر، وتنسحق قيمة الفرد أكثر وأكثر.

غاب الذَّائع لخمس ساعة، وبعد أن أكل وشرب، انجعص على جنبه يَجترّ، وتَأمَّل السَّماء، فكتب هذا النَّشيد الَّذي قُدِّر له، على بساطته، أن يكون سببًا رئيسًا من أسباب تشكيل الوعي المَقرِّي للخراف:

يا مَقـرِّنا، يا مَقـرِّنا   إنت الحيـاة والممات.

مش هانقَصَّر معاك   مـهمـا قـلت هـات.

وإن شَـخِّـيت علينا   شَخِّتـك سُكَّـر نبات.

وإن تَـفِّـيت عـلينا   تَـفِّـتـك شـربـات.

وإن حَطّـيت علينا مـش هـانئن بآهـات.

يا مَقـرّنـا، يا مَقـرّنـا إنت الحيـاة والممات.

هذا غير حِرص المُعظَّم زمجور على الاجتماع بطنفس، في خيمة الرَّعويَّة، أكثر من مَرَّة، والتَّشديد عليه بضرورة توجيه معنَويَّات الخراف إلى الرَّبط بين الرَّاعي والمَقرّ ربطًا وثيقًا، بحيث تفهم أنَّ أيّ نقد مُوجَّه للرَّاعي هو بالضَّرورة نقد مُوجَّه تلقَائيًا للمَقرّ، أو العكس، ما يجعله نقدًا مسيئًا للَّراعي وللمَقرّ على السَّواء، فيترَتَّب عليه اعتبار النَّقد جريمة ترقى إلى مستوى الخيانة العظمى المستلزمة للعقاب الرَّادع.

- قلوب الوالدين يا إخواننا سهلة الحرق؛ احترقت على الأبناء، الَّذين منهم من قُتِل، ومنهم من اعتُقِل؛ يا خراب البيوت يا إخواننا؛ لم تُسمَع فيها ضحكة، ولا رُؤِيت بسمة، ولا تعلو فيها زجرةُ أب يخاف على عياله، فيُربِّيهم بصوته العالي. كان مِن الأبناء، الرَّاحلين والمحبوسين، من هم عُزَّابٌ، ومن هم آباءٌ. والزَّوجات إمَّا تَرمَّلنَ وإما هُجِرنَ، نهشت القبور أزواجهن، أو خطفتهم السُّجون؛ ويا لوعة قلوب الأجداد على الأحفاد، «أعَزُّ من الوِلْد وِلْد الوِلْد». فأين ضمير السُّلطان من كُلّ الَّذي كانا كيف يسعد وجميع الشَّعب يأسان؟ أين ضميره وليس سواه يطرب في القصر بغناء الجواري ولعب الغلمان؟ والشَّعب بطول البلاد وعرضها نصب للعزاء صوانًا؟

طَيِّب إذا كان لا ضمير عنده أفلا يخشى الله؟

هكذا صاح الشَّيخ أبيض الهِلّي مُكرِّرًا السُّؤال الأخير:

- أفلا يخشى الكلب زمجور الله؟

هَبَّ خفاجة واقفًا؛ شَقَّ جلبابه المُرقَّع، وصرخ بحرقة أشعلت أوتار حنجرته، حتَّى أنَّ صوته خرج من فمه يُدخِّن:

- يلعن دين زمجور يا شيخ أبيض! يا أخي بَطِّل قول، وخَلِّ الرَّبابة تقول! يا أخي غَنِّ كلامك المعقول.

في لمح البصر جرى القوس على الوتر، بلحن هادر من أعلى المَنصَّة انحدر، وبصوت ملسوع يركض أنشد أبيض الهِلّي:

زمجور ما يِهمُّه غير إِنَّه
يُبقا ملك مِ الملوكي.
تموت النَّاس تحت مِنَّه
حَوَش غارو في الهالوكي.
ولا عنده ضمير يِانَّه
شوف النَّاس أبصر قالوكي.
إذا كان ضميره فِنَّه
ألا يخشى ملك الملوكي؟

جاوب الحكيم وقال
زمجور أَجّر مشايخ.
أعطاهم من المال أشوال
فقالو بالدِّين قول بايخ.
افتروا على الحق باحوال

وحـالـهم كـان حال نايخ.
مـشـوا في سـكك الضَّلال
أشـباه كـلاب حالها شايخ.

زمـجـور راعـي كـذاب
والكـذب من فـيه ذائع.
إذا وعـد فـالـوعد سراب
والنصب صار فعل شائع.
الـلـوع طـبـع الـكـلاب
والصدق مـهدور وضائع.
مـا تـنـبـح إلا بالـشـين
والـزيـن قـول الـمذائع.

زمـجـور سـرق الرَّعـويّـة
ورشا القضاة في المحاكم.
والدَّم عـنـده بـقـا مـيَّه
قَتـَّال قُـتَـلا وحـاكِم.
شيخ مَنصَر كبـير حَـراميَّة
عَ الـحكم قـابض وشاكِم.
الـكـلـب يـسـرق ويـقـتـل
والخروف هوَّ اللي يتحاكِم.

زمـجـور سـَنِّ الـقـوانـين

ظـالـمـة وجـايرة هَـلوسي.
الكـلاب تـركب عـلى الطِّين
والـخـراف تـدفـع فُـلوسي.
الكـلاب أسـيـاد سـلاطـين
والـخـراف عـبـيد نُجـوسي.
الـقَـضا يـبـوس روس دول
وعلى روس دُوكهَم يُدوسي.

ظَلَّ المُعظَّم زمجور يخشى تبعات مذبحة ساحة الرَّعويَّة إلى أبعد مدى. وظَلَّ يعتقد أنّه لو لم يَتمّ التَّعامل مع تبعاتها بسياسة حكيمة فإنَّ عواقبها ستكون وخيمة. وظَلَّ هاجسه يتنامى: ماذا لو أفلتت الخراف من حصاره واتَّجهت للعمل المسايساتي؟

ستمارس الخراف المسايسة بأقوى مِمَّا سبق؛ حينئذ سرعان ما تَتعلَّم نُظُم العمل العَامّ، وأصول التَّنظيم الدَّاخليّ، وطبيعة حراسة الحدود، لتكون النَّتيجة الحَتميَّة هي: ظهور الكلاب بمظهر المخلوقات الزَّائدة عن حاجة القطيع.

بل لن تكون مُجرَّد مخلوقات زائدة وفقط، وإنَّما مُتسلِّقة! مثل الحشرات الَّتي لا تمتلك قدرات التَّعايش الحَقيقيَّة، فتلتصق بالآخرين، وتقتات بمَصّ دمائهم.

أصيب زمجور بفزع مباغت، خاطف، عندما تَصوَّر نفسه حشرة تلتصق بالقطيع؛ كذبابة الكلاب المُصفَّحة الَّتي تلتصق به. لو طُرِد عن القطيع يموت جوعًا، أو يضيع شريدًا، أو يعيش ذليلًا، فيما يظَلّ القطيع يعيش، وبأفضل حال.

لا. هذا حقير. هل تحيا الكلاب بنفس الطَّريقة الَّتي يحيا بها الذُّباب؟

فكان أن سارع باستدعاء رفاقه، من مُنظِّمي ومُنفِّذي مذبحة الرَّعويَّة.

وفي كهف المؤامرات، بينما الليل حمل ثقيل، والخراف المُعتَقلة تَئنّ في أجواف الكهوف المتناثرة بسفح الجبل، ألقى زمجور على رفاقه سؤاله العويص:

- هل تعيش الكلاب بالتَّغذِّي على الخراف، كما يعيش الذُّباب بالتَّغذِّي على الكلاب؟

لم يجبه كلب واحد، كانت جميعها تنظر إلى كُلِّ مكان داخل الكهف بعيون لا تستَقرّ، وألسنة مُتدليَّة تقطر لعابًا، غير أنَّ طنفس هو من أجاب:

- إذا كانت الكلاب ليست في حاجة إلى الذُّباب، فإنَّ الخراف في حاجة إلى الكلاب.

- تستطيع الخراف مع الوقت تَعلُّم كُلّ ما يغنيها عن الحاجة إلينا.

لوى طنفس مِشْفريه بما يعني أنَّه سيقول شيئًا حكيمًا:

- سَيِّدي المُعظَّم زمجور، نعلم أنَّ الخالق لم يخلق حيوانًا

عبثًا، وقد خُلِقت الخراف لتنتج اللبن والصُّوف، فلماذا خُلِقت الكلاب، إذا كانت لا تنتج شيئًا؟

هَزَّ زمجور رأسه وقال:

- إذا كان بإمكان الخراف تَعلُّم ما يجعلها في غناء عن وجودنا، فلا أعلم لماذا خُلِقنا!

قال طنفس بامتعاض:

- الخراف لا يمكنها تَعنَّم شيء غير الأكل، والشُّرب، والاجترار، والتَّبعُّر، ومنح المزيد من الأصواف والألبان.

واستدرك بمأمأة فخمة:

- فمن لشئون الحراسة، والاستفادة بالألبان والأصواف، إن لم تخلق الكلاب؟

وحزق طنفس» وتبَوَّل، ومأمأ بعمق قائلًا:

- من للرَّعويَّات، إذا كانت الرَّعويَّات خُلِقت للكلاب؟

انشرح صدر زمجور لمقالة طنفس الرَّصينة، ذات الحُجَّة القَويَّة، ما جعلها أبعد ما تكون عن مقالة للتَّزلُّف؛ فعَلا، لقد استلمت الخراف الرَّعويَّة وفشلت؛ فمن للرَّعويَّة إذا لم تكن هنا كلاب؟ هكذا أقبل على رفاقه بروح نشيط، مناقشًا المُستجدَّات باستفاضة، مستعرضًا كَيفيَّات القضاء على النَّزعة المُسايساتيَّة النَّاشئة لدى الخراف.

وفي النّهاية كانت قرارات.

وعلى ذلك..

أُعتيد ظهور الذَّائع لخمس، يَوميًّا، في مختلف أنحاء القطيع، والخطابة في الخراف عن آمال المُعظَّم زمجور، الدَّائرة حول هذا المَقرّ الَّذي يحتضن الجميع بالحُبّ، ويجد فيه الجميع فرصًا متكافئة للحياة؛ وكيف يوَدّ لو يتَمكَّن من النُّهوض، بهذا المَقرّ، دون تحميل الخراف محدودة المرعى أيّ تبعات مجهدة، وإعداده للأجيال القادمة من خراف وكلاب؛ لكن إذا كان المَقرّ للجميع فعلى الجميع دفع كُلفة النُّهوض به؛ والمُعظَّم زمجور لا يَشكّ في قُوَّة انتماء الخراف للمَقرّ، وإخلاصها له، حَدّ التَّضحية بدمائها للحفاظ عليه، وعدم توانيها عن تَحمُّل المَشقَّات المُتوقَّعة بِجَلَدٍ.

والحَقُّ أنَّ فكرة إيجاد مَقرّ لهي الفكرة الدَّالَّة على الشَّأو البعيد الَّذي بلغه دهاء الكلب زمجور؛ إذ خُيِّل للخراف أنَّها قد وجدت قاسمًا مشتركًا مع الكلاب، هذا المَقرّ الواحد مع ذلك يضُمّ الجميع، يعمل على خدمته الجميع، يفيد بمعطياته الجميع، يضمن الكرامة للجميع، الجميع سواسية داخل حدوده، الجميع سواسية تحت سمائه.

وها هي نتائج السَّلام المَقرّي أثمرت بشائرها سريعًا.

فقد أعلن الذَّائع لخمس عن شروع الرَّعويَّة في العمل على

تجهيز مرعى جديد، أوسع من المرعى الحالي بعشر مَرَّات، ويبعد عنه مسيرة عشر سنوات.

ورغم انزعاج قسم كبير من الخراف، بسبب البعد النَّائي للمرعى الجديد، ورؤية هذا القسم أنه لو صُرِف ربع الجَهد المُقرَّر صرفه على المرعى الجديد إلى المرعى الحالي لأنتج أفضل بعشر مَرَّات، فإنَّ خرافًا من أشباه الكلاب تحديدًا سَفَّهت تلك الرُّؤية، واعتبرتها ساذجة، تتوافق مع السِّياق الفِكريّ الخِرفانيّ، الَّذي لا يجيد التَّعامل مع المستقبل، ولا يدرك حتَّى الاحتياجات المحتملة للأجيال القادمة، والَّتي لا تفتأ أعدادها في زيادة مُطَّردة، تأكل الأخضر واليابس.

وقالت بوضوح، وبثقة:

- المُعظَّم زمجور ذكيٌّ وأمين.

ولم تَمرّ بضعة أيَّام حتَّى أذاع لخمس خبر شروع الرَّعويَّة في إنشاء أضخم حظيرة لمبيت الخراف؛ وأنَّ الحظيرة مُتطوَّرة جِدًّا، واسعة جِدًّا جِدًّا، بحيث لا يمكن لخروف رؤية جدرانها، أو سقفها، مهما أجهد ناظريه!

وقد اعترض القسم الكبير، نفسه، من الخراف، معتبرًا المشروع عملاً استعراضيًّا بحتًا، لا فائدة حَقيقيَّة منه، إذا كان بمستطاع الخراف المبيت بحظيرة مُتوسِّطة، ذات إمكانيَّات مَعيشيَّة وأمنيَّة جَيِّدة، مثل حظيرة الحَاجّ يونس، الله يحرق عظامه؛ لكن

الخراف من أشباه الكلاب لفتت الانتباه إلى الفَاعليَّة الممتازة لمشروع الحظيرة الجديدة، وأهميَّته، فقالت إنَّ الخراف كائنات تعشق الحُريَّة والانطلاق بالفطرة، وإنَّ إنشاء حظيرة للمبيت لا يمكن رؤية جدرانها، ولا سقفها، هو ما سيمنح الخراف شعورًا مستدامًا بحُريَّتها وانطلاقها.

وقالت بوضوح، وثقة:

- المُعظَّم زمجور ذكيٌّ وأمين.

ثُمَّ لم تنقضِ أيَّام ليُعلَن عن شروع الرَّعويَّة في بدء مشروع تَنمويّ، وُصِف بأنَّه الأكبر بين جميع المشاريع السَّابق الإعلان عنها: إنشاء مجمع إنتاجيّ يحتوي على «مَقصَّة» لجَزّ الصُّوف، و«محلبة» لجمع الألبان. تُنشئان على أفضل الشُّروط الضَّامنة لصِحَّة وسلامة الخراف؛ وبخلاف أنَّ «المَقصَّة والمحلبة» ستكونان قادرتين على استقبال مئة خروف وشاة، للقَصّ والحلب في الدُّفعة الواحدة، فإنَّ من سيقوم بالعمليتَين ليس ذكور الكلاب القائمة عليها حاليًا، وإنَّما إناث الكلاب الطَّريدة من القطعان، والَّتي سيَتمّ جلبها للعيش في المَقرّ، ونزع مخالبها، ومن ثَمَّ تدريبها على إجراء عَمليَّات قَصّ وحلب، نظيفة وآمنة..

وكالمعتاد، استقبل قسم الخراف المعترضة هذا الخبر بضيق واستهجان؛ وتساءلت فيما بينهما عَمَّا إذا كانت الخراف قد تَحوَّلت في نظر الكلاب إلى مُجرَّد ماكينات لإنتاج الصُّوف واللبن؟ هل مُحِيت كرامتها لدرجة أنَّ ذكور الكلاب صارت تتَعفَّف عن

المجيء إليها، وقَصّها، وحلبها، في أماكنها كالمعتاد؟ ويا له من قهر، وإذلال، أن تذهب ذكور الخراف وإناثها طواعية، إلى أماكن قَصٍّ وحلب، تديرها كلبات حقيرات.

لكن الخراف، من أشباه الكلاب، دائمًا ما تكون لديها مُبرِّرات قَويَّة لتأييد أيّ مشروع رَعويّ يعلن عنه ذائعها لخمس؛ فقالت بنبرة أدهشها ضيق أفق الخراف: لو لم تكن هذه الكائنات غَبيَّة لانتبهت إلى أنَّ شروع المُعظَّم زمجور في تشييد مَقصَّة ومحلبة يعني أنَّه يقدم دليلًا دامغًا على اهتمامه الكبير بالخراف، ورفقه بها. لو لم تكن هذه الكائنات غَبيَّة لأدركت أنَّ جَزَّ الصُّوف، وجمع الألبان، هما السَّببان الرَّئيسان المؤدِّيان إلى انتهاك خُصوصيَّة الخراف طوال الوقت، عندما تضطَرّ كلاب القَصّ والحلب إلى الانتشار في جميع أنحاء القطيع، وما يتبع هذا من قيام كلاب التَّنظيم الدَّاخليّ، المرافقة لكلاب القَصّ والحلب، باعتداءات غير مقصودة على الخراف، وشياهها، ونعاجها، وحملانها. لكن ببناء المنشأتَين الجديدتَين لن يكون هناك ما يدعو الكلاب لانتهاك خُصوصيَّات الخراف، ومن ثَمَّ تخفيف وجودها في الأنحاء الدَّاخليَّة، ما يُقلِّل بدَوره من الاشتباكات الَّتي دائمًا ما تكون مهينة للخراف.

وكيف لا تنتبه الخراف للفتة أخرى ذات دلالة كريمة، لا تخطئها عين منصف، لو لم تكن بالفعل مخلوقات غليظة العقل، غباؤها مُتكلَّس؟ كيف لا تنتبه إلى أنَّ توظيف كلبات، لا كلاب، للقَصّ والحلب، هو أرفق بذكورها، وأرحم وأشرف

لإناثها؟ أليست إناث الكلاب أطوع في التَّعامل مع ذكور الخراف من ذكور الكلاب؟ حتَّى أنَّ بإمكانها إقحام قلوبها في قصص حب! هل نُسِيت قِصَّة الكلبة شطورة!

ثُمَّ، أليس الأشرف للنِّعاج والشِّياه أن يَطِّلع على ضروعها، وهي مناطق أنثويَّة مثيرة وحَسَّاسة، إناث الكلاب، لا ذكورها؟

وأليس الأرحم بها أن تحلبها إناث كلاب بلا مخالب، بدلًا من ذكور كلاب لا يمكنها التَّخلِّي عن مخالبها، فلا تنتهي من الحلب، مَرَّة، دون جرح الضُّروع، أو خدشها؟

وقالت بوضوح، وبثقة:

- المُعظَّم زمجور ذكيٌّ وأمين.

لكن، وعلى عكس جميع المنشآت السَّابق ذكرها، والَّتي لا ينفكّ الخروف الذَّائع لخمس يوالي إذاعة أخبار شروع الرَّعويَّة في إنشائها، ولا يرون أبنية لها، أو استعدادات تشير إلى الشُّروع الفِعليّ في إنشائها، فإنَّ مبنًى ضخمًا رؤيَت جدرانه تعلو فعلًا! جدران سميكة، كئيبة، مغلقة، لا تتَخلَّلها نوافذ، أو أبواب، إلَّا باب وحيد ضَيِّق.

وبينما أخذت الخراف تقضى أوقات اجترارها في محاولات التَّكهُّن بماهيَّة ما سيكونه هذا البناء المتصاعد حثيثًا، هل هو الحظيرة؟ أم المَقصَّة؟ أم المحلبة؟ إذا بالخبر المباغت، الصَّادم، يفجؤها بماهيَّته: إنَّه سجن.

جزع القسم الأكبر من الخراف، خَاصَّة وأنَّ مساحة السِّجن بدت كبيرة جِدًّا، تكفي القطيع كُلّه لو زُجّ به إليه، وقد تزيد! فما الجريمة الَّتي تتَخوَّف الرَّعويَّة من إقدام القطيع كُلّه على ارتكابها حتَّى تعدّ له سجنًا يستوعبه بأكمله؟

انتشر اللغط مصحوبًا بالتَّذمُّر، غير أنَّ الذَّائع لخمس تنَقَّل في الأرجاء، وتَكلَّم مع الخراف الغاضبة، وقال ما مفاده إنَّ رحابة السَّجن ليس مقصودًا بها استيعاب القطيع كُلّه، فلا يمكن حبس الجميع! إذ ماذا سيكون، لو حُبِس الجميع، غير خراب الرَّعويَّة؟ وطمأنها قائلًا:

- إخواني الخراف؛ هذا السِّجن ليس لكم.

وسألهم:

- هل تُحبّون تعطيل حياتكم؟

أجابوه:

- لا.

سألهم:

- هل تأمنون للمجرمين كي يعيشوا بينكم؟

أجابوه:

- لا.

سألهم:

- هل تعارضون حبس الإرعابيّين؟

أجابوه:

- لا.

فقال لهم، مؤرجحًا مِشْفَريه بضحكة كبيرة:

- فعلام تذَمُّركم وفزعكم إذن؟ إنَّ هذا السِّجن لمثيري الشَّغب، وللمجرمين، وللإرعابيّين، وهؤلاء كثر، كثر جِدًّا، ربما أعدادهم أكبر من أعداد قطيعكم، أنتم تعرفون قليلًا، والرَّعويَّة تعرف كثيرًا، فدعوا الرَّعويَّة تعمل لصالح أمنكم، واستقراركم، ليمكنكم الأكل، والشُّرب، والمبيت، بسلام؛ كونوا مع رَعويَّتكم ومَقرّكم بكُلّ جوارحكم.

وهكذا اطمأنَّت الخراف لسياقات الذَّائع لخمس، فعَبَّأت قلوبها بالمسئوليَّة، ولتُعدِّل من أوضاع جوارحها لصالح الرَّعويَّة، والمَقرّ.

صارت الإعلانات عن تحقيق المُعظَّم زمجور للإنجازات تترى، تهطل بأغزر مِمَّا تهطل أمطار الشِّتاء، وجميعها يؤكِّد على أنَّها إنجازات غير مسبوقة، لم يُنجَز مثلها، لا في رَعويَّة الحَاجّ يونس، أجحمه الله، ولا في رَعويَّة الخروف تغبير، خَيَّبه الله، لكنَّها تُنجَز فقط في رَعويَّة الكلب زمجور، أَيَّده الله.

ولأنَّ جميع الإنجازات غير المسبوقة، العملاقة، الَّتي تُعدّ لأجيال مُستقبليَّة عديدة قادمة، لم تزل بعد في إطار المشاريع،

ما عدا السّجن، فإنَّه قد تَقرَّر اتِّخاذ بعض القرارات لجمع الموارد من الخراف المُحبَّة لمَقرّها العظيم، الرَّاغبة في تطويره، لأجل استكمال الإنجازات.

هكذا، على سبيل المثال، لا الحصر، صدر قرار رَعويّ بإنهاء الرَّعي على المشاع، وتقسيم المرعى إلى إقطاعات، وذلك ترشيدًا للاستهلاك، وحفظًا لمُقدَّرات المرعى؛ فخُصِّص لكُلّ خروف، أو شاة، أو نعجة، إقطاعًا لا يتَخطَّاه إلى غيره، وإلَّا جُرِّم، وحوكم بالتَّعدِّي على أملاك المَقرّ العَامَّة، وألقي به في السِّجن.

نظرت الخراف إلى مساحة إقطاعاتها من المساحة الإجمالية للمرعى، فوجدتها تَقلَّصت إلى النصف منه! وعندما تساءلت عن مصير المساحة الباقية أجيبت بأنَّها ستؤول أملاكًا عَامَّة للمَقرّ.

اعترضت الخراف الأصيلة بشدَّة، وقالت إنَّ المرعى مرعى لأنَّه على المشاع، لا يجوز تقسيمه إلى إقطاعات؛ هذا غير أنَّ فطرة الخرافِ لا تَتَّفق مطلقًا مع التَّخصيص. لكن الخراف، من أشباه الكلاب، استهجنت اعتراضات الخراف الأصيلة، وقالت إنَّ التَّخصيص نعمة، لو جَرَّبتها الخراف لندمت على أنَّها افتقدتها طوال الأزمنة الفائتة، والحقب البائدة. التَّخصيص يعني أن تكون للخروف ملكيَّة، حدود خاصَّة به وحده، يمارس فيها حياته كما يحبّ ويشاء، وهو يأمن من أن يدُسَّ خروف آخر أنفه فيها، أو يأكل خيراتها بِمِشْفَريه الحقيرَين. وقالت أيضًا إنَّ فكرة التَّخصيص ستكون الشَّرارة الَّتي ستُطلِق في قلب الخروف رغبة حقيقيَّة في التَّطوُّر.

وقالت بوضوح، وثقة:

- المُعظَّم زمجور ذكيٌّ وأمين.

وقد كانت الخراف، في السَّابق، تتَفهَّم مُتطلَّبات الرُّعاة البشر، عندما يأخذون من ألبانها وأصوافها. كان أخذًا بعطاء؛ يقبضون مقابل تقديم خدمات واضحة، لكن لِمَ يفرض الكلب زمجور ما أُطلِق عليه: ضريبة: الشَّمس والقمر؟

كيف يمكن تَفهُّم أن يدفع الخروف المزيد من الصُّوف واللبن لا لشيء غير أنَّه يتَمتَّع بعطايا الشَّمس والقمر، من دفء ونور؟

هل كانا، الشَّمس والقمر، وَقفَين على الكلب زمجور خَاصَّة، دون مخلوقات الله، ليفرض الضَّرائب على من يتَمتَّع بهما سواه!

وضريبة: المشافر!

هل خلق الكلب زمجور المشافر للخراف حتَّى يجبيهم عليها؟

وجميع تلك الضَّرائب المفروضة على التَّلاقح، والتَّناطح!

هل كان زمجور الكلب خلق أيور الخراف، وفروج النِّعاج، وقرون الكباش، ليحِقّ له فرض الإتاوات الباهظة عليها؟

وضرائب: الوَفيَّات! الَّتي تُدفَع للرَّعويَّة فور موت الخروف، أو النَّعجة، وإلَّا أُلقيَ بالجُثَّة، في الصَّحراء، نهبًا للمفترسات والطُّيور الجارحة.

وقد أيَّدت الخراف، أشباه الكلاب، جميع ما أصدرته الرَّعويَّة من قرارات وضرائب، وأوضحت ضرورتها البالغة لصالح المَقرّ. ورجت الخراف ألَّا تتخاذل عن تطبيق ما في النَّشيد الصَّباحي من معانٍ كبيرة، أهمّها: تلبية مُتطلَّبات المَقرّ مهما قال: هات وهات؛ وألَّا تنتظر شيئًا منه، لأنَّ مواصفات المَقريَّة المخلصة، والَّتي يجب أن يتَحلَّى بها كُلّ خروف حُرّ شريف، تقتضي ألَّا ينتظر من مَقرِّه شيئًا، بل أن يمنحه كُلَّ شيء. خصوصًا وأنَّ المُعظَّم زمجور ذكيٌّ وأمين.

زمجـور نَـوَّع فِ الـضَّرايب
وفـرض الإتاوات عَ الـنَّطيحة.
مـص لـبـن الـحـلايـب
وقـالـهـا قـولـة صـريحـة.
إحـنـا الـكـلاب الـغـلايب
وانتو الـخـراف الـطَّريـحـة.
تـزرعـوا بـشقـا ووجع قلب
ونحصدها إحـنا سهلة مريحة.

وها قد بسطتُ القول لك يا تعسير، أنا عَمُّك تعذير، الخروف الَّذي بلغ من الكبر عِتيًّا، ومن الحكمة عَليًّا، ومن الرُّؤية صَفيًّا، ومن الخبرة مَليًّا؛ شارحًا ومُفصِّلًا كُلّ ما أحاط بقطيعنا من أحوال مفاجئة، وتَصرُّفات مباغتة.

ولم أفعل ذلك لشهوة حكي انتابتني، ولا لرغبة بوح اجتاحتني، وإنَّما لما كنت أراقبه جَليًّا من تَحوُّل وجهك إلى شبه وجه كلب

مذ كنتَ حَمَلًا، فوددت ألَّا أتركك تنتهي إلى ما انتهت إليه الخراف الأشباه قبلك، من ظلم لإخوتها، ومداهنة وموالسة لأعدائها، إلى أن صارت مِعولًا، أودى بنا إلى حتوفنا، نحيا أمواتًا رغم أنَّنا أصل العيش، وغيرنا يتعَيَّش.

وقد مرَّت الأيَّام والأسابيع، ومات الكلب زمجور.

ومع أنَّه مات راعيًا، مهيمنًا على الصَّخرة، لم يُنتَزع من خيمة الرَّعويَّة، إلَّا أنَّه مات مُعذَّبًا. وذلك لأنَّه عاش، على طول عهده الأسود، ملتحفًا بخوفه. وكيف لا يخاف وقد عاش عمره داهية متآمرًا، لا يأمن لكلب من الكلاب، لأنَّها شاركته اجتماعات الدَّسائس في كهف المؤامرات؛ ولا يأمن للخراف، من أشباه الكلاب، لأنَّها شاركته تنفيذ هذه المؤامرات.

ثُمَّ تَطوَّر خوفه إلى أن صار لا يأمن لقوائمه، ولا لعينيه، ولا لقلبه.

حتَّى لم يعد يأمن نفسه!

وظَلَّ يتَمنَّى لو أنَّ استخباراته تأتيه، يومًا، بالخبر الَّذي يثلج صدره: انصراف الخراف، نِهائيًّا، عن الكلام المُسايساتي.

وإن كان الخوف نجح في إلزام الخراف الصَّمت عن الكلام المسايساتي جهرًا، لكنَّه لم ينجح في إثنائها عنه سِرًّا؛ وقد لا يَهتمّ الرَّاعي المُستبدّ، السَّاذج، بالكلام المسايساتي إذا ظَلَّ سِرًّا وهمسًا، لكنَّ راعيًا ديكتاتوريًّا، داهية، مثل الكلب زمجور اهتَمّ كثيرًا لهذا الأمر، ورآه خطرًا على الدَّوام، خطورة قطعة فحم تشتعل تحت

الرَّماد، بأهون هَبَّة ريح تتأجَّج نارًا حُطَمة.

الآذان تحمل العمائم فيما تُنصِت بشغف؛ العيون تبحلق في الشَّيخ أبيض الهِلّي وهو يشرب جرعة ماء من كوب ألمونيوم كبير؛ الأسماع والأنظار تستعجلانه، فأنهى الشُّرب، ودفع الكوب إلى يدٍ مُدَّت إليه بذراع عجفاء، كغصن شجرة جرداء، وصاح:

- يا إخواننا: راح زمجور، وأتى زعبور. كلب يغور، وكلب يجيء عليه الدّور. وإن كان الهالك مَكَّار، فالحاضر غَدَّار. وإن كان الأوَّل له في المسايسات، فالأخير ليس عنده تفاهمات. وإن كان زمجور مشي على قول المثل: تمسكن حتَّى تتمَكَّن؛ فإنَّ زعبور مشي على قول المثل: «من ذقنه افتل له».

وزعبور يا إخواننا، رأى الكلاب إذا كثرت أعدادها في مَهامّ الحراسة، تنصرف عن مَهامّها إلى التَّهارش، والتَّنابح، والتَّقاتل، فيما بينها، خصوصًا بعدما أصبح للكلبات الحَقّ في العيش جوّه المَقرّ، فصار هَمُّ كُلّ ذكر هو لفت انتباه كُلّ أنثى. لكن زعبور لم يعتبر هذا العيب هو أخطر ما في الكلاب من عيوب، لا، زعبور يا إخواننا كلب منهم وفاهمهم، و: مبروم على مبروم ما يلفّ شيء؛ هو يعرف، ومتأكد من، أنَّ كُلّ كلب جوّاه حلم الرَّعويَّة، هذا هو أخطر ما في الكلاب؛ يعني ما ينفع إنَّه يقصر الحراسة على الكلاب.

ونظر إلى الخراف، من أشباه الكلاب، فاستحقر حالها، لا هي كالكلاب، قليلة عدد لكن لها مخالب وأنياب يجعلانها قُوَّة ذات بأس يُرهَب جانبها، ولا هي كالخراف الأصيلة، يُرهَب جانبها لكثرة

أعدادها. نظر في الأشباه فوجدها شيئًا، لا مؤاخذة يا جماعة، مثل الخُصَى، لا تنكح، ولا تخلو من النَّجاسة. تنفع فقط في تدبير المؤامرات، وإذاعة الشَّائعات؛ تنفع في التَّطبيل للرَّعويات عَمَّال على بَطَّال، لكن لا يمكن تنفع في المهام الجسيمة، كحراسة الحدود الخَارجيَّة للمَقرّ، أو حتَّى التَّنظيم الدَّاخليّ.

وغَزَّ الهِلّي وتر الرَّبابة بقوسها، وشرع يُغنِّي كقاطرة على القضبان سريعة وشديدة:

أبصَر زعبور فكَّر قال كِيف
ما يفلّ الحديد سِوى الحديدي.
الواطي ما يقدر عليه شريف
يقدر عليه واطي نديدي.
والرَّدي يِوسِّخ مِيتين نضيف
وأبو قول طائش غلب السَّديدي.
من الخرفان اتَّخذ حرس وحليف
يبقوا في طوعي سوطي وجريدي.

اجتمع المُعظَّم زعبور بكبار كلاب الحراسة داخل خيمة الرَّعويَّة؛ وأخبرها بوضوح عن رغبته في تكريم الكلاب؛ هذا التَّكريم الَّذي يرى أنَّه قد تأخَّر جِدًّا، لكن: أن تجيء مُتأخِّرًا أفضل من ألَّا تجيء مطلقًا. وقد نبحت كلاب الاجتماع تشكر للمُعظَّم زعبور رغبته الكريمة.

واصل المُعظَّم زعبور نباحه بهدوء، بنبرة متناغمة، كأنَّه يُغنِّي:

- أرى أنَّ مَهامَ الحراسة لم تعد تليق بكم؛ فقد استَقرّ المَقرّ، واستَتبَ الأمن، وآن للسادة الكلاب أن تستمتع بحياتها؛ وألف رحمة ونور على الرَّعيل الأوَّل من كلاب الرَّعوية، وألف شكر للعائش منها.

وغمز بعينه، فيما يبتسم ابتسامة مشوبة بالخلاعة:

- أمَّا أنتم؛ هل نسيتم! لديكم كلبات جميلات تُحبّ أن تعامل برِقَّة، اذهبوا عاملوا كلباتكم برِقَّة، كي لا تتَكرَّر تلك القِصَّة المؤلمة، قِصَّة الكلبة شَطُورة؛ ولديكم جراء صغيرة تنتظر عنايتكم بها أطول وقت ممكن.

نبح الكلب غَبُّور بنبرة قلقة:

- ولكن أيُّها المُعظَّم؛ هل يمكن أن يبقى المَقرّ دون حراسة أو تنظيم؟

أجاب المُعظَّم زعبور بثقة من درس الأمر بجميع جوانبه:

- ومن قال إنَّ المَقرّ سيبقى دون حراسة أو تنظيم! لقد ظَلَّ الأمر مقلوبًا طوال العصور المنقضية، الخراف تأكل، وتشرب، وتبعر، وتنام ملء جفونها كالسَّادة؛ والكلاب تحرس، وتُنظِّم، وتتعب، وتسهر، كالعبيد! لكن الزَّمان اختلف، وآن أوان تصحيح جميع الأخطاء؛ الآن الكلاب هي من ستأكل، وتشرب، وتطرطر، وتنام ملء جفونها كسادة، والخراف هي من ستقوم على الحراسة، والتَّنظيم، بما يليق بها كعبيد.

قال الكلب غَبُّور:

- لكن مَهامّ الحراسة والتَّنظيم هي سبب وجاهتنا، سَيِّدي المُعظَّم زعبور؛ لو انتقلت لغيرنا سنفقد الوجاهة.

ابتسم زعبور ابتسامة فيلسوف خبر أعماق الأمور:

- من قال لك إنَّ مَهامّ الحراسة والتَّنظيم هي ما تمنحكم الوجاهة؟ إنَّ أنيابكم ومخالبكم هي ما تمنحانكم الوجاهة، وستحتفظون بأنيابكم ومخالبكم طوال الوقت، وفي أَيّ مكان.

وأصدر المُعظَّم زعبور بيانًا رَعويًّا، أذاعه لخمس على جميع القطيع، بمأمأة شرخها طعونه في السِّنّ، جاء فيه: أنَّه قد آن الأوان لإنهاء الظُّلم والعسف، عندما تُقصَر المَهامّ الرَّفيعة على مخلوقات دون مخلوقات، بل جميع المخلوقات سَواسيَّة في هذا المَقرّ العظيم؛ وعليه، فإنَّ رَعويَّة المُعظَّم زعبور قَرَّرت منح الخراف فرصها كاملة، وأنصبتها وافية، في الحصول على شرف حراسة حدود المَقرّ الخَارجيَّة، وتنظيم أموره الدَّاخليَّة.

لم تُصدِّق الخراف هذا الخبر.

ربما أصيب الذَّائع لخمس بالخرف لطعونه في السِّنّ!

هل يمكن أن تقبل الكلابُ مشاركة الخراف لها في تَقلُّد وظائفها السِّياديَّة، مهما كان الجميع يعيش في مَقرٍّ واحد؟ هل يمكن للخراف أن تطمح في اعتلاء مناصب أمنيَّة عليا؟ هل وُجِد، أخيرًا، من اقتنع بقدرة القرون على القتال بنفس كفاءة

قدرة الأنياب والمخالب؟

وقد فَكَّرت الخراف بسعادة، وبشر، في أنَّ حُرَّاسًا منها سيحافظون على كرامتها، وسيرفقون بها، لا كما كانت تفعل بها كلاب الحراسة من امتهان لكرامتها، والقسوة والغلظة عليها؛ خطوة تَمنَّت لو كان الخروف الغابر تغبير هو من أقدم عليها، لا كلبٌ.

وسرعان ما سعت الخراف، أفواجًا وزرافات، لتَولِّي عمل الكلاب! فانتُقِيت الخراف المراهقة، الفَتيَّة، العَفيَّة، بطيئة الفهم والاستيعاب، سريعة المناطحة والضِّراب؛ وكُلِّف كُلّ كلب خبير بتدريب فرقة مكَوَّنة من عشر خراف.

زعق الكلب غَبُّور، بنبحة عَسكريَّة صارمة، يسأل الخروف المُجنَّد دردير:

- خروف دردير؛ لماذا تَقدَّمت لعمل الحراسة والتَّنظيم؟

أجاب دردير بمأمأة صاخبة، حاول أن يجعلها عَسكريَّة حاسمة:

- لأحمي المَقرّ من الأعداء يا افندم.

- خروف دردير؛ من هم الأعداء؟

- الذِّئاب، والأفاعي، والثَّعالب، يا افندم.

زعق الكلب غَبُّور بزمجرة مخيفة، ونبح:

- أيُّها الخروف دردير؛ من الَّذي قتل الخروف تصبير؟

- قتله الخروف تعبير يا افندم.

- من الَّذي رابط في ساحة الرَّعويَّة، وهَدَّد أمن المَقرّ؟

- الخراف يا افندم.

- من الَّذي دهس الحملان الصَّغيرة في حوادث التَّناطح؟

- الخراف يا افندم.

- من الَّذي يتَلكَّأ عن دفع الضَّرائب، فيسرق الأموال العَامَّة للمَقرّ؟

- الخراف يا افندم.

- من الَّذي يمارس المُسايسات الهَدَّامة سِرًّا؟

- الخراف يا افندم.

- من الَّذي يرتكب جرائم الإرعاب؟

- الخراف يا افندم.

ملأ الكلب غَبُّور صدره بالهواء، وسأل بزمجرة عاتية:

- خروف دردير؛ من هم أعداء المَقرّ؟

- الخراف يا افندم.

وإذا لم يكن المُعظَّم زمجور، الله يقحمه في نار جُهنَّم، يفي بأَيّ وعود، فذلك لأنَّه لم يكن يعد بشيء من الأساس، فقط كان يُوجِّه الذَّائع لخمس للتَّحدُّث طوال الوقت عَمَّا يحاك للقطيع

داخليًا، وخارجيًا، من مؤامرات عظمى، لينتهي إلى ضرورة اتّخاذ المزيد من إجراءات تشديد القبضة الأمنيّة، حتّى ولو على حساب حقوق الخرفان، وما تضمنه من حُريّات.

أمّا المُعظّم زعبور، الله يلحقه بنار جُهنّم، فمسرف في وعوده، ومعظمها كاذب؛ ثُمّ أنّه يُظهر غير ما يبطن. إذ، مثلًا، بينما يبشّ بوجهه لخروف مظلوم، يقف بين يديه يشكوه سوء الحال، فإنّه يغمز بطرف عينه للكبش شنوقة، قائد الحراسة، كي يقبض على هذا الخروف المُتظلّم ويودعه السّجن.

ويخطب كثيرًا، وطويلًا، فيتَكلّم بحماسة معلنًا رفضه لهيمنة الحَاجّ الدّكروريّ، ذلك الرّاعي البَشريّ الفظيع، الّذي لا يكتفي بإرسال كلابه وخرافه، من أشباه الكلاب، في مَهامّ قذرة لخطف خراف أصيلة من: أوسط ما وراء النّهر؛ بل يمارس مسايسات استفزَازيّة، تنتهك سيادة القطيع.

ولا يفتأ يُكرّر: إنّ في المَقرّ خونة، وأهل سوء، و، و، و... ما يلزم معه اتّخاذ المزيد من إجراءات تشديد القبضة الأمنيّة، وتجاوز حقوق الخرفان، وما تضمنه من حُريّات.

وقد لاحظ مُفكّرو الخراف، وأهرامها، أنّ قبضة الأمن تزداد قُوّة بالفعل، مع ذلك لا تتَبدّد تلك المخاوف الأمنيّة قط. ولا يتَوقّف الذّائع لخمس عن إعلان المزيد والمزيد من النّجاحات الأمنيّة، وفي ذات إعلانات النّجاح يُعلِن عن تنامي مخاوف كبرى من

تهديدات إرعَابيَّة محتملة، ما يلزم معه تشديد القبضة الأمنيَّة!

وهكذا، لا تنفرط أصابع تلك القبضة الأَمنيَّة، المحكمة، عن خناق الحُريَّات وحقوق الخرفان أبدًا.

واستطرد المُفكِّر تعذير، يقول للشَّابّ تعسير:

- إذا بقيت الرَّعويَّة في حوزة الكلاب فلا أمل في الأفق يشي بتغيير حَقيقيّ؛ سنَظلّ نسمع عن إنجازات عظيمة، لكنَّا لن نرى غير السِّجن؛ وإن رأينا بعضها فإنَّ خيراتها لن تعود على الخراف، الَّتي ستَظلّ تعاني شظف الرَّعي في مرعى تتَمتَّع كلابه وأشباهها بألبانه وأصوافه و. و.

إنَّني مُتردِّد في قولها، لأنَّها مُروِّعة.

كم هو ثقيل على لساني ما أريد قوله يا تعسير؛ مع ذلك سأقوله، رغم كُلّ شيء سأقوله، لأنَّه حقيقة أكيدة مؤسفة مهما حاولنا طأطأة الرَّأس بعيدًا عنها، كي لا نراها:

- إنَّها تتَمتَّع أيضًا بلحومنا.

نعم؛ الكلاب تأكلنا خُفيَة، تمامًا كما كان يفعل الرُّعاة البشر سابقًا.

الرُّعاة البشر، والرُّعاة الكلاب، يأكلاننا، فقط تختلف طريقتاهما في الأكل.

سِمع تعسير كُلّ الحكاية

كـنّـه قـراهـا فِ الدَّفاتر.
آدي القِـصَّـة وآدي الـرِّواية
حكاها تعذير بقلـب فـائر.
بـداية واعـرة وليـها نهاية
الـظُّـلـم واجـب يـغـادر.
قوم تعسير أبصر عمل كيف
عَمْلَة حكوها فِ المناضِر.

اضطجع تعسير لصيقًا بأُمِّه سميرة؛ كانت بدورها مضطجعة تَجترّ فيما ترقب شمس الغروب.

إنَّه حزين؛ يرى الإمحال مستشريًا حوله، فالمرعى أقحل، والنَّهر نضب، وكُلّ خروف أو نعجة، في إقطاعه المعيَّن له، يُقلِّب الرَّمل بأسنانه، يحاول العثور على أَيّ جذر مخبوء ولو لأشجار مُرَّة الطَّعم؛ أجساد الخراف نحلت من فرط الجوع، وأشباه الكلاب سمينة، تمشي تتبختر.

ها هو طنفس قد خدم أهله من الخراف الأشباه، عندما ألصقهم بأكناف الكلاب الرُّعاة؛ وقد طَوَّر هؤلاء الرُّعاة منظومة الرَّعويَّة فصارت أَشدّ بأسًا، واستأثرت الخراف، من أشباه الكلاب، بوظائف رَعويَّة وسياديَّة، حيث وُظِّفت في رئاسة الحراسات والتَّنظيم. وُظِّفت في الاستخبارات. وُظِّفت في المحاكم. استُعِين بها في دور الفتاوى. هذا بخلاف سيطرتها على المذائع.

ارتقت أشباه الكلاب معظم الوظائف النَّافذة، وحازت من

أصواف الخراف الأصيلة وألبان شياهها أقدارًا مهولة، وقايضت بها لتمتلك المئات من إقطاعات الرَّعي. فهل ارتقت الخراف الأصيلة، حتَّى في ظِلّ تَولّي بعضها مَهامّ الحراسة والتَّنظيم؟

لم يحدث؛ وإن حصل، هذا البعض، على زيادة من محاصيل الإقطاعات إلَّا أنَّها ظَلَّت زيادة لا تنهض بها، من المستوى المتدَنِّي لمعيشة الخراف الأصيلة، إلى المستوى الرَّاقي لمعيشة الكلاب وأشباهها؛ مع ذلك ظَلَّت الكلاب تُظهِر لخراف الحراسة أملًا في الحياة الأفضل، يبدو بعيدًا، لكنَّه سيقترب بسرعة كُلَّما اشتَدَّت في قمع الخراف الأعداء.

تأسَّف تعسير كونه ينتمي بشكله لهذه الخراف الأشباه.

وتَعجَّب: كيف صرت خروفًا شبيهًا بينما لا تَمرّ ليلة دون أن أسمع من العَمّ الحكيم تعذير عن قهر الأشباه للأصلاء، وظلمها الفاحش لبني جنسها؟

أحدث هذا لأنَّه تَمنَّى، في قرارة نفسه، لو لا ينشأ مقهورًا كالخراف الأصيلة؟

لكن إن لم يرغب الخروف في العيش مقهورًا فلا محيص من أن يعيش قاهرًا؟ أي: أن تتَحوّل ملامح وجهه تَلقائيًّا، ودون إرادة منه، لتأخذ ملامح أشكال الكلاب القاهرة؟

ربما هذا ما جرى. مع ذلك، وإن كان وجهه قد صار شبه وجه كلب، فإنَّ قلبه لم يزل يَدقّ كقلب خروف أصيل.

همس لسميرة:

- لقد اكتشفت الأمر المؤسف يا أُمِّي؛ إنَّ ملامح وجهي استحالت إلى ملامح وجه كلب.

مأمأت بنبرة تصطنع السَّعادة:

- لتفرح بهذا يا ولدي؛ إنَّه من سعد طالعك، لشَدّ ما كرهتُ الخراف الأشباه، لكن لا أستطيع أن أراك قتيلًا، أو معتقلًا، أو مضطهدًا، أو مقهورًا فقيرًا؛ كما ترى، الخراف الأشباه في مأمن من جميع هذه المهالك.

- لقد سمعت القِصَّة من العَمّ الحكيم تعذير، لذلك أرجو لقلبي، مهما تَغيَّر وجهي، أن يبقى قلب خروف أصيل، إذا كانت الكلاب يا سميرة مخلوقات مخادعة، تستحلب مكانتها السَّامية بالمؤامرات، لا بقيمتها الذَّاتيَّة؛ أنا فهمت لماذا تتآمر الكلاب، ولماذا تستخدم العنف المفرط، وتهيمن على الرَّعويَّة، تفعل ذلك لكونها تدرك حقيقتها، إنَّها مُجرَّد مخلوقات زائدة عن القطيع، عالة عليه كالحشرات مَاصَّة الدِّماء، هذه الَّتي تنشب شوكاتها بجلودنا، لو لم تفعل ذلك، واستسلمت لقدراتها الحَقيقيَّة، تموت.

جزعت سميرة؛ ظهر جزعها جَليًّا، كونها تَوقَّفت عن الاجترار، ولوت رقبتها لتنظر في عينَي وليدها مباشرة؛ يا له من وليد جميل، لا زالت تراه حَمَلًا صغيرًا في كُلِّ مَرَّة تجزع من أجله.

مأمأت بقلق:

- كلامك لا يطمئنني. ما قاله لك الخروف تعذير قاله بعقله، وما أقوله لك أقوله بقلبي، وقلب الأم أصدق، بعدد نجوم السَّماء، من عقل أحكم الحكماء. إنَّ الخراف الأشباه لا تحوز ثقة الخراف الأصلاء، لكنَّها تحوز ثقة الكلاب، وعليك بدءًا من الآن بعمل جميع ما يُمكِّنك من حيازة ثقة الكلاب، لأنَّك مهما عملت جميع ما يُرضي الخراف الأصيلة فإنَّها لن تمنحك ثقتها ووجهك يشبه وجه كلب؛ وإذا لم تحز ثقة الخراف، أو ثقة الكلاب؛ فكيف ستحيا دون ثقة؟

عَضَّ تعسير أذن سميرة عَضَّة حانية، رقيقة، ثُمَّ همس فيها بما زاد من مخاوفها:

- جالستُ المُفكِّر تعذير الليالي الطَّويلة، حكى لي فيها قِصَّة الخراف مع الرُّعاة، البشر منهم والكلاب، وكانت الأُمَّهات في جميع العصور هُنَّ من يكتوين بالظُّلم أوجع اكتواء، عندما يُغادرهنّ الأبناء إلى القبور، أو السُّجون، أو إلى القَصَّابين. فهمت من حكايات المُفكِّر تعذير أنَّ أصدق القلوب هي قلوب الأُمَّهات، لأنَّها الوحيدة الَّتي تذبل بفقد فلذات الأكباد سريعًا، وتموت مهما بقيت تَدقّ وتَضخّ الدَّم! يا أُمِّي: لن أستطيع العيش شبيهًا في خدمة الكلاب، وحتَّى إن قُدِّر عَليّ ألَّا أحوز ثقة الخراف الأصيلة فيكفيني أن أحوز ثقتي بنفسي.

نهضت سميرة على قوائمها الأربع مفزوعة؛ الشَّمس غابت بكامل استدارتها، وخراف الحراسة تمأمئ بضرورة أن يلزم كُلّ

فرد من الخراف إقطاعه الآمن في الحظيرة الفاخرة؛ وبينما تفعل كانت تهاجم البعض، تنطحه بقرونها رغم التزامه، فيما تثغو ثغاءً وَحشيًا يشبه نباح الكلاب!

وضعت سميرة رأسها الأجلح على قرني تعسير النَّابتين بالكاد، شعر بها تبكي، وسمعها تهمس بوجع:

- أرأيت؟ خراف الحراسة والتَّنظيم تذلّنا مثلما كانت تفعل كلاب الحراسة والتَّنظيم! يا حَمَلي الصَّغير: لا تقهرني عليك؛ أنا لا أتَحمَّل حزن صديقاتي على أبنائهن فكيف بحزني عليك؟ سيكون أثقل من أن أَتحمَّله، حرام عليك يا حَمَلي الصَّغير، لا تقهرني قهرة أموت بسببها.

- يا أُمِّي..

أراد تعسير أن يقول شيئًا يطمئن خاطرها، لكن خاطرها أمسى فجأة عاصفة هوجاء لا يمكن طمأنته، فآثر أن يصمت على أن يكذب.

وأحـنّ الـقـلوب قـلب الأُم
قلب مُخلِص هواه يصونك.
لا قلب خال ولا قلب عَمْ
لا ممـكن أبدًا يـخـونك.
لـو قـلت آه يـركـبه الهَمْ
ولا يِسـكـَن إلّا بسـكونَك.
ويـا فتى دايمًـا ارحـم أُمّك
الله يدوم فِ صفّك وعونك.

لكن تعسير شاف أبصر إيه
دَفْع المظالم فَراضي.
إذا كان فِهِم يُبقا عَلِيه
نُصرَة العدل فِالأراضي.
ومهما زعبور غَلْ يَديه
أو قلب سميرة عَراضي.
ليقول بالحق قولة قوية
ولو قَطَّعوه أطوال وعراضي.

قد علم أنَّ ما تظهره الخرافُ للكلاب من احترام محض زيف. وقد تَكلَّمت الخراف بالمسايسات وقُضي الأمر، ومع كُلّ يوم ينقضي تفهم أكثر وأعمق؛ هكذا انكشف لها من الحقائق ما أذهلها، لتُدرِك أنَّ الكلاب كانت على الدَّوام مخلوقات هَشَّة ضعيفة، مهما عَضَّت، أو خمشت، فلا يمكنها أبدًا الاعتماد على أنفسها؛ إنَّها تَعضّ وتخمش لتنشب أنيابها ومخالبها في جسد الفريسة؛ لتلتصق بها مثل حشرة مُتسلِّقة، تَمصّ دمها، لتُبقي على حياتها الزَّائفة.

وفَكَّر تعسير فرأى الخراف في طور جديد؛ إنَّها تتَعلَّم؛ وإذا كانت تتَعلَّم فما أحوجها لأفكار الأشباه من أمثاله، هؤلاء الَّذين يفهمون لكنَّهم، للأسف الشَّديد، يخونون! أفكار هؤلاء، لو أخلصوا للخِرفانيَّة، ترسم طريقًا آمنًا مستقيمًا نحو الكرامة والحُريَّة.

وتَردَّد في ذهنه آخر ما سمعه من العَمّ تعذير:

اسمعني يا تعسير؟ حِبّ الخراف، واكره القطيع، واكفر بالمَقرّ؛ لا تُردِّد نشيد الصَّباح.

وقد أُعلِن مُؤخَّرًا عن اتِّفاقيَّة لتحقيق الأمن، عقدها الكلب المُعظَّم زعبور مع قائم مقام الذِّئاب، المدعو زمباوي، تَنصّ على أن يقوم مَقرُّ: أوسط ما وراء النَّهر؛ بتزويد الذِّئاب، سَنويًّا، بعشرين خروفًا يافعًا حَيًّا، في مقابل امتناع الأخيرة عن مهاجمة المَقرّ.

وكالعادة؛ أيَّدت الخراف أشباه الكلاب، عبر عدد من المذائع النَّاشئة، هذه الاتفاقيَّة، ووصفتها بالقَويَّة، تمنح الخراف أمنًا حَقيقيًّا، بحيث ترعى في إقطاعاتها، وتتزاور بين الإقطاعات، وتذهب إلى ضِفَّة النَّهر، وتتناطح، وتتناكح، دون خوف من هجوم الذِّئاب المباغت، ما يجعلها أقدر على الاستمتاع بحياتها، فتَضخّ ألبانًا أكثر وأجود؛ وتمنح أصوافًا أغزر وأفخر.

وقالت بوضوح، وبثقة:

- المُعظَّم زعبور ذكيٌّ وأمين.

ومثل كُلّ مَرَّة، أوشكت الخراف بسلامة طواياها، وقلوبها البيضاء، على استيعاب تبريرات المذائع، وقبول الاتفاقيَّة بأريَحيَّة، لولا أنَّ خروفًا شَابًّا، من أشباه الكلاب، ويا للعجب!

اسمه تعسير، طاف بين الخراف في مراعيها، وطاف بينها في استراحات الاجترار، وطاف بينها في مضاجعها، يشرح لها كيف أنَّ اتفاقيَّة الكلاب مع الذِّئاب تهين الخراف وتذلّهم.

قال تعسير في توضيحاته بنبرة مُرَّة:

- إذا كانت الذِّئاب، في أَيّ سنة من السِّنين، بطول التَّاريـخ، لم تقدر على اختطاف خمسة خراف هرمة في أكثر من هجمة، فكيف تُمنَح طواعية، وسَنويًّا، عشرين خروفًا يافعًا دفعة واحدة! ثُمَّ أَيّ ألبان أغزر، أو أصواف أجود، يَهمّكم أمرها، إذا كان جميع المحصول يذهب إلى الكلاب وأشباهها، ولا يعود عليكم منه شيء!

يا لها من اتِّفاقيَّة لتحقيق الأمن، تجعل الخراف تعيش في هلع ورعب!

إن كان ثَمَّة أمن، في تلك الاتِّفاقيَّة المخزية، فهو أمن رَعويَّة الكلب المُعظَّم زعبور؛ الَّذي ورث الخوف عن أبيه زمجور؛ إنَّه يخشى هَبَّتكم، فيعقد الاتفَاقيَّات مع أعدائكم طمعًا منه في الاستعانة بهم إذا قلبتم له ظهر المِجنّ.

ليست اتفَاقيَّة؛ إنَّها رشوة، يدفعها كلب لذئب، من لحم الخروف.

صوت أبيض الهِلّي صَدَّاح؛ نغم الرَّبابة رَدَّاح؛ قلوب المستمعين تقرع داخل صدورهم قرع الطَّبل البَلديّ، ضخم الاستدارة، غليظ الأغشية؛ صخب المواجهة بين العدل والظُّلم في القِصَّة آخذ في

الارتفاع، ضجيجه لا يسمح للآذان بسماع صوت اصطكاك يتصاعد من بَوَّابات البيوت المُوزَّعة حول الرَّحبة، إلَّا أنَّ آذان الكلاب، تلك المحيطة بجموع السَّمِّيعة، التقطت الاصطكاك، وانتصبت موحية بأنَّها شرعت في الاهتمام لأمر ما، غير الرَّبابة والغناء.

إنَّه اصطكاك!

كأنَّ قرونًا قَويَّة تضرب بعنف، وإصرار، خشب البَوَّابات!

استخبارات الكلاب لا تراقب الخراف الأشباه بدِقَّة، لأنَّ معظم الخراف الأشباه مخلوقات استخبَاراتيَّة بطبعها، فلا تَشكّ في أنَّ واحدًا منها قد يسعى إلى العمل السِّريّ ضِدَّها، أو ضِدّ سادتها الكلاب، إذا كانت الكلاب تمنحها كُلَّ ما تَتمنَّاه من مكانة قطعَانيَّة راقية، وعوائد أصواف، وألبان، تستعصي على الإحصاء.

لذلك عندما ذهب تعسير إلى ساحة الرَّعويَّة، وطلب من الكبش شنوقة لقاء الرَّاعي المُعظَّم، لم يَتمّ تأجيل طلبه للتَّحقُّق منه أَمنيًّا، بل أَذِن زعبور له في الدُّخول عليه حالًا، لا يَشكّ لحظة في أنَّ هذا الخروف الشَّبيه، مثله مثل جميع الأشباه المنتفعين، جاء يطلب منصبًا، أو أموالًا؛ وإذا ارتقى عن هذين المطلبَين، فربما سيطلب الإسرار له باكتشاف خطر أَمنيّ يُهدِّد الرَّعويَّة من داخل المَقرّ، وهي الرَّغبة الَّتي ستنتهي بانتظاره لمكافأة، لن تَقلّ عن منصب، أو أموال! أشباه الكلاب تتَعدَّد سبلهم إلى غايتيهما المُقدَّستين: المناصب، والأموال.

- أدخل أيُّها الخروف تعسير.

دخل تعسير خيمة الرَّعويَّة برأس عالٍ، وأنف شامخ.

ولأنَّ زعبور لم يألف رؤية شبه كلب برأس عالٍ، وأنف شامخ، فقد أدهشه المنظر، وأغضبه في ذات الوقت، إذ لا رؤوس خرفان، مهما كانت خرفان ذَكيَّةً، تعلو في حضرة كلب، فكيف والحضرة حضرة المُعظَّم زعبور، بشحمه ولحمه؟

وفَكَّر في ألَّا ينفعل، وأن يلتمس العذر لهذا الخروف الوقح، فهو لم يزل، على ما يبدو له، يافعًا مراهقًا، بالكاد ينبت قرناه من رأسه المماثل لرؤوس النِّعاج؛ حتَّى ملامح الكلاب على وجهه ليست واضحة كما ينبغي لوجه خروف شبيه.

نعم، إنَّ هذا الخروف جلف، لا لشيء غير عدم خبرته بكَيفيَّة الدُّخول على المُعظَّمين الرُّعاة؛ ليصبر عليه إذن.

لكن زاد من دهشته وغضبه أنَّ تعسير وقف بمواجهته صامتًا، في عينيه نظرة عجيبة، نظرة لم يألفها أيضًا في عيون الخراف الأشباه. كأنَّها نظرة احتجاج!

كأنَّها نظرة رفض!

كأنَّها نظرة...

نبح المُعظَّم زعبور نبحة عالية، بضجر:

- ماذا تريد أيُّها الخروف؟

قال تعسير بثبات مذهل:

- أريد أن أحاكمك أيُّها الكلب.

صاح الشَّيخ أبيض الهِلّي بعنفوان، بحرارة قلب سَخَّنته حرارة اللحظة:

- قال له يا كلب: أنا أريد أحاكمك.

قام زعبور قال له: ومن أنت حتَّى تحاكمني؟ هل أنت إلَّا خروف عبد من عبيد إحساناتنا، أنعمنا عليه لأجل شبه وجهه بوجوه أسياده؟

رَدّ عليه تعسير، وقال له: أنا لست عبد إحسانات أحد، أنا واحد من أهل البلد، له حقوق في بطن كُلّ من فسد؛ أمَّا أنت فقد خَرَّبت مرعانا، ومَزَّقت لحمتنا؛ كُنَّا نعيش مع الرَّاعي الإنسان مُتوحِّدين، جميعنا خراف، لم نتَفرَّق إلى أصلاء وأشباه كلاب إلَّا عندما استولت الكلاب على الرَّعويَّة.

صرخ زعبور فيه: من أنت؟ قف مكانك عِوِج وتَكلَّم عِدِل، اعرف أنت تُكلِّم من، أنا سَيِّدك الكلب، وأنت طلعت أو نزلت خروف ابن خروف.

لم يهتز تعسير لزعيق زعبور، بل قال بهدوء وحكمة يستَفزَّان السُّلطان: مهما كنتُ، فأنا خروف من الرُّعيان، ولي حَقٌّ؛ أنت تَذلّنا بالفرقة، وبالتَّخويف، وبتدبير المؤامرات، وبالحوادث المفزعة، وبالضَّرائب المُبيرة. تَدَّعي أنَّك تحمينا، لكن أنت سارقنا وحرامينا.

يا إخواننا، الحَقّ يقال: إنَّ تعسير قال لزعبور كلام وعر.

وخطف أبيض القوس، أجراه على أوتار الرَّبابة بِحدَّة، كحَدّ سِكّين يجري على رقاب الدَّجاج والحمام، وأنشد يُغنّي بعزم، كأنَّه البحر الهادر:

- قال له: يا زعبور؛ يا أيُّها الكلب المغرور؛ يا كلب ابن كلب جَدُّه كلب:

بتبيعنا شرق وغرب
كَنَّا بضاعة معطوبة.
وإحنا لا وَكْل ولا شُرب
مراعي صارت مخروبة.
وكلابك في كُلِّ درب
تنهبنا باسم الضَّروبة.

رد زعبور قال أبصر إيه
مين انت تحاسبني.
رافع راسك على إيه
كان جِدَّك ياك ناسِبني.
أنت خروف شبه كلب
تطاطي تبوس إيد ابني.

رد تعسير أبصر قال كيف
لو حدانا أسياد وعبيدي.

فجـِدّي كـاسر صاحب كيف
وجـِدَّك حـيـوان بـلـيدي.
جـِدّي بـألـبـان وأصواف
وجِدَّك شَحـَّات جـريـدي.

تـعـسير قـال وقوله أصاب
زعق زعبور وقال: يا حاجب.
هذا الـخروف قـال وخـاب
وقسمًا راسه من جسمه لاجِب.
أنـا حـكـم وحـكـمي غَلَّاب
عَلّقوه ثُمَّ ادفنوه فِ لاجِب.

تـغـبـير قـال وقـوله يمشي
لك يوم يا ظالم لونه أسود.
هاشـوفه ولـو جـوَّه نعشي
تفـرح خـرافنا فـيه وتسعد.
قسـما يا كـلب لترحل وتمشي
في يـوم مـر عـلـيك وانكد.

بأمر الكبش شنوقة هجم خروفان من الحراسة على تعسير، أحاطا به وقد شرعا قرونهما، أثبتاه حتَّى دخلت فرقة الإعدام؛ فرقة مُكوَّنة من خمسة كلاب سوداء مخيفة، عيونها حمراء كلهب النَّار، شعورها غزيرة كأنَّها لبد الأسود؛ انطبق فَكًّا أحدهما على أذن تعسير، وفَكًّا الآخر انغرسا في مِشْفَريه، بينما الثلاثة كلاب

الأخر تناوبت على نهش لِيَّته وقوائمه؛ وكانت جميعها تَجرُّه إلى خارج خيمة الرَّعويَّة، بينما تزمجر بسعار.

زعبور ينبح بعنف غاضب حَدّ البلاهة، يخمش الأرض بمخالب قوائمه فيقلقل مهاد غبارها.

لم تكن كلاب الإعدام، الَّتي هاجمت تعسير، قد نبحت نباحًا بهذا الغضب قبل اللحظة.

الغروب؛ من أسفل تَبَّة الرَّعويَّة، بدت لخراف القطيع أجسامٌ سِتَّة، سوداء في عين الشَّمس، خمسة ظلال لكلاب ضخمة تفتك بظِلّ خروف لم يبلغ مبلغ الكباش بعد، بين الصَّخرة والخيمة. والظِّلّ السابع لزعبور، أسود مدلهم، ينبح بجنون.

لم يردها تعسير استسلامًا لعقوبة إعدام ظالمة؛ بل أرادها مواجهة، ولتنتهي بالموت؛ يعلم أنَّ المواجهة غير متكافئة، لا من قريب، ولا من بعيد، لكنَّه لن يستسلم.

نفض جسده فثار صوفه، انتصب مثل شوك القنفذ، وشرع قرنَيه النَّابتَين، وناطح المعتدين، ببسالة كباش أقدمين، كانوا يرضعون مع اللبن الشَّجاعة. والحَقُّ أنَّ قرنيه النابتين كانا خرافي الطَّعن، أحدثا إصابات بالغة في أجساد الكلاب الخمسة، رغم الإصابات البالغة الَّتي لحقت به، فانسحب منها من تعَوَّق، وتكالب غيرها عليه، في حين وقفت الخراف تراقب الموقعة، في عيونها خوف، بينما تواصل الاجترار.

ربما يمكننا هنا فهم المسألة: لماذا تسود الكلاب، ولا تسود

الكلاب تسود لأنَّها تملك القدرة على التَّكاتف في وجه ما تعتبره اعتداءات؛ إذا دخل أحدها مواجهة قتَاليَّة، مع أيّ مخلوق سواها، فسرعان ما يتَقدَّم العديد من رفاقه لمؤازرته؛ وربما الخراف تُستعبَد لأنَّها، ومهما امتلكت من صفات عديدة مُميَّزة، فإنَّها تفتقد لأهَمّ ميزة: التَّكاتف في مواجهة الاعتداءات.

ها هي الخراف ترى تعسير يناطح أكثر من خمسة كلاب، يتناوب على مقاتلته السَّليم منها بعد انسحاب المصاب؛ وقد رأت من قبل خروفًا اسمه تغبير استطاع وحده هزيمة ذئب، فما الَّذي يمنعها من الهجوم على تَبَّة الرَّعويَّة، وتَسلّقها، ومؤازرة خروف يناطح، لا من أجل حقوقه وحده، بل من أجل حقوقها أيضًا؟

لو كان التحق بتعسير خروفان فقط لأمكنه الانتصار، ولبدأ عصر الخراف الأحرار.

لكن ها قد هجم عليه الكبش شنوقة هجمة صاعقة، بقرنَين ساحقَتين، كالصَّخر الجلمود، فأسقطه على ظهره، ليسارع شنوقة بقطف خصيتيه، فيما أكثر من عشرة كلاب غَيَّبته بينها، تنهش جميع جسده، والخراف واقفة تنظر ببلادة، تَجترّ ببرود، فيما تدعو الله، بقلوب مخلصة حَارَّة، أن يتَمكَّن صاحبها من هزيمة جميع هذه الكلاب وحده؛ وتُحدِّث نفسها:

- إن كان تعسير ألقى بنفسه إلى التَّهلكة، من أجل حقوق

ليست أسَاسيَّة، فعليه تَحمُّل ما يجرى عليه.

قفزت سميرة محاولة اعتلاء التَّبة بمفردها، فهاجمتها خراف الحراسة دون رَويَّة، تنطحها وتمنعها؛ رأت الأُمّ جلد حَمَلها الصَّغير يتَقطَّع، ولحمه بان من عظامه، ودمه يدفق من نواحي، ويقطُر من نواحي؛ رأته قد أُجهِد إلى النِّهاية، عيناه تتأرجحان، ولا تريان؛ رأته يستَعدّ للخوار والسُّقوط في جُبّ الموت.

وإذا كانت سميرة لم تزل شاة صغيرة، مأمآتها رقيقة، فقد نعرت كبقرة، بينما تغرز حوافرها في تراب التَّبة، تُصرّ على اعتلائها، لإنقاذ حَمَلها من أنياب ومخالب القتلة، غير أنَّ القتلة لا يرفقون أبدًا بالأمَّهات؛ نطحتها خراف الحراسة والتَّنظيم بمنتهى القسوة ففقدت اتِّزانها، وسقطت تتَقلَّب من أعلى حتَّى وصلت إلى الأرض السَّواء.

وكأنَّها ترى حلمًا على أبشع ما تكون الأحلام؛ الشَّمس تَحمرّ، ودخان يُعبِّئ فضاء السَّماء، يتصاعد منبثقًا من بين عشرات الكلاب المتكالبة على جسد حَمَل صغير، اسمه تعسير، فيما هو مقلوب صريعًا على ظهره، تنغرس قوائمه الأربع في قلب الهواء.

ثُمَّ غامت رؤيتها.

وغابت.

نوح الدُّهور ما يكفيني بُكا
علـيك يا ابن بطـني وقلبي.
فؤادي داق مر غيبتك شَكا

يا حرقتي آه يا انا يا غلبي.
كان ضـهـري عـلـيـك اتَّكا
يا سندي غدر بيك الكلبي.
دمـع عـيـني أنـــهار وبحـور
هَمِّي جرى والحزن فاض بي

بالكاد؛ بزغت الشَّمس من مشرقها خافتة الإنارة؛ برد الصَّباح بخار متكاثف، كأنَّ السَّماء ميتة، فَتهدَّلت حَوافُّها من كُلّ الجهات؛ الكون تكوين خُرافيّ، إن يُرى على هذه الحال ففي الأحلام الأسطُوريَّة، حينما سمعها الكلب زعبور بوضوح، تصدر جَماعيَّة، رخوة، كأنَّها تنهيدة عميقة يثُجّها صدرٌ ضخم، لكنَّه مُتعَب:

- غور.

سمعها، ولم يفهمها.

بيد أنَّ إحساسَين طاغيَين: القلق، والارتباك؛ داهماه، قبل أن يسحقانه وهو يسمعها تتَردَّد مَرَّة ثانية، جَماعيَّة، تُنغِّمها حناجر الخراف بثغاء بائس حزين، يقسو رخوُها، فتنعظ نبرتها غاضبة؛ لذلك سمعها هذه المَرَّة أعلى:

- غور.

غور؛ كلمة قُطعانيَّة عَاميَّة، تعني: ارحل.

قام من ضجعته داخل خيمة الرَّعويَّة، وشعر بأنَّ القلق والارتباك عالقان بشعره مع ذَرَّات الغبار، فنفض جسده بقُوَّة كادت معها

قوائمه أن تَتَخبَّط، فتَتكسَّر مفاصلها؛ ثُمَّ خرج ليطُلّ على المَقرّ.

رأى نورَ شمسٍ باهتًا، عالقًا في بخار صَباحيّ مُتهدِّل، فانقبض قلبه.

وعندما نظر إلى الأرض رأى الخراف الأصيلة جميعها، دون استثناء، تقف متلاصقة، رؤوسها إلى خيمة الرعوية، عيونها مُتحدِّية، تُحرِّك فكاكها، كاشفة عن أسنان يطحن أعلاها أسفلها، كأنَّها ذئاب تشرع في الهجوم؛ أَمَّا مُؤخِّراتها فإلى جذع شجرة مستقيم يابس، غُرِس في الأرض، وقد عُلِّق عليه تعسير مُمزَّقًا، قتيلًا.

سميرة أسفل الجذع ينسرب دمعها مَغليًّا، غير أنَّها، ويا للعجب، تشعر بنفسها أكثر اطمئنانًا وثباتًا؛ قد عرفت كيف تَحمَّلت صديقاتها الشِّياه مصارع أبنائهن؛ تَحمَّلن لأنَّ قلق الخوف على الأَعزَّاء ذهب برحيلهم.

يذهب الخوف ويحَلّ الحزن؛ وإذا كانت الخراف ها هي تفيق، وتشرع في القتال، فبانتصارها يذهب الحزن، ويَحلّ الفرح.

وهي أُمّ البطل؛ هذا المُعلَّق وقد نُكِّل بُجثَّته.

ناحت:

- يا ولدي.

لماذا تنوح؟ إذا كان حَمَلها الصَّغير، المصلوب مُقطَّعًا، ينظر إليها من مكانه العَليّ بعينين باسمتين!

إنَّ آلاف الخراف غَطَّت بأجسادها الزَّاوية، لفرط جوعها، رمال المرعى القاحلة، وضفاف النَّهر الجَافّ؛ تقف مُتحدِّية، لا تستجيب لزجر عشرات من خراف وكلاب الحراسة والتَّنظيم المحيطة بها، ورغم هزالها تُلوِّح بقرونها دون خوف، فيما تُبرِز أسنانها ذات الشَّفرات القاطعة، تُهيّئها لقطف الخُصى.

أقعى الكلب زعبور على مُؤخِّرته، ولم ينتبه إلى أنَّه أقعى على ذيله أيضًا؛ كان ذيله رخوًا، مُلقًى على الأرض كأفعى ميتة.

وسمعها للمَرَّة الثَّالثة.

صرخت بها الخراف هادرة، فانطلقت من أفواهها اليابسة بسرعة البرق، لتصطدم بالشَّمس، وتَرتدّ مشتعلة ككرة النَّار، مضيئة باللهوب، فتخترق عينيه، وتعميهما لفترة.

- غور.

انخلع قلبه، انفلت من أربطته وتَخبَّط في ضلوعه؛ شعر بهيمنته تنهار إزاء ما يسمعه، فصوت الخراف لم يكن مأمأة ولا ثغاءً؛ بل قرقعة رعود تخترق طبلتَي أذنيه المَرخيَّتين، فتصيبه بجنون الرُّعب.

«غور»؛ كلمة قُطعانيَّة عَاميَّة تعني: ارحل. غير أنَّها «ارحل» مَحشوَّة بالكره والاحتقار، مدملكة بالوعيد، نفد منها الصَّبر، تُوجِّه التُّهمة إلى كُلّ راعٍ كلب مُستبدّ.

إنَّه الصَّباح الأسطُوريّ؛ روح تعسير يطوِّف حول جسده المُقطَّع، ثم ينطلق بين الخراف الثائرة حتى يخترق أذني الحكيم

تعذير، ويهمس فيهما:

- قم يا عم تعذير، اصرخ بأبيات تشعير: انطح.

انقشع البخار، تَبدَّى صفاء السَّماء زاهيًا بالزُّرقة الشَّفَّافة، والشَّمس برتقالة ذَهبيَّة تعتمر سحابة ناصعة البياض.

نهض تعذير على قوائمه المرتبكة لفرط هرمه، كان يبكي، وثغا بمأمأة مهيضة مجروحة:

انـطـح. لا تـعـش حمارًا.
ارفـس. لا تـعـش خـروفًا.
عَـــــضّ. اخـــمـــــش.
لو لم تعش راعيًا. عش كلبًا.

انفجر هدير الخراف الحَارّ، وهي تهتف بمنتهى العزم:

غور

غور

يا زعبور.

غور

غور

يا زعبور.

غور

غور

يا زعبور.

وكان الشَّيخ أبيض الهِلّي يقول:

- الكلاب عَلَّقت تعسير على العود بعد أن قتلته تعذيبًا بالخمش والعَضّ، وبعد أن سلخت جلده عن جسمه، وبقرت بطنه فأخرجت أحشاءه؛ عارفين يا إخواننا: الكلاب عملت به كما يعمل أحدنا بالخروف إذا ذبحه.

وقد شرع يبكي مصرع تعسير على أنغام الرَّبابة عندما بوغت، كما بوغت المستمعون، وبوغتت الكلاب المحيطة بالسَّاحة، ببَوَّابات البيوت تتَحطَّم، وتتهاوى، إثر نطحات قَويَّة تَدكّها من الدَّاخل، قبل أن تندفع الخراف من حظائرها إلى الخارج ثائرة!

كانت آحادًا، فعشرات، فمئات، ثُمَّ سيل فَيَّاض هادر من خراف مشتعلة كالنَّار، تركض بقرونها وأسنانها في طرقات النَّجع، مُتَّجهة إلى ناحية الرَّحبة، أمام الجامع، في فضاءات أعينها تتَفجَّر سحائب الثَّورة بالبرق والرَّعد.

عوت الكلاب مرعوبة، تهرب بذيول التصقت بمؤخراتها، أطرافها دلفت إلى ما بين أفخاذها، وتَشتَّت المستمعون، يهربون إلى ظلام الأراضي الماحلة، وإلى أخاديد التُّرع الجَافَّة.

انطلق بَغْلُ المُغنِّي يركض على غير هدى، فيما حاصرت الخراف أبيض الهِلّي، الَّذي تضَامّ على نفسه مأخوذًا بالخوف،

هلوعًا في مجلسه العالي، تتناوشه الأسنان والقرون، فكابد الرُّعب إلى أن أسقط الرَّبابة.

ثَمَّة كبش صعد المَنصَّة، وأخذ يتَشمَّم أركانها، كأنَّه كلب.

غير مسموح بالبيع خارج مصر

طبعة مصرية

9 789778 551204

منشورات إبيدي